الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة



الخطابة السياسية في مصر

من الاحتلال البريطاني إلى إعلان الحماية

تأليف
عبد الصبور مرزوق

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م

الخطابة السياسية في مصر

من الاحتلال البريطاني إلى إعلان الحماية

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

"المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر"

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة



الخطابة السياسية في مصر

من الاحتلال البريطاني إلى إعلان الحماية

تأليف

عبد الصبور مرزوق

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

بالقاهرة

١٩٦٧

مقدمة

موضوع هذا البحث هو الخطابة السياسية فى مصر من الاحتلال البريطانى إلى إعلان الحماية .

وقد آثرته بالدراسة لما كان — ولا يزال — له من الآثار الكبيرة فى مجرى حياتنا من نواحيها الثقافية والسياسية والاجتماعية .

فقد كانت الخطابة هى السلاح الذى استخدمه الشعب ليدافع به عن حقوقه ، ويهاجم به أعداءه ، ويعبئ مشاعر أبنائه للنضال .

★ ★ ★

علا صوتها باسم الشعب ليضع حداً لاستبداد إسماعيل وليندد بفساد حكمه فى أواخر أيامه ، ووقف من أبناء الشعب من يصرخ فى وجه رئيس الوزراء بأن « المجلس لن ينفض إلا إذا فرغ من بحث ما أراد نواب الشعب أن يبحثوه (١) »

— وعلا صوتها وأدت رسالتها خلال عمليات التعبئة الشعورية التى سبقت الثورة العرابية ومهدت لها ، حتى قام واحد من المضطهدين من أبناء الشعب ليتحدى صاحب العرش ويقول له فى ميدان عابدين : « لسنا عبيداً لأحد ، ولن نورث بعد اليوم » (٢)

— وعلا صوتها وظهرت خطورتها خلال أحداث الثورة العرابية وخلال المعارك الحربية بين المصريين وقوات الاحتلال ، وكان لها أثرها العظيم فى إلهاب الشعور الوطنى ، الذى جمعته الخطابة السياسية ، على الولاء والفداء ، ولم يهزم إلا بالخيانة .

— ثم علا صوتها ، وقامت بأخطر أدوارها فى حركة الإحياء وبعث الوطنية التى نهض بها الوطنيون يتزعمهم « مصطفى كامل » ليستعيدوا الثقة إلى النفوس التى أقفرت

---

(١) جلسة ٢٧ من مارس سنة ١٨٧٩ والنائب هو محمد أفندى راضى — المضبطة .

(٢) أحمد عرابى يوم ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ — الرافعى — الثورة العرابية ص ١٢٨ .

من الثقة ، وليزرعوا الأمل فى القلوب التى كانت قد استسلمت لليأس.

— واستمر صوتها يعلو ، ويعلو كلما كان ضغط الأحداث يتوالى على حياة البلاد ، فإذا الخطابة السياسية هى الوقود الذى يلهب العزائم ويضىء الطريق أمام المناضلين .

وبقيت هكذا ولية دائماً للقضية الوطنية ، متصلة بها ، منافحة عنها ، تناضل ضد متاعب الحاضر ، وتبشر بالآمال على طريق المستقبل ، ولم تخن الشعب ، ولم تقف يوماً فى صف أعدائه .

★ ★ ★

ومع هذا كله لم تلق من عناية الدارسين للأدب ما هى جديرة به ، حتى ليخيل إلى أنهم لا يكادون يعتبرون الخطابة فى هذه المرحلة أدباً ، ولا فناً من فنون الأدب ..

فهم ينقدون ويؤرخون لكل الفنون الأخرى من شعر وقصص ومسرحيات وغيرها ، دون اهتمام بالخطابة فى كثير ، ولا قليل ، مع أن الخطابة أجدر هذه الفنون جميعاً بالاهتمام والعناية .

بل هى أجدر الفنون الأدبية جميعاً بأن تجد من عناية الدولة ذاتها ما يتفق وخطرها فى هذا العصر الذى تناضل فيه الشعوب كلها من أجل السلام والحرية ، ويناضل فيه شعبنا من أجل مجتمع جديد له قيمه ، وله ملامحه التى لا يوجد فن من فنون الأدب الأخرى يفوق الخطابة فى التمهيد لها والدعوة إليها .

★ ★ ★

فإن ما تفرضه طبيعة الشعر من تأنق فى التصوير والتعبير قد ينأى به عن أن يكون وسيلة شعبية ذات سيطرة على الجماهير فى نطاق واسع .

وما تحتاجه القصة أو المسرحية من زمن طويل ، أو قصير لإعدادها ، ثم للاستمتاع بها والإفادة منها ، وما تتطلبه من توفر قدر معين من التعليم لتذوقها والاستجابة لما يكون مبثوثاً فيها من إيحاءات واتجاهات ، كل هذا مما يضيق النطاق الذى تستخدم فيه القصة ، أو المسرحية كوسيلة من وسائل التوجيه ، والبناء ، والتربية ، وتطوير المجتمع من حال إلى آخر .

ومن هنا تبرز الخطابة لتكون هى الوسيلة الأدبية التى يستطاع تذوقها والاستجابة إليها ، والتأثير بها بمجرد السماع دون شىء آخر ، مخترقة حجب التعليم ، والثقافة ،

لتصل إلى كل مكان يستطيع فيه الإنسان أن يسمع ، فتؤتى ثمارها فى التوجيه والبناء ، وخاصة بعد انتشار الإذاعات ويسر الاستماع إليها فى كل مكان .

* * *

وإذا صح ما يذهب إليه بعض النقاد المحدثين من أن الأدب يجب أن يهدف قبل الإمتاع والتسلية إلى التعبير عن مصالح الشعوب كانت الخطابة عامة ، والخطابة السياسية خاصة أقرب فنون الأدب انتساباً إلى الأدب لأنها أكثر اقتراباً من الجماهير وأكثر تعبيراً عن إرادات الشعوب ومصالح الشعوب ، بل إنها لا تظهر إلا حين يكون الأمر تعبيراً عن هذه المصالح ودفاعاً عنها .

* * *

وإذا كانت الشعوب فى عصرنا الحاضر تخطو بسرعة وإصرار على طريق الديمقراطية والسيادة ، فإن من الضرورى أن تتضاعف عناية الأدباء والنقاد بأقرب وسائل التعبير إلى الشعوب وأعظمها نضالاً من أجل الديمقراطية والسيادة ، وأعنى بها الخطابة .

* * *

وإنه لمما يفرض على الأدباء أن يعنوا بها ، ويتتبعوا خطاها أنها أصبحت فى عصرنا الحاضر ، أولى الوسائل التى يستخدمها الزعماء والحكام ، ليحددوا بها سياستهم ، وليعلنوا بها عن موقفهم إزاء قضايا شعوبهم ، وقضايا الإنسانية عامة .

وكم غيرت كلمات الزعماء كثيراً فى صفحات التاريخ .

وكم سيقت الملايين إلى الفناء مأخوذة بالبيان الساحر للقائد أو الزعيم .

بل كم ضاعت الحقائق وضيعت الحقوق فى ضجيج الكلمة !

ولو أن الخطابة ظفرت من عناية الدارسين ، والنقاد بما هى جديرة به ، لأصبح لدينا من الوعى الخطابى ما نتحصن به ضد أولئك الذين يتكلمون فيكون لكلماتهم مثل ما لهم من نفوذ .

بل لو قد ظفرت الخطابة بما هى جديرة به من درس لاستطعنا أن نفرض على الخطباء احترام أمانة الكلمة ، وأن نعلم السامعين لها أن يميزوا من كلماتها بين الزيف والحقيقة ، فلا نسمعها ، ولا نقولها إلا حين تكون المثل العليا وحدها هى التى تهدينا .

* * *

ولكن يبدو أن فى أعماق الكثيرين من أدبائنا ونقادنا المحدثين نزعات استعلاء على الشعب ، وإهمالاً لأقرب الوسائل إليه فى التعبير ، وهى الخطابة ، على الرغم من هذا التشدق العريض بالشعب ومطالب الشعب .

★ ★ ★

على أننا إذا أخذنا بما يراه « أرسطو » من أن صعوبة العمل سبب من أسباب تفضيله والحكم بخيريته ، وإذا نظرنا أيضاً إلى أهمية الأثر الذى يتركه العمل وإلى خطورته فى حياة الأفراد والجماعات ، إذا راعينا مثل هذا رأينا الخطابة عامة والسياسة خاصة تحتل بين فنون الأدب أرفع مكان ، لأنها أصعب فنون الأدب جميعاً ، وأشقها منالاً .

★ ★ ★

كما أن الخطابة السياسية كادت من ناحية ثانية أن تصبح مرادفاً للوطنية فأكثر الذين انتهت إلينا آثارهم من خطباء السياسة كانوا فى نفس الوقت دعاة الوطنية المخلصة ، ودعاة الثورة من أجل تغيير وجه الحياة المصرية من نواحيها المختلفة .

فمواقف الخطابة السياسية فى أعظم أيامها كلها عظيمة مشرقة ، وإذا نحن استثنينا تلك الكلمات الهزيلة المرتعشة التى ألقاها بعض المنافقين ، أمام توفيق يوم عودته فى حراسة الإنجليز بعد فشل الثورة ، واستثنينا خطبة « رياض » أمام الخديو فى حفل افتتاح مدرسة محمد على الصناعية (١) وما كان فيها من الزلل والسقوط ، إذا استثنينا ذلك فستبدو صفحة الخطابة السياسية مشرقة أعظم الإشراق فى كتاب الوطنية .

★ ★ ★

من أجل هذه المعانى كلها آثرت هذا البحث ، بل من أجل هذه المعانى أحببت هذا الفن ، ومارسته ، وظفرت فيه بجائزة (٢) ، بل من أجلها عاهدت نفسى أن أدرسه وأدعو لدراسته .

---

(١) وكذلك خطبته يوم وداع كرومر ، والتى قال فيها شوقى :

خطبت ... فكنت خطباً ... لا خطيباً أضيف إلى مصائبنا الجسام

(٢) كانت الجائزة المالية الأولى مع شهادة تقدير فى الخطابة وفن الإلقاء من المهرجان الأدبى الذى أقامته وزارة « المعارف » سنة ١٩٤٨

ولقد تتبعت — جهد طاقتى — ما ظفر به هذا الفن العظيم من دراسات معاصرة فإذا هو أقل القليل .

ولم أجد — فى مكتبتنا العربية — بحثاً متخصصاً ، يلم بين دفتيه أشتات هذا الفن ويعرف به التعريف الشامل سوى بحث للدكتور أحمد الحوفى تحت عنوان « فن الخطابة » وعلى ما بذل فى هذا الكتاب من جهد مشكور فإنه يعتبر دليلاً ، أو مقدمة تفتح كل كلمة فيها باباً واسعاً للدراسة .

كما لم أجد أبحاثاً متخصصة بالموضوع الذى أعرض له ، وهو الخطابة السياسية ، وكل ماهناك ، نثار من الأحاديث والأخبار فى بطون الكتب الأدبية ، أو فى كتب التاريخ.

★ ★ ★

وقد حاولت أن أعيش فى جو الخطابة السياسية فى أبعد مصادرها فى حياتنا ، فألممت بالكثير من نشاطها فى حياتنا العربية منذ التفاعلات التى غمرتها بعد ظهور الإسلام ، وعند الفتنة الكبرى بين الأمويين والعلويين ، ومن ثاروا بهم من الخوارج .

كما طالعت — ما وصلت إليه يدى — من الخطب السياسية إبان المحنة العربية فى مواجهة الغزو الصليبى ، وإبان محاولات الانتفاض ضد استبداد المماليك .

وخرجت من محاولات التتبع هذه ، وقد ازددت إدراكاً لأصالة هذا اللون من الخطابة فى حياتنا ، وارتباطه الطبيعى ، بتاريخ نضالنا السياسى ، وازددت بعد الإدراك إيماناً بما أنا مقدم عليه من عمل .

★ ★ ★

وكانت مصادرى لهذا البحث ، ما ضمته كتب التاريخ السياسى من خطب الزعماء وقادة الحركات الوطنية من النصف الثانى من عصر إسماعيل حتى إعلان الحماية .

وفى مقدمة هذه المصادر كانت مذكرات « عرابى » و « أحمد شفيق باشا » وتاريخ الأستاذ الإمام ، وحوليات مصر السياسية ، وكل ما كتبه « عبد الرحمن الرافعى » من تاريخ الحركة القومية وتاريخ القادة والزعماء .

ومن المصادر التى طالعتها أهمية ما استطعت مطالعته من محاضر جلسات الهيئات النيابية ، التى كانت لها أدوار انعقاد فى هذه الفترة كمجلس شورى القوانين ، والجمعية العمومية ثم الجمعية التشريعية .

والمصدر الثالث الذى اعتمدت عليه وراجعته غير مرة ما سجلته الصحافة المعاصرة

لتلك الفترة من خطب الخطباء حيناً ، ومن التعقيب عليها حيناً آخر ، أو ما كان يكتب فيها من أبحاث ومقالات تنعكس عليها أصداء الخطب السياسية ، أو تكون الخطب السياسية أحياناً من أصدائها .

والمصدر الرابع ما نشر من دواوين الشعراء الوطنيين ، وما أمكن الوصول إليه مما لم ينشر منها ، واستطلاع ما كان بينها وبين الخطب السياسية من توافق أو شقاق .

★ ★ ★

ولا يفوتني أن أسجل أني عانيت الكثير من المشقة ، وصرفت غير قليل من الزمن ومن الجهد في جمع المادة الأولى لهذا البحث من مصادرها المختلفة .

ومع هذا لا أستطيع الجزم بأني طالعت كل ما قيل من خطب فما أكثر ما قيل لي عن مواقف وشخصيات كانت لها شهرتها في هذا المجال وكان لها نشاط في كثير من الأحداث ، ومع هذا ، لم يقف عندها التاريخ .

★ ★ ★

أما ما رجعت إليه من المصادر المعاصرة فهو أكثر من أن تتسع له هذه المقدمة ، وسوف أفرد له في نهاية الكتاب ثبتاً خاصاً به .

وكله كان جليل النفع ، واضح الأثر في هذا البحث من قريب أو من بعيد .

★ ★ ★

وفيما وراء المصاعب المادية كانت ثمة صعوبة كبرى تتصل بعملية التقدير الكامل لما توفرت على دراسته من نصوص ، من حيث التذوق ، والتأثر المباشر .

ومبعث الصعوبة ، أن مجرد قراءة النص في أي من فروع الأدب الأخرى كالمقال أو القصة مثلاً يكون كافياً في تذوقه ، وسبر أغواره الفنية ، ومن ثم يكون كافياً لإبداء الرأي الفني فيه .

أما بالنسبة للخطابة ، فالقراءة وحدها لا تكفي ، لأن وسائل التأثير الخطابي ، لا تقف عند البناء الفني للأسلوب وحده ، وإنما تشارك فيها عوامل أخرى منها شخصية الخطيب ونبرات صوته ، وطريقة إلقائه وغيرها ، وهذه كلها أمور لا تكفي قراءة النص وحدها في الكشف عنها .

★ ★ ★

ولم أدع هذه الصعوبة تحول دون تقديرى لمنزلة الخطابة والخطباء من الناحية الفنية .

وكانت وسيلتى فى التعرف على شخصية الخطيب هى بالطبع ما كتب عنه فى ذلك ، ومحاولة تحديد مكانته ، من مدى الاستجابة التى كان يتلقاها فى خطبه المتكررة ، وتحديد مقدار نفوذه الخطابى فى ضوء الانتصارات التى يحرزها فى مواقفه الخطابية .

★ ★ ★

وأما منهج هذا البحث فأساسه دراسة هذه الخطابة السياسية فى مصر فى فترة زمنية معينة تبدأ بالاحتلال ، وتنتهى بإعلان الحماية .

ولما كان الاحتلال هو النتيجة الطبيعية لهزيمة الثوار العرابيين ، فقد اقتضى البحث الإلمام التام بظروف الثورة العرابية ونشاط الخطابة فيها ، وهى فترة حافلة بالأحداث السياسية والنشاط الخطابى العظيم .

★ ★ ★

ولما كانت طبيعة الموضوع دراسة الخطابة السياسية ، فقد كان من الضرورى ، أن نقف بالقارئ على الحالة السياسية للبلاد فى هذه الفترة ، وما كانت عليه العلاقة بين الحكام والمحكومين فيها ، وخاصة بعد ما ابتليت البلاد بالاحتلال ، كما كان من الضرورى أن نكشف عن حركة الرأى العام وتطوره تبعاً لسير الأحداث ، هذا التطور الذى كانت له آثاره فى نشاط الخطابة .

★ ★ ★

ولم تكن الحالة السياسية فى مصر شيئاً معلقاً فى الفضاء ، وإنما كانت مرتبطة تماماً بالحالتين الاقتصادية والاجتماعية للبلاد الأمر الذى اقتضى عرضاً خاصاً بكل منهما . ثم بالحالة الثقافية .

★ ★ ★

وبعد هذا كان موضوع البحث الأساسى للخطابة السياسية . فإن كنت قد وفقت فهذا ما رجوت .

وإن كانت الأخرى .... فحسبى أنى أسهمت فى إنصاف فن من أرفع فنون الأدب يشكو قلة المنصفين .

القاهرة ديسمبر سنة ١٩٦٤ — عبد الصبور مرزوق

الباب الأول

الحياة المصرية قبيل الاحتلال

- الحالة السياسية
- الحالة الاجتماعية والاقتصادية
- الحالة الثقافية

الحـــالة الســـياسية

كيف بدأ الاحتلال ؟

بدأت أطماع إنجلترا تستقيظ نحو مصر منذ اليوم (١) الذى خرجت فيه الحملة الفرنسية من ميناء « طولون » قاصدة شواطئنا .

فحتى ذلك التاريخ كانت دول أوربا تنظر إلى مصر على أنها دولة شرقية يرتبط مصيرها بدولة بنى عثمان . فلما قدر للفرنسيين أن يستولوا عليها انتبهت أوربا كلها تبغى مشاركة فرنسا فى الغنيمة ، وظهرت « المسألة المصرية » على مسرح السياسة الدولية .

وبالنسبة لإنجلترا كان الاستيلاء على مصر شيئاً أكثر من الغنيمة ، بل كان فى بعض نواحيه أمر حياة أو موت فقد تأكد لإنجلترا أنه « إذا فاقها فى مصر أى عدو لها أمكنه أن يكيد لها كيداً عظيماً ، ولذا لم تأل جهداً فى انتهاز كل فرصة لدخول مصر ، ومحاربة كل من يتصدى لتقوية مركزه فيها (٢) » .

★ ★ ★

وبدأت محاولة إخراج الفرنسيين من مصر بمطاردة الأسطول الفرنسى وتحطيمه فى معركة « أبى قير » المشهورة . وبعدها نزلت أول حملة إنجليزية أرض مصر فى مارس سنة ١٨٠١ م ، والتى كان من نتائجها . خروج الفرنسيين فى يونيو من نفس العام .

وبعد ست سنوات قدمت الحملة الإنجليزية المعروفة باسم حملة « فريزر » (٣)

---

(١) ١٩ من مايو سنة ١٧٩٨م

(٢) تاريخ مصر السياسى – رفعت ص ٤٣ .

(٣) ١٧ من مارس ١٨٠٧م .

للحيلولة دون تأسيس دولة قوية فى المنطقة يمكن أن تكون يوماً مصدر تهديد للمصالح البريطانية ، وقد لقيت خاتمتها القاسية على يد المصريين فى « رشيد » (١)

ولكن هزيمة « رشيد » لم تصرف إنجلترا عن أطماعها فى مصر بل لعلها تكون قد زادتها حدة فظلت تعمل على كسب النفوذ السياسى والاقتصادى لدى حكامها من خلفاء محمد على .

حتى إذا كان عصر إسماعيل وتم فى يوم ٢٥ من نوفمبر سنة ١٨٧٥ م بيع حصة مصر فى أسهم قناة السويس للحكومة الإنجليزية . كان ذلك فيما أعتقد البداية الحقيقية للاحتلال البريطانى لمصر .

وقد صرحت جريدة « التايمس » البريطانية بهذا فى عددها الصادر غداة توقيع البيع فقالت :

« سوف ينظر الجمهور فى هذا البلد وفى سواه إلى العمل الخطير الذى قامت به الحكومة البريطانية من نواحيه السياسية لا التجارية ، ويعده مظاهرة ، بل أكثر من مظاهرة سعيدة إعلاناً لنياتنا وشروعاً فى العمل لتحقيقها . »

« إنه من المستحيل أن نفكر فى شراء أسهم القناة تفكيراً منفصلاً عن علاقة إنجلترا المستقبلة بمصر ، أو نفكر فى مصر تفكيراً منفصلاً عما يحوم حول الدولة العثمانية من المخاوف . فلو أدت القلاقل أو الاعتداء الخارجى ، أو فساد الإدارة الداخلى إلى انهيار الدولة العثمانية مالياً أو سياسياً ، فقد نضطر إلى الاحتياط للمحافظة على سلامة هذا الجزء من أملاك السلطان الذى تربطنا به علاقة قوية (٢) » .

★ ★ ★

وقد استغلت إنجلترا فرصة اضطراب الحالة المالية فى عهد إسماعيل للتدخل المباشر فى شئون مصر وتم على هذا تعيين أول وزير إنجليزى للمالية . كما شجعت هجرة الأوربيين إلى مصر وتعيينهم (٣) فى المراكز الحكومية الهامة ليكونوا الطليعة المدنية للغزو العسكرى متى احتاج الأمر .

---

(١) تاريخ مصر السياسى – رفعت ص ٥٨ .

(٢) التايمس–عدد ٢٦ من نوفمبر سنة ١٨٧٥م نقلاً عن تاريخ المسألة المصرية ثيودور روثتين ترجمة العبادى وبدران طبعة سنة ١٩٢٣ ص ٨ .

(٣) كان عدد من شغلوا وظائف عامة ١٣٢٥ حسب إحصاء ١٨٨٢ وهو عدد ضخم إذا قيس بحجم الجهاز الحكومى إذ ذاك .

ومهدت إنجلترا للغزو العسكرى باصطناع أزمة مذكرة ٧ يناير المشهورة التى تقدمت بها الدولتان إنجلترا وفرنسا لإبلاغ الخديو وحكومته « أن حكومتى فرنسا وإنجلترا تريان فى بقائه على أريكة الملك ... خير ضمان فى الحاضر والمستقبل لحسن النظام واطراد التقدم والسعادة فى البلاد ؛ وإن الحكومتين متفقتان على ضرورة منع أسباب الارتباك سواء كانت هذه الأسباب داخلية أم خارجية ولا يخالجهما شك فى أن هذا التصريح سيمنع حدوث ما عساه يطرأ من الأخطار التى قد تتعرض لها حكومته » . (١)

ومن عجب أن تتقدم الحكومتان بهذه المذكرة احتجاجاً على أن نواب الشعب طالبوا بالنظر فى ميزانية بلدهم . ولذا كان وقعها سيئاً على المواطنين .

وبعدها كانت « المؤامرة الجركسية » التى دبرت للنيل من العرابيين وإحكام القطيعة بينهم وبين الخديو ثم كانت مذبحة الإسكندرية ... وإطلاق مدافع الإسطول .

وانتهت الثورة العرابية وكان الاحتلال .

فى ظلال المأساة :

كان دخول الإنجليز عاصمة البلاد صدمة مذهلة للشعب زلزلت إيمانه بنفسه وحطمت روعة القيم الكريمة التى كانت قد أيقظتها فى النفوس أحداث الثورة العرابية .

وفى الوقت الذى كان فيه فى قلب كل وطنى مأتم كان « الخديو توفيق » يتأهب للعودة إلى القاهرة فى حماية المحتلين وفى ظل رماحهم .

وحين وصل العاصمة كان فى استقباله قائد جيش الاحتلال ونجل الملكة فيكتوريا ، والمعتمد البريطانى فى مصر الذين ركبوا معه دون غيرهم عربة مكشوفة إلى سراى الإسماعيلية آخذين طريقهم بين صفين من جنود الاحتلال .

وبعد وصوله إلى القاهرة بخمسة أيام وقف تحت العلم البريطانى فى ميدان عابدين يستعرض جيش الاحتلال فى مثل نفس الزمن وفى نفس المكان الذى كان فيه جيش الشعب بقيادة عرابى يصرخ فى وجهه مطالباً بحقوقه . ولم يكفه هذا بل أقام مأدبة كبرى وحفلة ساهرة تكريماً لقواد الاحتلال ، وأنعم على ستين منهم بنياشين مختلفة (٢) » .

وسارع ركب الخونة فى السير على درب سيدهم فرأينا محمد باشا سلطان الذى كان مع الأسف رئيس مجلس النواب أيام العرابيين ، يتقدم وفداً من الأعيان والعمد فى

---

(١) تاريخ مصر السياسى : محمد رفعت ص ٢٢٢ .

(٢) انظر الرافعى – الثورة العرابية ص ٤٧٥ .

مقابلة لوزير الداخلية رياض يبغونه فيها اعتزامهم تقديم هدية فاخرة من السلاح لقائد الأسطول البريطانى الذى دك قلاع الإسكندرية ، ثم للقائد العام لجيوش الاحتلال .

وكان الدافع للإهداء هو الشكر (على إنقاذ البلاد من غوائل الفئة العاصية) .

ودعماً لمراكز الخيانة أنعم « توفيق » على سلطان باشا بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى ثم منحه عشرة آلاف جنيه لما أظهره من الصداقة لحكومتنا الخديوية ، ولمعارضته العصاة فى جميع أمورهم ، واعتزامهم بالمخاطرة على حياته ، وما حصل له بسبب ذلك من الضرر بالتعدى منهم على شخصه ، وأقاربه . » (١) .

كما أنعمت عليه ملكة إنجلترا بوسام « سان ميشيل » و « سان جورج » . (٢) هكذا كانت الصورة فى ظلال المأساة .

شعب أذهلته الكارثة فمضى فى صمته يمضغ يأسه وأحزانه تاركاً للأقوياء أن يصنعوا مايريدون .

ومواكب ذليلة منافقة تقف بباب الغاصب بحثاً عن المنفعة ..

وحكومة منهارة يقف رئيسها الأكبر تحت العلم البريطانى ليحيي القوات التى داست عرشه وكرامة بلده .

فهل بعد هذا كان أمام الإنجليز فى مصر من يخشون بأسه أو يحسبون حسابه ؟

فلتمض إنجلترا فى وضع مخططاتها فى موضع التنفيذ .. وهذا ما حدث ..



فى قبضة المحتل :

وقبل أن يمضى على الاحتلال نيف وأربعون يوماً أوفدت إنجلترا إلى مصر سفيرها بالآستانة « لورد دوفرين » ليقوم – كما قالوا – بإعادة تنظيم البلاد بعدما قضى على الثورة . وكتب « دوفرين » تقريره ودفع به إلى السلطات الحاكمة تتعهد بتنفيذه وكأنه الإنجيل . وكانت الضربة الأولى « قرار إلغاء الجيش المصرى وصرف الجنود إلى بلادهم ، واستبقاء كبار الضباط ، لمحاكمتهم » (٣) .

---

(١) الوقائع المصرية عدد ٥ من أكتوبر سنة ١٨٨٢ .

(٢) المونيتور اجيبشيان عدد ٢٩ من أكتوبر سنة ١٨٨٢ نقلاً عن الرافعى الثورة العرابية ص ٤٥٩

(٣) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى ص ٢١ .

وقرار آخر بتنظيم جيش جديد تسند قيادته إلى ضباط الاحتلال . وسرعان ما أصدرت هذه القيادة أمراً بإلغاء البحرية وبيع جميع منشآتها لعدم الحاجة إليها ! كما ألغيت جميع « الترسانات الخاصة بصب المدافع وصنع البنادق والذخائر وبيعت آلاتها وأجهزتها على أنها « خردة » .

وكان القرار المهين الثالث هو تقرير مبدأ « البدل النقدى » للإعفاء من الخدمة العسكرية بغية تحطيم روح الجندية فى النفوس وامتهان شرف الجندية واعتبارها من قبل التكليف الذى لا يليق إلا بالفقراء(١) .

وكان أخطر تغيير قامت به إنجلترا بعد إلغاء الجيش هو إلغاء مجلس النواب الذى قال عنه « دفرين » فى تقريره « إن مصر ليست كفئاً لأن يكون لها مجلس نيابى ولاحكومة ديمقراطية » وفى مكانه أقيمت تنظيمات شكلية صدر بها مرسوم أول مايو سنة ١٨٨٣ . وبلغ من استهانة المحتل بهذه المظاهر أن كانت تعرض أمامها بعض الأمور بعد أن تكون السلطة التنفيذية قد اتخذت بشأنها ما تراه ، والعرض فقط « لمجرد الإحاطة » (٢)

★ ★ ★

مصر تحكم بالبرقيات :

وقد شهد الحكم فى بلدنا تحت وطأة الاحتلال فترة من الفترات المهينة التى أهملت فيها الإرادة الشعبية وكرامة المسئولين « الشرعيين » إهمالاً لا نكاد نرى نظيره . وكانت « البرقيات » الطائرة بين « لندن » و« القاهرة » هى التى تقرر مصائر الأمور فى مصر كما يراها وزير خارجية بريطانيا .

فحين وقف شريف باشا موقفه المشهور من إخلاء السودان ، لم تجد إنجلترا بداً من إعلان حقيقة نياتها تجاه مصر فى برقية بعث بها « جرانفيل » فى ٤ من يناير ١٨٨٤ وفيها يقول :

« .. لا أرى حاجة إلى أن أوضح لكم أنه من الواجب ما دام الاحتلال المؤقت قائماً فى مصر أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى إسداءها للخديو فى المسائل الهامة التى تستهدف فيها إدارة مصر وسلامتها للخطر . »

---

(١) الرافعى مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال طبعة ١٩٤٢ ص ١٣ .

(٢) مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى — الرافعى ص ٥١

« ويجب على الوزراء المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها إلى أن تصر على اتباع السياسة التى تراها .

« ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وتقاليد هذه السياسة .

وإن حكومة جلالة الملكة لواثقة أنه إذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء فهناك من المصريين سواء من شغلوا منصب الوزارة أو شغلوا مناصب أقل درجة ، من هم على استعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها إليهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة . » (١)

★ ★ ★

واستقال شريف وجاء « نوبار » الذى بلغ النفوذ الإنجليزى فى عهده غايته بحيث كانت سلطات الوزراء تتلاشى أمام أصغر موظف إنجليزى : وأوضح الأمثلة لذلك ما كان يفعله المدعو « كليفوردلويد » فى وزارة الداخلية ، والذى لم يكن يقيم وزناً لأى شخص ولا لأى قانون (٢) .

وذهب نوبار ، ورياض ، وجاء مصطفى فهمى الذى كان « أشأم الوزراء الذين عرفتهم مصر (٣) » وأسوأ نموذج للحاكم يستمد وجوده من العابثين بكرامة بلاده .

وبلغ من اعتزاز الإنجليز به أنه لما حاول الخديو عباس تنحيته وبعث إليه من ينصحه بالاستقالة فإذا مصطفى فهمى يقول : « إن الأوفق لسموه أن يستشير اللورد كرومر قبل أن يصل فى هذا الأمر إلى قرار نهائى (٤) » .

ولم يخيب المحتلون أمل صنيعتهم فأقاموا الدنيا وأقعدوها وكانت « أزمة النظارة الفهمية » التى جعلت « كرومر » يذهب إلى الخديو وبيده برقية تقول :

« إن الحكومة الإنجليزية تنتظر أن يؤخذ رأيها فى المسائل الخطيرة مثل تغيير النظار ،

---

(١) إنجلترا فى مصر — ملنر ص ٦٨ ، الرافعى — مصر والسودان ص ١١٣ .
(٢) الرافعى مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١٧٨ — ١٨٠ .
(٣) المسيو جون كوشرى فى كتابه (المركز الدولى لمصر والسودان ص ٢٤٣ عن الرافعى . مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى ص ١٩٤ —
(٤) مذكراتى فى نصف قرن شفيق باشا ج ٢ ص ٥٨ .

وأنه فى الوقت الحاضر لا تبدو أية ضرورة للتغيير ، لذلك لا توافق الحكومة الإنجليزية على تعيين حسين فخرى باشا . »

وأضافت البرقية « إنه يجب على اللورد أن يعرف الخديو بأنه إذا كان يرفض الأخذ برأيه فإن العاقبة ستكون وخيمة عليه ، ويجب على اللورد حينئذ أن يراجع حكومة جلالة الملكة لتلقى التعليمات (١) » .

★ ★ ★

انتفاضة اليقظة وبداية عهد عباس :

لما مات توفيق وخلفه عباس بدأت ملامح الصورة تتغير وانتفض الموكب الحزين الصامت يبحث عن حريته ويعمل لأمله فاستقبله جبار الاحتلال بالنار والحديد وقانون المطبوعات ووقف الخديو الشاب إلى جانب الشعب فى مطلع عهده ثم نكص على عقبيه يؤثر العافية فما أغنى عنه النكوص شيئاً .

فقد اتجه عباس فى أول عهده إلى الشعب محاولا أن يستقل بالأمور بعيداً عن المحتلين للدرجة التى جعلت « كرومر » يصفه فى تقريره بقوله : إنى أرى أن الخديو الشاب سيكون مصرياً أكثر من المصريين (٢) »

ولمس الشعب عند عباس هذا الاتجاه فالتف من حوله يتحدى به الاحتلال ، وكانت « أزمة النظارة الفهمية » التى أشرنا إليها فرصة سانحة لإبداء هذه المشاعر .

وتقرب عباس إلى الشعب بأكثر من سبيل فتعددت رحلاته إلى مختلف جهات القطر ، وكان يستقبل طوائف الشعب مرتين كل شهر ، وأصدر عفوه عن عدد كبير ممن اشتركوا فى الأحداث العرابية ومنهم السيدان عبد الله النديم وحسن موسى العقاد ، وأعيدت إلى الموظفين من هؤلاء رواتبهم ووظائفهم . وكثير من أمثال هذه التصرفات .

وكانت استجابة الرأى العام المتهيئ واضحة ، وظهر صداها لدى الوطنيين عامة والمتصلين بالخديو خاصة فرأينا الوزراء يقفون من الرغبات والنصائح الإنجليزية موقف النقد والمعارضة ، بل الرفض فى حالات كثيرة .

فقد وقف أحد كبار الموظفين المصريين فى وزارة الحربية موقفاً عنيفاً معروفاً من سردار الجيش « لورد كتشنر » وأصر فيه على مباشرة جميع السلطات التى تخولها

(١) مذكراتى فى نصف قرن : شفيق باشا ج ٢ ا ص ٥٩ .
(٢) عباس الثانى – كرومر ص ٧ .

له وظيفته متحدياً جبروت الرجل الذى أعتاد منذ أبتدع الأحتلال وظيفة « سردار » ألا يكون لحكمه معقب (١) ، كما أخذت تقارير الموظفين المصريين تمارس النقد الموضوعى القوى لسياسة الاحتلال (٢) .

وعلى نفس الطريق انطلقت الصحافة المصرية تؤدى دورها فى مهاجمة الاحتلال ، وتفنيد ما يزعمه المحتلون من ترقية البلاد وإصلاح أحوالها ، وتشرح آثار الاحتلال الخطيرة على الاقتصاد والثقافة والدين والأخلاق .

وإلى جوار هذا لم تدع أعوان المستعمر وصنائعه حتى وخزتهم أقلامها وخزاً آذاهم وآذى معهم أولئك السلبيين الذين كانوا يؤثرون العافية .

وإذا كانت جريدة « المؤيد » أول صوت أعلن فى هذا الميدان فإن صوت النديم فى « الآستانة » و« الأستاذ » كان أقذع فى النقد وأصرح فى تعرية الحقائق . ومن بعدها تلقف الراية صاحب « اللواء » فأبلى وأحسن ونهضت « الجريدة » كذلك بدور لا بأس به فى هذا المجال .

★ ★ ★

وقد سجل الشعر مظاهر هذه الانتفاضة الوطنية وحيّا الخديو عباس فى موقفه الأول .

وهذا حافظ يشيد بولاء عباس للحركة الوطنية فيقول :

رددت ما سلبت أيدى الزمـــان لنـــا ... وما تقلص من ظل وسلطـــــــان
فكن بملكـــك بنـــاء الرجـــــال ولا ... تجعـــل بناءك إلا كل معـــــوان
وانظـــر إلى أمـــة لولاك ما طلبـــت ... حقاً ولا استشعرت حبـــاً لأوطان

وهذا « محرم » يقول :

مـــولاى أحييت الرجـــــاء لأمـــة ... شهدت بطلعتك الرجـــاء الأكبرا
صـــدق الـــولاء أمانـــة لك فى دمى ... يأبى لها الإيمـــــان أن تتغـــيرا



ولم يكن « جبار الاحتلال — كرومر — » بغافل عما يجرى فقد كتب يقول :

---

(١) مذكرات شفيق باشا ص ٦٥ والرجل هو محمد باشا ماهر وكيل وزارة الحربية .

(٢) كتقرير أحمد شفيق عن التعليم سنة ١٨٩٣ م وتقرير اسماعيل سرهنك ناظر المدرسة الحربية — مذكرات شفيق باشا ج ٢ ص ٩٠-٩١ .

« إن المبادئ العرابية قد بدأت فى الظهور تحت اسم جديد هو لقب (خديوية) وإن الحالة أصبحت كثيرة الشبه بالتى كانت عليه عند بدء الثورة العرابية غير أن الفرق الوحيد هذه المرة هو أن الخديو نفسه هو قائد الحركة (١) » .

ولم يكن بد من الاصطدام . واصطنع « كرومر » المناسبة فى «حادثة الحدود » عندما أبدى الخديو بعض ملاحظاته على نظام إحدى « أورط الجيش » الذى كان يقوده « كتشنر » وإذا « كرومر » لا ينتظر عودة الخديو إلى العاصمة لمحاسبته بل يبعث رئيس الوزراء (رياض) ليقابله فى الطريق وليؤكد له أنه إذا لم يسحب انتقاداته فسينتجه التفكير إلى خلعه . (٢)

وسحب الخديو ملاحظاته ، وأصر كرومر على نشر ذلك فى الجريدة العربية والفرنسية. وكانت صفعة قاسية جعلت « عباس » يبحث عن ركن يأوى إليه فى مواجهة الاحتلال فولى وجهه شطر الآستانه . ولكن محاولاته وأسفاره لم تثمر غير الفشل . وكتب كرومر يقول :

« إن السلطان قد نصح للخديو بطريقة أبوية أن يفوض أمره إلى الله ، وأن يرضى بماقسم له ، ويثق بفعل الزمن ، ويحافظ دائماً على العلاقات الحسنة بينه وبين إنجلترا (٣) ».

★ ★ ★

تحول عباس وعداؤه للحركة الوطنية :

وكان يأس عباس من تركيا نقطة تحول هامة فى موقفه الوطنى وسياسته تجاه الاحتلال. فأخذ تحمسه للقضايا الوطنية يخبو ويتلاشى ، وتركز اهتمامه على مصالحه الخاصة . وأصبح الاضطراب والتخبط طابع سياسته فى هذه الفترة ، فنى الوقت الذى كان يلتقى فيه سراً بزعماء الشعب . كان فى العلن يتنكر لهم ، ويزج بأحرارهم فى السجون متى اطمأن إلى حسن علاقته بالإنجليز .. بل لقد شهده الشعب يرتكب نفس الجرم الذى ارتكبه أب له من قبل فيقف وبجواره « كرومر » تحت العلم البريطانى سنة ١٩٠٢ مرتدياً ملابس التشريفة الكبرى وحوله الوزراء يستعرضون جيش الاحتلال .

---

(١) عباس الثانى – كرومر ص ٢٥٧ .

(٢) مذكرات شفيق ج ٢ ص ١٢٥ .

(٣) عباس الثانى – كرومر ص ٥٥–٩٦ .

ومن يومها بدأ الشعب يسلكه فى صف أعدائه ، وبلغ من احتقاره له أنه مر يوماً بموكبه الرسمى على نفر من الشباب جالسين على (قهوة الشيشة) فظلوا جميعاً جلوساً وقد وضع كل منهم ساقاً على ساق (١) .

وفى هذا المعنى يقول الكاشف ، وقد عز عليه أن تحكم الحراسة حول الخديو لحمايته من الشعب وهو الذى كان بالأمس يتزعم الحركة الوطنية :

أرأيتم الحراس دون ركابه   سداً فما يرنو إليه مسلم
قد يصبح الإنسان شيطاناً ولا   يقع الذى ظنوا بكم وتوهموا
هل نحن أمة قيصر أو جاره   كسرى فيخشى أن يحيط به الدم
أم بعد ما أمن الأعادى ليلة   يأبى على الخلصاء أن يتكلموا ؟ (٢)

★ ★ ★

وظل التيار المعادى لعباس ينمو بين الطبقات يوماً بعد آخر كلما ازداد هو وفاقاً مع ساسة الاحتلال .

وظهرت المنشورات السرية تدعو إلى تأليف « الجمعيات الوطنية » للقتل والاغتيال ، وجهر المعارضون بمعاداتهم للخديو ، وتجرأوا على مكانه بصورة لم تكن تحدث من قبل ، لدرجة أن « محمد فريد » زعيم الحزب الوطنى قد رفض الوقوف عند عزف السلام الخديو فى حفل رسمى بدار الأوبرا كان يشهده مندوب الخديو .

★ ★ ★

وكان الحصاد الطبيعى لهذا الوضع أن ضلت الحركة الوطنية أهدافها ، وتحولت إلى نزاع داخلى مرير كان أسعد الناس به هم الذين صنعوه من ساسة الاحتلال .

وتحققت النبوءة التى أشار إليها « دوفرين » فى تقريره والتى دعا فيها الإنجليز إلى حكم مصر من خلال المصريين ، حتى إذا كانت هناك أخطاء اتجه سخط الشعب إلى حكامه المصريين ، وبقى بأس القوم بينهم (٣) .

---

(١) مذكرات شفيق باشا ج٢ ب ص١٧٨ ومكان القهوة الآن بميدان العتبة أمام الأزبكية .
(٢) ديوان الكاشف – قصيدة الطلبة والسياسة ص ٩٥ .
(٣) الرافعى مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢ ص ٢٣–٢٤

الحالة الاجتماعية والاقتصادية

الإسراف الشديد تمارسه أسرة محمد على على حساب الشعب — السخرة والاستبداد فى بداية عهد الاحتلال — تصفية النشاط المهنى المحلى وطغيان المنافسة الأجنبية — التأثر بالمدنية الغربية — الدعوة إلى سفور المرأة وتحريرها .

دولة الإسراف :

تعرضت حالة البلاد المالية والاقتصادية لأشد الاضطراب على أيام إسماعيل الذى أطلق لنفسه العنان فى عقد مزيد من القروض ينفق الجزء الأكبر منها فى شراء الأطيان وإنشاء القصور وتقديم الهدايا للسلطان ، أو لإغراء الجميلات فى بعض النزوات المحمومة

يقول رئيس الديوان الإفرنجى فى عهد إسماعيل « إن الخديو سمع أثناء زيارته لباريس عن جمال قصر يملكه أحد أغنيائها فأبدى رغبته فى مشاهدته هياماً بالفن الجميل . فبادر صاحب القصر إلى دعوة الخديو إلى مأدبة أقامها له ، وكانت للرجل فتاة أعجب بها سموه ، وبعد الطعام سأل صاحب القصر عن الثمن الذى يريده ، إن كان يبيع القصر ؟ ولما كان الرجل لا يريد بيعه فقد اقترح ثمناً باهظاً مبالغاً فيه فأسرع الخديو وقبل على الفور ، وحضر كاتب العقود وسجل اسم البائع ، ثم سأل عن اسم المشترى وعندئذ أشار إسماعيل بأصبعه إلى ابنة رب الدار قائلاً : مدموازيل .. وعاد القصر إلى صاحبه ودفعت خزانة الدولة المدينة الثمن الفادح لإحدى الحماقات (١) »

ولعل أكبر نماذج الإسراف الإسماعيلى ما حدث عند احتفالات افتتاح قناة السويس التى استهلكت مليوناً وأربعمائة ألف جنيه سنة ١٨٦٩ مما جعل الإمبراطورة « أوجينى » تبرق إلى زوجها إمبراطور فرنسا قائلة « وصلت بور سعيد بصحة جيدة — الاستقبال فخم — لم أر فى حياتى ما يماثل ذلك » (٢) .

---

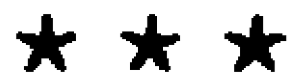
(١) مذكراتى فى نصف قرن أحمد شفيق باشا ج ١ ص ١٠ ، ٢٥ .

(٢) مذكراتى فى نصف قرن ج ١ ص ١٠ — ٢٥

فلما ولى توفيق كان على بينة تامة من أن مطالب الدائنين الأجانب هى التى أودت بأبيه وخلعته من عرشه فأعاد العمل بنظام « المراقبة الثنائية » بسلطات تجعل نفوذ المراقبين فوق كل نفوذ وتجعل الموظفين جميعاً والوزراء مسئولين عن تنفيذ أية إشارة لهما .

ويهدينا النظر فى أول ميزانية وضعت فى عهد توفيق سنة ١٨٨٠ إلى مبلغ اضطراب الحالة المالية وبشاعة الاستغلال الأجنبى لمصر فى تلك الفترة .

فقد كان إجمالى الميزانية هو : ٩,٨٨٤,٦٥٢ من الجنيهات خصصت منها ٤,٢٣٨,٥٩٢ ملايين وهو حوالى نصفها للدين العام(١) ، ولم يحدث ذلك إلا بتأثير النفوذ الأجنبى الذى كان يرعى صالح الأوربيين ويمكن لهم فى الاستغلال على حين كان يهمل ما للمصريين من حقوق . وإذا كانت الديون قد استهلكت أكثر من نصف الميزانية فماذا بقى لخدمة المواطنين (٢) ؟ .



وبتأثير النفوذ الأجنبى باعت الحكومة حصة مصر فى أرباح قناةالسويس ، وهى البقية التى كانت لها بعد أن باع إسماعيل أسهمها سنة ١٨٧٥ ، وقال وزير الأشغال على باشا مبارك فى هذه المناسبة « إننا مضطرون إلى بيع هذه الحصة مع شديد الأسف ، فإن الجميع يسعون للحصول على جزء من رأس المال الخاص بالقناة ولو سهماً واحداً ، ونحن نتجرد من كل حق فيها (٣) » .

ومع إحساس الوزراء بفداحة الخسارة لم يستطيعوا الوقوف أمام النفوذ الأجنبى الزاحف .

كل هذا الإسراف والاستغلال مضافاً إلى فداحة الضرائب واقتضائها بالإكراه والضغط واحتكار مصادر الاستثمار فى الأيدى الأجنبية دون حماية لرأس المال الوطنى ،

---

(١) الوقائع المصرية عدد ٢٢ من يناير سنة ١٨٨٠ .

(٢) تراجع أعمال لجنة التصفية التى لم تعترف بديون الأهالى على الحكومة وألغت العمل بقانون « المقابلة » والذى يعفى الفلاحين من نصف الضرائب إذا دفعوها مقدماً لسنتين أو ثلاثة .. (الوقائع ١٩ من يوليو سنة ١٨٨٠ ، الثورة العرابية للرافعى ص ٤٣ عن محضر مجلس الوزراء فى ١٤ يناير سنة ١٨٨٠ .

(٣) المصدر السابق .

قد أدى إلى إفلاس الكثير من التجار والصناع ، وعجز الفلاح عن دفع الضرائب ؛ وعجزت الحكومة نفسها غير مرة عن دفع رواتب الموظفين والجنود واضطرارها إلى إنقاص عدد الجيش تخلصاً من التزاماته ، مما كان من أسباب شبوب الثورة العرابية .

★ ★ ★

هكذا كانت ظروف الثورة بما صاحبها من عمليات حربية وإحراق الإسكندرية ونهب مواردها ، ثم التعويضات الفادحة التي فرضتها سلطات الاحتلال وبلغت أربعة ملايين وربع مليون جنيه ، وكذلك التعويضات التي فرضتها الحكومة على نفسها للخونة ، وظهور وباء الكوليرا الذى وفد مع جيوش الاحتلال وراح ضحيته ستون ألف مصرى ، هذا إلى استفحال الثورة المهدية فى السودان وما استتبعته من التزامات وأخيراً وربما أولاً .. نفقات جيش الاحتلال التى قدرت سنة ١٨٩٣ م بمبلغ ٤٢٥ ألفاً من الجنيهات .

فاذا أضفنا هذه الأعباء الجديدة الضخمة إلى ما كانت تنوء به الميزانية من ديون سابقة استطعنا أن نتصور مقدار الخراب الذى كانت تعيش فيه البلاد فى بداية عهدها بالاحتلال .

وقد استغل المستعمرون سوء الحالة الاقتصادية فربطوا خروجهم من مصر بإصلاحها وقال « دوفرين » فى تقريره المشار إليه سالفاً « .. وإنه لا يجوز أن يتم الجلاء عن مصر قبل إتمام إصلاح شئونها ، والتغلب على المصاعب التى تحيط بها » .

★ ★ ★

فإذا تركنا الجانب الرسمى إلى الجانب الحر ألفينا كل نواحى النشاط مركزة فى رأس المال الأجنبي وليس فى يد المصريين شيء وبلغ عدد الشركات المساهمة التى أسست برأس مال أجنبي بين سنتى ١٨٨٣ م ، ١٩٠٤ ستين شركة مساهمة رأس مالها أربعون مليوناً من الجنيهات عدا الشركات الأجنبية غير المساهمة والبيوت المالية والتجارية المملوكة للأجانب والتى كان يزداد نشاطها كلما ظهر فى السياسة أن عمر الاحتلال طويل ، حتى بلغ مجموع رأس مال الشركات المساهمة الأجنبية فى مصر عام ١٩١٣ — ١١١,٢٣٢,٢٥٧ مائة وأحد عشر وربع مليون تقريباً . (١)

(١) عن بيان مصلحة الاحصاء المنشور سنة ١٩١٣ .

فإذا أضفنا لهذا الرقم الضخم رءوس الأموال للشركات غير المساهمة وللأفراد ، ثم أضفنا ما على الحكومة من ديون فسنصل إلى نتيجة مفزعة وهى أن ما يوازى ثمن نصف ثروة مصر العقارية كلها مملوكٌ للأجانب .

وأشد من هذا إيلاماً أنه كان محرماً على المصريين العمل فى هذه المؤسسات والشركات التى تمتص دمهم وتجنى الربح من أرضهم . (١)

★ ★ ★

وكانت النتيجة الحتمية لهذا أن بارت الصناعات والحرف التى كان يرتزق منها الوطنيون وساءت حال الفلاح نتيجة التحكم فى أسعار محصولاته . وحتى الطبقة الإقطاعية التى رحبت بمقدم الاحتلال وقدمت له الهدايا ضاعت أموالها هى الأخرى فى الخمر والعبث وسوء الاقتداء بالأجنبى مما جعل ممتلكات الكثيرين من أفرادها تسقط فى يد المرابين الأجانب .

وفى هذا تعترف لجنة الميزانية سنة ١٨٩٤ فتقول :

« إن الأمة المصرية سائرة فى طريق الفقر وعسر الحال ، وهذا يزيد على توالى الأيام وتداول الأعوام وحسبنا فى بيان ذلك أن الديون الخصوصية بلغت سنة ١٨٨١ نحو اثنى عشر مليوناً ، وفى أوائل سنة ١٨٩١ زادت على العشرين ، وبلغ مقدار الأطيان المرهونة نحو مليون وثلثمائة ألف فدان وكسور ، والعقارات المرهونة نحو تسعة آلاف ومائة .. غير الذى لم يسجل منها .

« ولا شك أن هذه الحالة لو دامت ، فلن تمضى سنوات حتى يتضاعف هذا الدين وتضيع الأراضى المصرية ومعظمها مرهون ويصبح الأهالى أجراء يعملون لدائنيهم فيما كانوا يملكون » (٢) .

★ ★ ★

وفى بداية حكم عباس ظهرت بوادر انفراج الأزمة نتيجة إنشاء خزان أسوان وازدياد المساحة المزروعة ، وازدياد الدخل القومى . ولو حسنت النيات وبدأ توجيه الزيادة الجديدة إلى تسديد الديون لتخلصت مصر من النفوذ الأجنبى وتغيرت أحوال

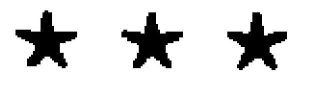
---

(١) مصر والسودان — الرافعى ص ١٨٥ .

(٢) مصر والسودان — الرافعى ص ١٨٨ .

مواطنيها ، ولكن الإنجليز كانوا يحرصون على استمرار خضوعها ، لسيطرة ونفوذ رأس المال الأجنبي حتى يستطيع الاحتلال دائماً أن يجد الذرائع التى يبرر بها بقاءه (١) ».

ولذا استمرت سياسة المحتلين فى نفس اتجاهها من حيث اغتصاب ما يراد اغتصابه من أموال مصر وممتلكاتها، وإضفاء ثوب المشروعية على ذلك بإصداره ممهوراً بتوقيعات المسئولين المصريين . فلما كانت الحرب العالمية الأولى أسفر الاحتلال عن وجهه وصدرت أوامر « السلطة الإنجليزية بالاستيلاء على كل ما بيد الشعب من أقوات وماشية ، كما فرضت التبرعات المرهقة لحساب الصليب الأحمر وفرسان القديس يوحنا على الشعب الذى لا يكاد يجد القوت ، وبلغ مجموع التبرعات عند عقد الهدنة ٢٢٥ ألفاً وثمانمائة جنيه ، كما فرض على الحكومة تبرع قيمته ثلاثة ملايين ونصف عدا نفقات « الرديف » الذى استدعى للعمل فى الجبهة وتحملت الخزانة المصرية نفقاته . وعدا تحديد سعر القطن باثنين وأربعين ريالا والذى كان يباع فى الخارج بمائتى ريال مما أضاع على البلاد مبلغ ١٧٦,٩٦٢,١١٥ مليون جنيه ذهبت كلها لصالح المستعمرين .



مجتمع ضائع محروم :

فقبل الثورة العرابية كانت الروح السائدة هى نفسها التى كانت على أيام المماليك . انعزال شبه تام عن المشاركة فى القضايا العامة ، لأن المصطرعين على الحكم كانوا فى رأى الشعب غرباء ولا مصلحة له فى نصر فريق منهم على فريق . وإنما مصلحته فى أن يرحلوا جميعاً عنه .

وعندما اشترك ممثلو الشعب فى تولية محمد على لم يكن هذا خروجاً من العزلة بالمشاركة وإنما كان فى لحظة ما تصوراً لأن محمد على قد يرفع عن الشعب ما أنزله صراع المماليك على رأسه من ضر .

ومن شأن العزلة فى أى مجتمع أن تصرف أفراده إلى مصالحهم الخاصة ، وأن تطوى تفكيرهم على ما يتصل فقط بشئونهم ، وأن تملأ حياة الناس بفراغ طويل قاتل .

---

(١) حوليات مصر السياسية – شفيق ص ٢٣ .

وإذا دخلت الأنانية بلداً باعدت بين طبقاته ، بل بين أفراده ، وحرمتهم ميزة الوحدة الوطنية بكل ما وراءها من خير .

ولعل فى كتابات « النديم » الاجتماعية ، وخاصة رواية « الوطن » ما يصور بصدق ذلك المجتمع .

ففى أحد مشاهدها يصور ملامح الجهاز الحاكم المحتك بالشعب من « الطوافة » ومشايخ البلاد « وحكام الخط » « والمديرين » وغيرهم ممن لا يعرفون فى التعامل مع الشعب غير القسوة والاستعلاء ، وفى مشهد آخر يصور قطاعاً آخر من شعبنا يقيم أهله فى « البنادر » يسخطون أشد السخط على ما يرهقهم من ضرائب .

وفى غمرة الهموم المتصلة ، والإرهاق الذى لا يكاد ينتهى يفر الشعب من واقعه إلى المخدرات ليدفن فيها آلامه ، ويهرب من مواجهة المشاكل التى أصبح فى عجز تام عن مواجهتها . وإذا كانت المتاعب الخاصة قد ملأت حياة كل مواطن ، فإن آلام الوطن ومتاعبه يتقهقر الاهتمام بها .

أما الذين أتيح لهم من أبناء هذا الشعب أن يتصلوا بأوربا فقد صورهم النديم وقد عادوا بعد ما فقدوا أصالتهم كمصريين فى الوقت الذى لم يستطيعوا فيه أن يكونوا من أهل أوربا ، فأصبحوا مسخاً مشوهاً لا يرجى منه الخير .

* * *

وقامت الثورة العرابية بكل أسبابها فزلزلت ما بالمجتمع من عوامل الضعف ، وأتاحت للقيم الطيبة أن تأخذ بعض مكانها ، ولكنها — مع الأسف — كانت كوميض الشهاب الساقط شقت حجب الظلام فى مجتمعنا إلى حين ، وما لبثت أن تهاوت فعاد المجتمع بعدها إلى يأسه وتحلله وفى ظلام الهزيمة علا صوت الخيانة والنفاق ، والاندفاع الصارخ وراء المنافع أيا كان الطريق إليها . وفى هذا يقول « محرم » :

أكل امرئ فى مصر يسعى لنفسه	ويطلب أسباب الحيـــاة لذاته
طروب الأمانى ما يبـــالى بشعبه	وإن ملأ الدنيـــا ضجيج نعـــاته
إذا نال ما يرجوه لم يعنه امـــرؤ	سواه ولم يحفـــل بطول شكاته
سواء عليه منزل السخط والرضا	إذا نال ما يرجوه من شهـــواته
يرى الدين والدنيا ثراء يصيبـــــه	وقصداً تزل العين عن شرفاته (١)

(١) ديوان محرم ج ٢ ص ٧٦ — ٧٧ .

وهذا حافظ إبراهيم يصنع من شعره سياطاً يلهب بها ظهر المجتمع المنحرف الذى يستعلى فيه الأغنياء على الآخرين ، ويمضى الناس فيه على طريق الهاوية وما يكادون يشعرون فيقول (١) :

وما أرجـوه من بلـد   به ضاق الرجـاء وبى ؟
وهل فى مصر مفخـرة   سوى الألقـاب والرتب
وذى إرث يكاثـرنا   بمـال غير مكتسب
وفى «الرومى» موعظـة (٢)   لشعـب جد فى اللعب
يقتلنـا بلا قـود   ولا ديـة ، ولا رهب
فقل للفاخـرين أمـا   لهذا الفخـر من سبب
أرونى بينكم رجـلاً   ركينـاً واضح الحسـب
أرونى نصف مخـترع   أرونى ربـع محتسـب
أرونى نـادياً حفـلاً   بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مـدارسكم   من التعليم والكتـب
وماذا فى مساجـدكم   سـوى التبيـان والخطب
وماذا فى صحـائفكم   سوى التمـويه والكذب

★ ★ ★

وفى مواجهة هذا الفساد المدمر ظهرت دعوات عريضة إلى الإصلاح قادها الأستاذ الإمام محمد عبده فى حملاته المشهورة لتصفية الدين مما ألحق به من زيف (٣) وبدع ، وتابعه الكواكبى فى« أم القرى » «والنديم » فى (الأستاذ) وغيرهم من دعاة الإصلاح ، الذين نجحوا فى كشف جذور الفساد وأبرزوا للعيون مكامن الخطر ، وجعلوا الشعب كله يؤمن بأن لا مفر من تصحيح الأوضاع ، وهنا اختلفت وجهات النظر فى تحديد أسلم سبيل.

---

(١) الديوان ج ٢ ص ١١٠ .
(٢) الرومى (الأجنبى) .
(٣) يراجع تاريخ الإمام ج ١ ، ٣ ومنشآت الإمام . ومقالاته فى « العروة الوثقى »

• فهناك من فتنتهم قوة الغرب فدعوا إلى منهجه فى أن يسود العلم والتحضر ومبدأ القوة (١) .

• وأشفق آخرون على مجتمعنا مما لحضارة الغرب من مظاهر يخشى علينا من فتنتها فدعوا إلى الاعتصام بما فى الإسلام من مبادئ للإصلاح .

وسواء أكانت الدعوة إلى الإصلاح متجهة إلى الغرب ، أم مستوحية أسسها من مبادئ الإسلام ، فقد أبرزت فى حياتنا ملامح جديدة كان أهمها الإيمان بالقوة والدعوة إليها كتعبير طبيعى عن كراهية الشعب للضعف الذى أسلمه لبراثن الاحتلال .

وفى هذا يقول حافظ :

قد مللنـــا وقوفنـــا فيه نبكى ... حسباً زائلاً ومجداً مضـــاعا
وسئمنا مقالنا : كان زيد ... عبقرياً ، وكان عمرو شجاعا

ويقول شوقى :

وعلمنا بنـــاء المجد حتى ... أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيـــل المطالب بالتمنى ... ولكن تؤخذ الدنيا غـــلابا
وما استعصى على قوم منال ... إذا الإقدام كان لهم ركابا

★ ★ ★

تلك كانت حال مجتمعنا فى تلك الحقبة من الزمن .. شعب يعانى الأمرين فى حياته الاقتصادية تحالف عليه الفقر ، وقسوة الحاكم الذى لايشبع من جمع الضرائب ، وأفقده الجهل كل مقدرة على تمييز شخصيته وتحرير مستقبله من المستغلين فى الداخل والخارج وقاده الدجالون والمنحرفون إلى حافة الهاوية ، وفقد المناعة ضد الأوبئة فى الروح والجسد ، ووقف على مفارق الطريق مبهور الأنفاس لا يكاد يدرى إلى أين الطريق ..

★ ★ ★

وهنا نهضت الخطابة السياسية تؤدى دورها الخطير الفعال الذى كان وشيكاً أن يؤتى ثمراته لولا قيام الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من إعلان الحماية على مصر وإسكات صوتها القوى الذى كان ينبض بالقوة والأمل ويلح فى طلب الحياة لمصر .

---

(١) يراجع ما نشر فى تلك الفترة فى « الأهرام » و « المقطم » و « المقتطف » وكذلك كتب قاسم أمين حول تحرير المرأة .

الحالة الثقافية

التعليم المصرى فى عهد الاحتلال — نشاط المحتل فى نشر ثقافته — الصراع بين الإنجليزية والفرنسية والعربية والدعوة إلى العامية — مدارس الشعب ونشاط الحزب الوطنى — حالة الأزهر والمدارس العليا — نظرة عامة فى ثقافة الشعب .

التعليم المصرى فى عهد الاحتلال:

قبيل الاحتلال وأوائل عصر إسماعيل لم تكن طبيعة المدرسة المصرية لتختلف كثيراً عنها فى عصر محمد على من حيث غلبة الطابع العسكرى على مظهر المدرسة ، وتحكمه فى منهجها .

ولولا وجود « الأزهر » يبدئ رجاله ويعيدون فى دروس الحديث والتفسير واللغة ، ولولا « الكتاتيب » المنتشرة فى مختلف قرى مصر لتحفيظ القرآن. لولا هذان المرفقان - على ما كانا عليه من قصور - لأطبقت الجهالة على الشعب، ولاستطاعت بعثات التبشير الموجهة من ساسة الاحتلال أن تحقق أهدافها وتقضى على ما كان باقياً من سمات الثقافة العربية الإسلامية .

★ ★ ★

ومع وجود الروافد التعليمية الأربعة إذ ذاك « المدارس الأميرية — المدارس الأجنبية الأزهر — الكتاتيب » فإنها بظروفها لم تكن صالحة لإعداد المواطن الذى تريده مصر الناهضة .

* فالمدارس الأميرية كانت كما أسلفنا عسكرية الصبغة لا تخدم الحاجة الثقافية عند الشعب بقدر ما تخدم أهداف الجيش ، وهى بهذا غير قادرة كما قال الأستاذ الإمام « على إعداد المصريين ليكونوا رعية صالحة (١) » .

(١) تاريخ الإمام ج ٢ ص ٥٤٢

* والمدارس الأجنبية كانت تخدم سياسة الإرساليات المشرفة عليها ، ولم يكن من هدفها إنماء القومية المصرية ولا دعم الثقافة القومية واللغة العربية .

* وأما الأزهر فكان كما قال الإمام « مدرسة لا نظام لها ، ولا يسأل فيها التلميذ عن شيء من أعماله ، ولا يبالى أستاذه حضر عنده أم غاب عنه ، فهم أم لم يفهم ، صلحت أخلاقه أم فسدت وتمر الأوقات على أهل الجد منهم فى فهم مباحثات لبعض المتأخرين لا فائدة فيها ، وجل معلوماتهم تلك الزوائد التى عرضت على الدين ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها .

« ثم إن المعروفين منهم بالعلماء أقرب إلى التأثر بالأوهام والانقياد إلى الوساوس من العامة فبقاؤهم فيماهم عليه مما يؤخر الرعية عن تقرير السلطة الصالحة قدرها (١) »

* ولم تكن « الكتاتيب » فيما أعتقد أكثر من صورة مصغرة فى النوع والطريقة للتعليم فى الأزهر يقتصر فيها على تلقين التلاميذ القرآن الكريم دون فهم ولا تدبر ، والفرق بين المعلمين فيها وبين التلاميذ هو فارق السبق فى الزمن .

وقد استأثرت حال التعليم المصرى باهتمام المصلحين الذين كان فى قمتهم رجلان تدين لهما النهضة الثقافية والعلمية فى مصر بالكثير وهما الأستاذ محمد عبده وعلى باشا مبارك ، اللذان كانت لهما فى جوهر التربية نظرات نفاذة ثاقبة ، ونضال عظيم لا تتسع لتفصيله هذه الدراسة (١) .

محنة الثقافة القومية تحت سيطرة الاحتلال :

وكانت الكارثة الثقافية التى منيت بها البلاد فى ظل الاحتلال لا تقل خطراً على حياتنا من ضرب الإسكندرية فى يوليو ١٨٨٢ .

ذلك أن الاستعمار منذ آلت إليه المقاليد خطط للتعليم المصرى سياسة تؤدى إلى الشلل ، وتسلبه الاستقلال الفكرى والمقدرة على تمثل الثقافات والإفادة منها ، وتنتهى

---

(١) لمن شاء الاستزادة أن يراجع تاريخ الإمام ج ٢ ص ٤٤٢ – ٥٤٦ – ، مذكرات شفيق ج ٢ أ ، ب ، زعماء الإصلاح لأحمد أمين ، مضبطة مجلس الشورى أكتوبر ونوفمبر ١٨٦٦ ، لائحة رجب عام ٢٧٤ هـ ، محاضر قومسيون المعارف المشكل عام ١٨٨٠ م ، كتاب علم الدين لعلى مبارك ، مقال لشفيق غربال ١٢٧ – مجلة التربية الحديثة أبريل ١٩٣٧ ص ٣٧٧– ٣٨٢ ، فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى ص ٥٧ ج .

بالمتعلم إلى أن يصبح آلة صماء تستظهر فقط ما يراد لها ترديده . وأصبحت قيمة التعليم عند المواطنين أن يصل بهم إلى الوظائف ، فإذا أرادوا الترقى فيها تعلموا بالذات ثقافة الأجنبى فإذا طمحوا إلى مناصب عليا فالسبيل هو التحمس للغة المستعمر وثقافته والترويج لها .

وكان سوء الحالة الاقتصادية — كما سترى — مما ساعد المستعمر على النجاح فى سياسته ، ولعل فى رد سعد زغلول وزير المعارف على من تقدموا إليه من أعضاء الجمعية التشريعية يطلبون جعل « العربية » لغة التعليم بدل الإنجليزية ما يؤكد ذلك . فقد قال سعد :

« إن الحكومة لم تقرر التعليم بالإنجليزية إلا ليتقوى بها التلاميذ ، ويقدروا على الدخول فى معترك الحياة ، حياة العمل والعلم .

« وإذا فرضنا أنه يمكن أن نجعل التعليم من الآن بالعربية نكون قد أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى .. لأنه لا يمكن للذين تعلموا على هذا النحو أن يتوظفوا فى الجمارك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح الكثيرة المختلفة التابعة للحكومة ، ولا أن يستخدموا فى مصرف ، ولا أن يشتركوا فى شركة من الشركات الأجنبية التى كثر تأسيسها الآن فى البلاد ، ولا أن يكونوا محامين أمام المحاكم المختلطة ولا مترجمين ولا غير ذلك من كل ما يحتاج إلى البراعة فى لغة أجنبية وهو كثير جداً فى بلادنا (١) . »

* * *

وكانت الخطوات المباشرة من جانب المحتلين لتزييف الثقافة المصرية كثيرة ، بدأت باختصار ميزانية التعليم وإلغاء العدد الأكبر من المدارس الخاصة ، وإلغاء المجانية من المدارس غير الأولية ، وخنق التعليم العالى بحجة أنه يوسع الهوة بين الطبقات ، ويؤدى إلى البطالة والأضرار الاجتماعية (٢) ، كما أوقفت البعثات التعليمية إلى الخارج وغير ذلك من الخطوات .

وكانت النتيجة الطبيعية التى تمت على حساب خنق العقل المصرى والثقافة العربية هى ازدهار اللغة الإنجليزية فى بلدنا على حساب اللغة العربية وقد سجل أحد التقارير الرسمية ما يأتى :

---

(١) المؤيد عدد ٥ من مارس سنة ١٩٠٧ .

(٢) تاريخ مصر السياسى — رفعت ص ٢٧ .

على المستر « دنلوب » تقع تبعة فساد التعليم المصرى والرجوع به القهقرى ، وإخراج موظفين جل اعتمادهم أثناء دراستهم على الاستظهار والحفظ ، لا على القوى العقلية السامية الأخرى من التعقل والموازنة والاستنباط (١) »

ومن خلال هذه السطور التى نقلناها من تقرير تعليمى رسمى تبدو ملامح الجيل الذى أشرف الاحتلال على تعليمه فجاء هزيلاً مشوه التكوين العقلى والثقافى ، فلما آلت إليه الأمور لم يكن أهلاً لتحمل المسئولية وفى هذا المعنى يقول الدكتور طه حسين (٢) :

« فما زال الشباب يأتون إلى الجامعة ضعافاً قاصرين، ويستقبلون حياتهم جاهلين بها عاجزين عن التصرف فيها ، ضعافاً عن أن ينهضوا بأعبائها ، يذهبون إلى الدواوين موظفين فتشكو الدواوين ، ويعرضون أنفسهم على أصحاب الأعمال الحرة فلا يكادون يجربونهم حتى يزهدوا فيهم ويعرضوا أشد الإعراض عن استخدامهم . »

★ ★ ★

وانعكست آثار هذه السياسة الاستعمارية على اللغة بصفة خاصة :

فقد دفعها طغيان لغة المستعمر إلى الانزواء الذى أزعج المخلصين فهبوا يبكونها قبل أن تموت . وأصبحت الإنجليزية أو الفرنسية لغة التأليف والترجمة (٣) . إلا فى بعض المعاهد وازدادت الحملة الاستعمارية على العربية إلى حد أن جعلوها سبب جهل المصريين وسبب مصائبهم (٤) .

وتبع هذا ظهور الدعوة إلى استخدام العامية مكان لغتنا الأصلية .

ونهض المخلصون ينافحون عنها وقال حافظ قصيدته المشهورة التى مطلعها على لسان اللغة :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى   وناديت قومى فاحتسبت حياتى (٥)

---

(١) تقرير مستر بويد كاربنتر رئيس التفتيش عام ١٩١٨ – عن تقرير الهلالى عن التعليم الثانوى ١٩٣٥ .

(٢) مستقبل الثقافة . ص ٧٢ ، ٢٣٣ .

(٣) يراجع تقرير الإمام سنة ١٩٠٤ والذى قال فيه كلمته المشهورة « إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت فى كل مكان وتحيا فى دار العلوم

(٤) فى الأدب الحديث – عمر الدسوقى ص ٤٠

(٥) الديوان ج ١ ص ٢٣٥

والتى أشار فيها إلى مصدر الحملة المدبرة « من جانب الغرب » لوأد العربية والثقافة القومية ، وظهر صدى هذا الدفاع فى تقدم بعض أعضاء الجمعية التشريعية إلى وزير المعارف باقتراح إرجاع العربية إلى المدارس وإبطال التعليم بالإنجليزية كما أشرنا إليه . وقررت الجمعية وجوب تنفيذ ذلك بأغلبية ستين صوتاً .

التعليم الوطنى هو الحل :

وجدير بالملاحظة أن اهتمام المصريين بشئون التعليم كان — كما يقول الرياضيون — يتناسب تناسباً طردياً مع ضغط الأحداث وطغيان النفوذ الأجنبى .

فحين تراجعت فرنسا عن تأييد المصريين وعقدت الاتفاق الودى مع بريطانيا كان رد الفعل هو الدعوة إلى الاهتمام بالتعليم لخلق جيل يعتمد على نفسه لا على الآخرين .

وحين أسفر الاحتلال عن فظاعته فى « دنشواى » برزت الدعوة إلى التعليم بمستوى أرفع وعرضت فكرة إنشاء الجامعة . وهكذا كان الإيمان يزداد بأن ما يمنحه التعليم للمواطن هو أعظم ما تحتاجه مصر فى نضالها ضد الاستعمار .

ويستطيع الناظر فى ثقافة الشعب فى ظل الاحتلال أن يدرك مدى جناية المستعمرين على التعليم عامة ، وعلى الثقافة القومية بوصف خاص .

• فمن حيث الكم انخفض عدد المتعلمين إلى النصف عما كان عليه قبيل الاحتلال .

• ومن حيث الأهداف لم يكن صالح مصر مرعياً فى تخطيط سياسة التعليم . بل المرعى هو صالح الاحتلال : وخاصة فى الاهتمام بالتعليم النظرى وتعمد إهمال التعليم الصناعى والفنى .

• ومن الناحية العامة أصبحت الثقافة فى ظل الاحتلال مجرد قشور لا عمق فيها ، ولا يمكن أبداً أن تدفع بأصحابها إلى الخلق والابتكار ، بل إنها تفقدهم نضج التكوين واستواء الشخصية — إلا من عصم الله .

ومما زاد فى إحكام المأساة أن عمر هذه السياسة قد طال حتى أصبحت ذات جذور فى جيل الاحتلال ثم فى الأجيال التى جاءت بعده ، مما جعل الشعب طوال فترات الضعف التى مرت كلها ينظر فى غير تقدير أو ولاء إلى لغته وثقافته ، ويمارس — دون أن يدرى أزمة الثقة بنفسه ، وعبادته للأجنبى .

ولولا ما اتخذ بعد ثورة يوليو من قرارات لتصحيح هذه الأوضاع الخاطئة لظلت ثقافتنا فى أشد الاحتياج إلى من يرد اعتبارها إليها .

الباب الثانى

النّشاط الخطابى فى الثّورة العرابيّة

* الرأى العام قبيل الثورة
* الدستور والخطابة السياسية
* نظرة عامة إلى الخطابة السياسية
من عصر إسماعيل حتى نهاية
الثورة العرابية

الرأى العام قبيل الثورة

لم يظهر للخطابة السياسية بقسميها — الرسمى والحر — أى نشاط حتى منتصف عصر إسماعيل وهى الفترة التى بدأ الوعى الوطنى فيها يعلن عن وجوده ، ويؤثر فى سير الأحداث وتوجيه الشئون العامة للبلاد .

فقبل ذلك التاريخ كانت مصر محكومة بسلطة الرجل الفرد ، الذى يشعر أنه ورث عن آبائه عرش هذه البلاد ، وأن التصرف فيها من شأنه وحده لا ينبغى أن يشركه فيه أحد إلا حين يسمح هو بهذه المشاركة ، أو يأمر بها على الأصح .

وكانت الظروف المحيطة بالشعب إذ ذاك تتيح للحاكم أن يستبد ، وأن يمارس طغيانه على أوسع مدى ، فلم يكن ثمة من المصريين من يستطيع أن يرفع صوته فى وجه الطاغية ليقول له .. مكانك !

وذلك بسبب انتشار الجهل وانحطاط المستوى الاجتماعى والاقتصادى ، وأعمق من هذا بسبب ما اعتاده الشعب من قبل على أيدى أسرة محمد على ومن سبقهم من المماليك من تفردهم بالأمر ، مما طبع مشاعر الشعب على العزلة عن الحاكم ، والسلوك السلبى فيما يتصل بالقضايا العامة . وكل نصيبه فيها أن يسمع فيطيع .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما حدث عندما شاءت إرادة إسماعيل أن يستكمل بعض مظاهر سلطانه بإنشاء مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ م وقيل للنواب إن ولى النعم قد اختارهم ليحملوا معه أعباء الحكم ، وليشاركوه سلطانه باسم الشعب .

حين حدث هذا لم يستطع وجدانهم « المعتزل » أن يصدق ما يقال ، ولا أن يستشعر الجرأة فى ممارسة الحق الممنوح له ، ولما اجتمع أول مجلس للنواب سنة ١٨٦٦ وطلب سكرتيره من الأعضاء أن يقسموا أنفسهم أقساماً ثلاثة : أولها حزب اليمين الذى

يؤيد الحكومة . وثانيها حزب اليسار الذى يعارض الحكومة والثالث : الوسط الذى يمثل الاعتدال ، فلم يكن من أعضاء المجلس إلا أن انحازوا جميعاً إلى جهة اليمين قائلين : وكيف نكون ضد الحكومة ؟ (١)

نعم كيف يكونون ضد الحكومة ؟ فهذا هو الشيء الذى لم تستطع مشاعرهم أن تسيغه فضلاً عن أن تمارسه وتتحمس له ، حتى لو سمح به الحاكم ودعاهم إليه .

فإذا عرفنا أن إسماعيل كان استبدادى النزعة بطبعه ، وأنه لم يقم مجلس الشورى إلا لمجرد استكمال مظاهر الحكم ، وأن الأعضاء جميعاً كانوا معينين بإرادته ، يشعرون أنهم أسارى فضله عليهم ، وإذا عرفنا أن اثنين من نواب هذا المجلس قد أبديا رأيهما يوماً بما يخالف رأى الحكومة فكان جزاؤهما الطرد منه بأمر الخديو باعتبارهما عضوين مشاغبين خطرين على الأمن العام (٢) إذا لاحظنا كل ذلك أدركنا أن خلو هذه الفترة من الخطابة السياسية أمر متفق وطابع الأشياء فلم يؤثر من نصوصها خلال السنوات العشر الأولى لتأسيس الحياة النيابية إلا خطب الخديو نفسه والرد عليها فى المرات المحددة لافتتاح أدوار الانعقاد .

ومن تتبع هذه الخطب ، « الإسماعيلية » يطالع روحاً متميزاً يربط بينها جميعاً ، وهو الروح الذى كان يحسه الحاكم بأنه ولى النعمة ، وولى كل النعم ، وأن مصر قبل أسرة محمد على لم يكن لها وجود وأنهم وحدهم الذين صنعوا لمصر كل شيء .

هكذا تقول الخطب دائماً ، وهكذا يضيع الجزء الأكبر فى كل خطبة ، فلا يبقى منها إلا القليل الذى يعالج الموضوع الأصلى فى إيجاز ، وفى أضيق الحدود .

ونقف أمام خطبة الخديو إسماعيل فى افتتاح المجلس التشريعى الأول كنموذج لهذه الخطب جميعاً ، (٣) فقد بدأها بالحديث عن « المرحوم » جده حين تولى مصر ، وكيف وجدها خالية من « آثار العمار » فصرف الهمم العالية لتأمين أهلها وتمدينهم .

وبعد جده تحدث عن والده ، وعن دوره فى إنهاض البلاد التى انتهت إليه أمورها فقال :

---

(١) مذكرات شفيق باشا ج ١ ص ٢٩ .

(٢) رسائل من مصر الحديثة —الرسالة السابقة يونيو ١٨٦٨ عن : الرافعى – عصر اسماعيل ص ١٤٢ .

(٣) المضبطة الأصلية لجلسة الافتتاح—الأحد ٢٥ من نوفمبر ١٨٦٦ — ١٧ من رجب سنة ١٢٨٣ هـ .

(ومن حين تسلمته لهذا الآن رأيتم دوام سعيي واجتهادى فى إكمال ما شرعاه من المقاصد الخيرية بتكثير أسباب العمارية والمدنية ، أعاننى الله على ذلك) .

أما الموضوع الأساسى للخطبة فلم يذكر إلا حين اقتربت من نهايتها بعد ما استنفذت فى ذكر محاسن الأجداد والآباء .

★ ★ ★

وإذا صرفنا النظر عما يخص إسماعيل وأسرته فى هذه الخطب رأينا فيها إشارات وكلمات صريحة عن الشورى وأهميتها فى تثبيت دعائم الحكم ، وعن دور ممثلى الشعب فى تسيير شئون الحكم . وكان جديراً بهذه الإشارات والكلمات أن تثير مشاعر النواب ، وتحفزهم للمشاركة الحقة فى شئون البلاد وخاصة فى هذه الفترة نفسها التى أحاطت المتاعب والأحداث بالوطن فيها من كل جانب .

ولكن نواب تلك الفترة لم يكونوا بعد — كما سبقت الإشارة — قد استوثقوا من أن المشاركة فى حكم البلاد حق لهم يجب أن يحافظوا عليه ويمارسوه. ولهذا انقضت السنوات الأولى من عمر الحياة النيابية ولم تخلف وراءها خطابة سياسية ذات أثر .

★ ★ ★

يقظة الرأى العام :

حتى إذا كان عام ١٨٧٦ طالعنا روح جديد فيه نهضة وفيه معارضة . وظهرت الخطابة السياسية لتحتل مكانها فى حياة البلاد بمجاليها الرسمى والحر .

فعندما أقبل هذا العام كان قد تجمع فى آفاق البلاد أكثر من عامل من عوامل الإنهاض والإثارة . فالاضطراب المالى يزداد فى كل يوم ، والقروض تتوالى دون أن يدرك الشعب شيئاً عن الأبواب التى تختفى وراءها . والدائنون يفرضون أنفسهم بثقل وجفوة على الحكومة ، وعلى حياة الناس ، والصحافة الناهضة تحاول أن تسهم بنصيبها فى إيقاظ الرأى العام بتبصير النواب والمسئولين خاصة بما عليهم من واجب . وطلائع المثقفين يتذاكرون فى أن عليهم تبعات كبيرة تجاه مستقبل البلاد ويحذرون من المصير الخطر الذى ينحدر إليه ، لا سيما من وضع من هؤلاء يده فى يد الثائر الأفغانى ، هذا بالإضافة إلى البواعث الخارجية التى لا يمكن تجاهل أصدائها والتى كان أوضحها إعلان الدستور فى تركيا وانتصار دعاة الحرية فيها على استبداد السلطان ولو حتى من الناحية المظهرية .

كل هذه العوامل قد أيقظت الرأى العام ، وفتحت الباب على مصراعيه أمام الطلائع المستنيرة لتشارك بالفكر والعمل فيما يتهدد البلاد من كوارث لم يكن الشعب من جناتها ، ولكنه على الدوام كان المتحمل لتضحياتها.

فى أغسطس من هذا العام ١٨٧٦ . كانت الضائقة المالية قد بلغت أشدها فى مصر واستيقن إسماعيل من عجزه عن مواجهة المصاعب والوقوف فى وجه أطماع الدائنين الأجانب وحده فاتجه إلى الشعب يحاول أن يستند إليه فى دعم موقفه .

وكانت دعوة المجلس إلى دور انعقاد غير عادى فى طنطا للنظر فى إبقاء العمل بقانون « المقابلة » . وكأنها كانت إشارة من القدر إلى نواب الشعب أن يثبتوا وجودهم فى فرصة العمر . وإذا مناقشاتهم لم تقف كما كانت فى الماضى عند الجزئيات المحلية كالسخرة ، أو نظام الرى والصرف ومشاكل العهد وغيرها . وإنما انصبت أساساً على القضية العامة التى كانت تشغل البلاد إذ ذاك وهى المسألة المالية .

ومن خلال المناقشات ظهر الروح الإيجابى الجديد تجاه مسائل البلاد متخذاً طابع البحث والاستقصاء والتحرى الدقيق عن سياسة الحكومة ودراستها بعناية واهتمام يختلفان عن حالة التهاون وعدم المبالاة التى كانت طابع الماضى .

★ ★ ★

فقد وقف أحد النواب (١) وطلب صراحة « أن توضح الحكومة الطريقة التى كان فى نيتها اتباعها لرد المبالغ المحصلة من المقابلة فيما لو بطل العمل بالقانون » وأضاف :

« وبما أن المجلس لم ينظر ميزانية الحكومة فى السنة الماضية — مع أن له الحق فى الاطلاع عليها ليعرف كيفية الإيراد والتصرف ، ويعلم أيضاً كيفية الاستقراض وحصر الدين واستهلاكه فى ٦٥ سنة — فإن وافق المجلس يصير طلب هذه البيانات لتنظر أيضاً بالمجلس » وتلك فى رأيى بوادر التحول الذى أشرت إليه فى موقف ممثلى الشعب تجاه الحاكم من التقديس والولاء الخاضع إلى المحاسبة والنقد .

فلما كانت دورة يناير ١٨٧٩ اتخذت يقظة النواب مظهراً أقوى وأحس النواب أنهم سلطة أعلى بالفعل من سلطة الحكومة من حقها أن تناقشها الحساب وأن تستحثها العمل .

---

(١) الشيخ عثمان الهرميل — مضبطة جلسة أغسطس سنة ١٨٧٦ ، عصر إسماعيل للرافعى ص ١٥٢

ومن مظاهر ذلك أنه عندما تلكأ « ريفرس ويلسون » وزير المالية الأجنبي فى تقديم بعض البيانات إلى المجلس ، اقترح بعض النواب تشكيل لجنة منهم تتولى التفاهم فى الأمر فإذا واحد منهم يتقدم ليقول : (١)

« إن المجلس لا ينحصر رأيه فى بعض الأعضاء (يقصد اللجنة المقترحة) . بل لابد من المداولة بحضور النواب جميعاً ، ونظراً لأن وزير المالية يطلب بعض الأعضاء للاسترشاد برأيهم فلا بأس من انتخاب خمسة لهذا الغرض على ألا يكون لهم رأى يبدونه فى مسألة من المسائل إلا بعد أن تعرض على المجلس (٢) » .

وطالت المناقشات ودخل أسلوبها فى مجال أقرب إلى الخطابة منه إلى مجرد الاعتراض والجدل مما أظهر عجز ممثلى الحكومة أمام قوة النواب . وبدا واضحاً عدم إمكان التعاون بين المجلس والحكومة ، فصدر المرسوم الخاص بإنهاء أعمال هذا المجلس فى جلسة ١٧ من مارس سنة ١٨٧٩ وهنا كانت القارعة .

فما أن انتهى رياض باشا من تلاوة المرسوم حتى نهض النائب الوطنى محمد أفندى راضى يقول : « مما طلب المجلس لأجله النظر فى مسائل مالية ، وقد مضت ثلاثة شهور ولم ترد البيانات المطلوبة والملحوظات التى تحررت عن الأقلام (اللجان) والتى تراءت للمجلس أرسلت للداخلية للنظر فيها بمجلس النظار ، ونظراً لمضى تلك المدة وعدم ورود شيء ودخول وقت الصيف طلبنا إجازة مدة شهرين لرؤية أشغالنا ثم نعود .

« والأمر الصادر الآن فيه أن المجلس مدته انتهت مع أنها ما انتهت ، وحاصل الأمر أنه لا بد من عودة المجلس بعد المدة التى قررها لأجل رؤية تلك المسائل والملحوظات (٣) .

وواضح من كلام النائب عدم الاعتراف بمرسوم إنهاء الدورة وضرب عرض الحائط بقرار الحكومة ، وتلك سابقة لم يكن لها نظير من قبل .

★ ★ ★

ومن بعده نهض النائب عبد السلام المويلحى يهدد الحكومة وينذرها بالشر فى قوله : « إن المجلس طلب عدم قطع أمر فى أى شيء كان إلا باشتراكه . وإن بعض الأعضاء يقول

---

(١) المضبطة – محمود بك العطار فى جلسة ٥ من يناير سنة ١٨٧٩ .

(٢) المضبطة – محمود بك العطار فى جلسة ٥ من يناير سنة ١٨٧٩ .

(٣) الرافعى – عصر إسماعيل ص ١٧٩ . ولأهمية هذه الجلسة نقلنا نص ما دار فيها كاملا .

إذا كان لا يحصل ذلك فربما حصلت من الأهالى أمور لا يصح وقوعها ، ويكون مجلس النظار تحت المسئولية » .

فأجاب رياض باشا :

« ما قتلموه الآن هو بخلاف لائحة المجلس الجارى لحد تاريخه ، ولا يمكننى أن أجاوب عن ذلك منفرداً ، وإنما ينظر فيه مجلس النظار ، والمأمول ألا يحصل شيء من الأهالى مما يكدر الراحة » .

فقال المويلحى :

« المجلس لائحته تقضى أن ينظر فى المنافع الداخلية ، والتصورات التى تراها الحكومة أنها من خصائصه ينظر فيها وتعرض على الحضرة الخديوية » .

فقال رياض : « الخروج عن اللائحة والقانون الموجودين لا يمكن إلا بأمر ثان » .

ورد محمد أفندى راضى « اللائحة تعطى للمجلس حقوقه » .

فقال رياض وكأنه يصر على إنهاء أعمال المجلس « ننظر فى اللائحة والإجراءات السابقة وإذا كان مجلس النظار أو سعادة ولى النعم يبدى شيئاً آخر فهذا يجرى ما يلزم عنه ، وأما مجيئى فلأجل الشكر والتوجه لطرف الأعتاب كما هو جار حسب المعتاد عند انفضاض المجلس » .

★ ★ ★

وهنا قال راضى :

« شكر سعادتكم مقبول ، ولكن لا يمكن صرف المجلس إلا إذا نظر المسائل التى حرر عنها ونظر الميزانية » .

— رياض باشا : « الأمر يقضى بانفضاض المجلس لانقضاء مدته » .

— باخوم لطف الله : « توجهنا إلى البلاد بهذه الكيفية ربما يحصل منه زعزعة للأهالى ، بناء على الوعد السابق من حضرات النظار عندما اشتكى الأهالى وقيل لهم إن نوابكم موجودون للنظر فى راحتكم ، والأولى أن ننظر فى المسائل التى قررناها ، وفى الميزانية » .

— رياض : الصعوبات الحاصلة لا يمكن إبداؤها والمجلس بواقع لائحته قد انقضت مدة السنوات الثلاث التى يلزم الانتخاب بعدها .

— محمد راضى :

المجلس لا يزال باقياً له مدة . وقد سمع المجلس أن سعادتكم أحضرتم أصحاب الجرانيل وأكدتم عليهم بعدم نشر شيء فى « جرانيلهم » مما يتعلق بمجلس الشورى وبالأجانب وهذا فيه تضييق .

— المويلحى : « من ضمن ما قلتموه سعادتكم إن أهالى مصر همج ، وإنه لايوجد فيهم عشرة يفهمون ما فى « الجرانيل » مع أنه لا يصح نسبة جميع أهالى الوطن إلى هذه الحالة التى لا تليق » .

— رياض يحاول توضيح موقفه :

— محمد أفندى راضى :

« لا نتوجه لطرف الأعتاب (لا شكر) إلا إذا أعطى لمجلس النواب حقوقه ، وأجيبت مطالبه ، وها نحن منتظرون الجواب الذى يرد عن ذلك (١) » .

* * *

وترددت أصداء هذه الجلسة العاصفة فى المحيط الشعبى فكثرت الاجتماعات الشعبية التى تناقش الموقف وتؤيد الأحرار فى محافظتهم على ما للأمة من حق ، وكان من أبرزها ذلك الاجتماع الذى عقد بدار السيد على البكرى فى الثانى من أبريل عام ١٨٧٩ والذى انتهى بوضع « لائحة وطنية »تتضمن مشروع تسوية مالية مضادة للمشروع المقدم من « ريفرس ويلسون » كما تضمنت المطالبة بتعديل قانون مجلس الشورى بحيث يكون له من السلطات الحقيقية ما للمجالس الأوربية المماثلة ، وذلك مع تقرير المسئولية الوزارية.

والترجمة الصريحة لهذا كله أن الوعى الوطنى قد بلغ من القوة حداً لم يكن ليستهان به وأن إرادة الأمة بدأت فى زحفها لاستعادة ما اغتصبه الحاكم على مرور الزمن .

وبالفعل لم تذهب هذه الانتفاضة هباء . بل استقالت وزارة رياض باشا ، أو على الأصح أكرهت عليها للتنافر الذى كان بينها وبين الرأى العام ، وخلفتها وزارة الرجل الموثوق به — « شريف » وأعلن الخديوى قبوله للائحة الوطنية التى أشرت إليها . وكان أول قرار أصدرته وزارة شريف بعد تأليفها هو قرار استمرار المجلس فى مباشرة أعماله (١) .

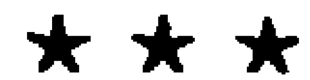
وإذ ذاك برزت الخطابة السياسية مرة أخرى لتسجل أصداء هذا الانتصار للقوى

---

(١) الرافعى — عصر إسماعيل ص ١٧٩ وما بعدها .

(٢) الرافعى — عصر إسماعيل ص ١٧٨-١٧٩ .

الشعبية فأقيمت الحفلات والاجتماعات التي شهد الخديو بعضها ، واستمع إلى كثيرين من خطبائها ، بل وخطب فى بعضها أحياناً ، وكأنما كان يحس دنو أجله السياسى فكان كما رأينا يحاول أن يزداد اقتراباً من الشعب ، ولكنه خلع قبل أن يوقع مرسوم إصدار الدستور الذى أعده « شريف » .



وتولى توفيق مكان أبيه .

وسرعان ما كشفت الأحداث عن — أن ولايته كانت انتكاساً للحركة الوطنية ورجعت بها إلى الوراء فقد اصطدم بشريف من أجل الدستور والمجلس النيابى ، وجمع مجلس النظار تحت رئاسته إلى حين ، فلما شاء أن يتزل عنها أسندها إلى الرجل الذى كان إذ ذاك مبغضاً إلى الشعب ، والذى استصدر مرسوم إنهاء أعمال مجلس النواب وهو رياض ، وكأنه بذلك يعنى إعلان سياسة التحدى للمطالبين بحق الأمة فى أن يكون لها إلى جوار الحاكم مكان .

وعمدت وزارة رياض إلى الإرهاب والضغط .

وعاد الشعب ثانية إلى النضال . ولم يكن اندلاع الثورة محتاجاً إلا لظهور الرجل الذى يلتف الثوار من حوله ، وينعقد لواء الزعامة له . وكان هذا الرجل هو (أحمد عرابى) .

★ ★ ★

نقطة التحول فى أسلوب النضال الوطنى :

كانت واقعة قصر النيل — المعروفة — فاصلاً بارزاً بين عهدين وبين تاريخين .. عهد كان فيه حاكم مصر يشعر أنه ولى النعم وأن الجميع عبيد إحساناته ، وعهد آخر يتزل فيه نفس الحاكم عن كبريائه وعن جبروته ليتودد إلى أبناء هذا الشعب سائلاً إياهم — دون جدوى — أن يبقوا على طاعته .

وكانت فاصلاً بين مرحلة النضال السلبى الذى كان قصارى جهد النواب فيه أن يعلنوا الاحتجاج والسخط ، وبين مرحلة أخرى فرض فيها أبناء الشعب إرادتهم على الحكومة وأرغموها على الخضوع لما يريدون .

ثم هى قبل هذا كله ، وبعد هذا كله ، إيذان بتلاقى الأمة كلها مدنيين وعسكريين على طريق واحد هو طريق الأحداث العملية للثورة العرابية .

ولم تمض أيام على هذه الواقعة التى زلزلت هيبة الحاكم حتى شرع هو فى القيام بحركة مضادة يحاول بها أن يستعيد ما فقد من هيبته ، ويزيل بها ما خلفته فى النفوس من آثار . فاستدعى قادة الجيش إلى قصر عابدين (١) حيث ألقى فيهم خطبة كانت السياسة وحدها هى المملية لكل لفظ فيها ، فقد بدأها متودداً إلى الضباط معاتباً لهم فى رفق شديد :

« إنكم تعلمون حق العلم ما عندى من الميل والمحبة للعساكر ، والالتفات إلى شئونهم من يوم استلامى لزمام الحكومة ، وذلك لما هو متحقق لدى من أنهم متحدون معى فى مقاصدى الحسناء التى هى دوام حفظ الأمنية واستقامة الأحوال الإدارية فى القطر ، لذلك لا أخفى عليكم ما حصل عندى من الأسف بأسباب الحركة التى حدثت وانقضت » .

وبعد أن دلف الخديو إلى سامعيه من هذا المدخل العاطفى أراد أن يعلن بطريق غير مباشر أنه لا يزال الرجل القوى القادر على أن يحاسب ويؤاخذ فقال :

« ومع هذا فإنى قد عفوت ، ولم يبق من آثارها فى قلبى شىء بالكلية » .

وإذا كان الخديو بإعلان العفو قد أدخل فى روع سامعيه أنه لا يزال ولى الأمر القوى القادر فمن الطبيعى أن يتجه إلى رجاله جنوداً وضباطاً بتوصيته فى هذا المقام بقوله :

« فيلزمكم ألا تشغلوا من الآن فصاعداً بشىء خارج حدود وظيفتكم ، واجتهدوا فى أداء الواجب العسكرى » .

وهو يعنى ألا عودة إلى التدخل فى القضايا العامة على نحو ما حدث من قبل . ولم يفته فى موقفه أن يؤكد للضباط أن رجال الحكومة على مثل شعوره من حيث إخلاصهم للجيش ولصالح البلاد عامة ، وأنهم لا يعملون إلا ما فيه المصلحة .

★ ★ ★

وعندما أجيبت مطالب العرابيين المختلفة أقام البارودى مأدبة كبرى فى ديوان وزارة الحربية بقصر النيل كانت مجالاً كبيراً للخطب السياسية (٢) . وكانت الروح المسيطرة على هذه الخطب هى روح المجاملة والرغبة فى إنهاء الخلاف وخاصة فى خطبة البارودى الذى مجد الخديو والوزراء ورئيسهم ، ووصف العهد الخديو بأنه الذى « تبدل فيه العسر

---

(١) فى ١٢ من فبراير ١٨٨١ .

(٢) تراجع النصوص فى الوقائع المصرية عدد ٢٧ من أبريل عام ١٨٨١ .

باليسر ، والظلم بالعدل والنقم بالنعم (١) ، وتقدمت فيه البلاد تقدماً سريعاً ، وما ذلك إلا من حسن مقاصد هذا الجناب وطهارة سجاياه . »

* * *

أما رياض باشا فكانت كلمته على الرغم من ارتجالها — أقرب إلى حديث العقل منها إلى الدفعات العاطفية المثيرة .

فبعد البداية التقليدية حاول أن ينتهى إلى أن شكر الجناب الخديو واجب يفرضه العقل ، ونتيجة حتمية يوجبها عرض المقدمات .

فهو يبدأ خطبته دافعاً بأذهان سامعيه إلى المقارنة بين الماضى والحاضر لكى يستبينوا بأنفسهم مدى ما وصلوا إليه فيقول للضباط :

« وأنتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم فلا حاجة إلى بسط الكلام فيه ، ومن أراد توضيح الحقيقة فليقارن ما بين الحالة الحاضرة وما قبلها بسنتين يظهر له الفرق الجلى والبون التام » .

وحين تحدث عن استتباب الأمن فى عهد الجناب الخديو لم يكن الحديث بعيداً عن السياسة ، بل كان الحديث عن الأمن حديثاً عن السياسة فى الصميم ، فقد كان العرابيون يتوجسون شراً من غدر الخديو بهم بعد أن يهادنوه ، وكانوا يخشون المصير الذى انتهى إليه « إسماعيل المفتش » وبعض الأحرار الذين نفوا إلى السودان ، ولهذا نرى رياضاً يذكرهم فى كلمته « بتقرير الأمن على الأرواح والأموال وحفظ الحقوق الشرعية وأدائها لأربابها فى عهد الخديو الجليل » .

* * *

أما كلمة « عرابى » فى هذه المناسبة فقد كانت حسب نصها فى مذكراته (٢) كلمة سياسية مركزة ناقشت الأزمة بين الخديو والعرابيين ، وأعطت باسمهم عهداً من الجيش بأن يحافظ على النظام ويحترم القانون . كما أن « عرابى » لم ينس المطالبة فيها بتحقيق الحرية والمساواة بإنشاء مجلس نيابى حيث يقول :

« إننا لا نريد إلا الإصلاح وإقامة العدل على أساس الحرية والإخاء والمساواة ، وذلك

---

(١) كأنما أراد الله أن ينطقه بالحق فأجرى على لسانه الصيغة العربية التى تدل على أن العسر حل محل اليسر ، وأن الظلم حل محل العدل ، وأن النقم حلت محل النعم .

(٢) مذكرات عرابى ج ١ ص ١٣٦ .

لايتم إلا بالانشاء مجلس النواب وإيجاده فعلاً ، ونحن مطيعون للحكومة ، بل نحن الآلة المنفذة لأوامرها العادلة » .

والملاحظة العامة على خطب العرابيين بعد يوم « قصر النيل » إنها كانت تهدف — سواء من جانب الحكومة أو من جانب العرابيين إلى تصفية ما علق بالنفوس منذ ذلك اليوم.

أما موضوعها الأساسى فكان متفقاً ووجهتى النظر المتعارضتين . فالمتحدثون باسم الحكومة يركزون خطبهم حول ضرورة عودة العسكريين إلى شئون الجيش وحدها بعيداً عن شئون السياسة لكى يتيحوا للحكومة فرصة العمل فى هدوء .

أما العرابيون فموضوع خطبهم هو المطالبة برعاية حقوقهم الخاصة ورعاية حقوق الأمة عامة فى داخل الإطار الذى كان يمليه الموقف من إعلان الثقة بالحكومة وبالخديو ، وإعلان الاستعداد للطاعة وللولاء متى تحققت هذه المطالب .

ولقد كان متوقعاً أن تصل محاولات التصفية هذه إلى غايتها فتتحد صفوف الأمة كلها فى مواجهة المطالع الأجنبية الزاحفة ، لو خلصت النيات وصحت العزائم . ولكن يبدو أن الجهات التى كان يسوءها الاتفاق قد نجحت فى مساعيها. وسرعان ما عادت إلى الموقف أزمة الثقة ، وتطورت الأحداث إلى مالم يكن يرجوه لها المخلصون ، فاضطر « البارودى » وزير العرابيين وموضع ثقتهم إلى الاستقالة ، وعين مكانه « داود باشا يكن » صهر الخديو وزيراً للحربية واستقبل العرابيون هذا التطور بانزعاج شديد ، وبدأوا يستعدون لما يمكن أن تلده الأيام ، فأكثروا من الاتصالات والاجتماعات التى تستهدف تعبئة الشعور ضد تصرفات الحكومة ، وضمان وحدة الصف داخل وحدات الجيش (١).

* * *

يوم عابدين :

وبعد ما استوثق العرابيون من موقفهم فى الجيش واطمأنوا إلى مظاهرة الأمة لهم أجمعوا أمرهم على القيام بمظاهرة مسلحة فى ميدان عابدين (٢) ، وفيها عرضوا على الخديو مطالبهم التى تتلخص كما قال عرابى : فى عزل رياض باشا ، وإبلاغ عدد الجيش إلى الحد المقرر فى الفرمانات السلطانية . وفى يوم عابدين قال عرابى كلمته المشهورة « لسنا عبيداً لأحد ولا نورث بعد اليوم » .

---

(١) مذكرات عرابى ص ٢٢٩ ، مصر للمصريين ج ٤ ص ٦٠ بنفس المعنى .

(٢) تمت فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ — الرافعى — الثورة العرابية ص ١٢٣

وقد أسفر هذا اليوم المشهود فى تاريخ الحركة الوطنية عن استقالة « رياض » وتشكيل وزارة « شريف » الثالثة التى كانت بحق وزارة الأمة والتى كانت موضع الثقة من العسكريين ، ومن المدنيين ، وكان رئيسها رجل الساعة كما يقولون فقد استطاع بعد كل ما حدث أن يستعيد هيبة الحكومة ، وأن يبسط سيطرتها مرة أخرى على زمام الأمور لا بالضغط ولكن بما لشخصه من تقدير ومكانة .

وارتفع صوت الخطابة السياسية يساير هذه الأحداث ويعكس أصداءها فى مختلف الجهات وعلى كل النفوس . فبعد يومين من تشكيل وزارته سعى إليه عرابى على رأس وفد من الضباط يهنئونه ويشكرونه على قبول الوزارة فى هذه الظروف العصيبة ، ويعاهده على لزوم الجيش للطاعة قائلاً :

« ... وإننا نعلم واجباتنا والفروض التى تحتمها علينا وظائفنا العسكرية ، وأعظمها حفظ هذه البلاد ومن فيها ، ولذلك فإننا نقرر بأننا القوة المنفذة لما يصدر من الأوامر التى تكون إن شاء الله فى خير وتقضى بإصلاح شئون البلاد (١) » .

ومعنى هذا الكلام فى لغة السياسة أنه تعهد من عرابى لرئيس الوزراء بلزوم الجيش للطاعة فى حدود المهمة المفروضة له بعيداً عن كل شأن آخر . خاصة إذا علمنا أن « شريف » لم يقبل تشكيل الوزارة إلا بعد أن قدم له الأعيان وقادة الجيش تعهداً بذلك . فكلمة عرابى هنا بمثابة التأكيد للاتفاق السياسى الذى سبق التعاهد عليه .

وعلى نفس الدرب سار شريف فى كلمته .

فهو لم يدع الأحداث تمضى دون أن يذكر قادة الجيش بخطر خروجهم على طاعة الحكومة ونيلهم من هيبتها فى كل حين ، واقتضته حكمة السياسى أن يذكرهم بأنه غير راغب فى المنصب ، وأنه لم يقبله إلا اعتماداً على طاعة الجيش له :

« فى علمكم ما قاله الأقدمون .. آفة الرياسة ضعف السياسة ، ولا حكومة إلا بقوة ، ولا قوة إلا بانقياد الجند . فترددى فى قبول الرئاسة ما كان إلا تجافياً عن تأسيس حكومة غير قوية تخيب بها الآمال ، ويزيد معها الإشكال ، فأكون عرضة للملامة من إخوانى فى الوطن ومن الأجانب (٢) » ؟



(١) الوقائع المصرية عدد سبتمبر ١٨٨١

(٢) المصدر السابق بتصرف .

وفى ٨ من أكتوبر ١٨٨١ تأهب عرابى للسفر « بآلايه » إلى رأس الوادى فكانت فرصة سفره مجالاً أضخم للتظاهر الحماسى والاحتفال بالرجل الذى أصبح أمام الشعب فى موقف البطل والزعيم .

ومرة أخرى أصبحت محطة العاصمة ميداناً للخطابة السياسية القوية التى بدأها عرابى فلخص الدوافع الحقيقية وراء ماحدث « يوم عابدين » وأنها كانت لتحقيق الرغبة فى الحرية والعدل والخلاص من الاستبداد والفساد ، كما ضمنها أكثر من لفتة بارعة مزج فيها بين تمجيد الخديو وبين الدعوة إلى الاتحاد والالتفاف حول راية الوطن ، ثم دعا فيها أمم الشرق المجاورة إلى أن تفعل مثل ما فعل العرابيون من أجل حقوقها وحرياتها . وانتهى ليؤكد أن سفره وزملاءه مقرون بالرضى والطاعة الخالصة وحذر سامعيه من الأراجيف والشائعات (١) .

ومن بعده وقف النديم :

فسار على نفس الدرب وردد نفس المعانى (٢) ، وتعتبر خطبته فى هذا اليوم إحدى الوثائق السياسية والأدبية القيمة التى تصور أحوال البلاد قبل انتفاضة العرابيين ، ينتشر فيها الإرهاب والضغط وتهدر فيها الحريات ، ويستعلى فيها الغرباء ويستأثرون بالخير كله ، بينما يعيش أهل البلاد فيها كالغرباء ، حتى نهض الأحرار من أبنائها فخلصوها من المحنة وردوا بعض حقوقها إليها كما أشار إلى الأطماع الخارجية المتربصة التى تحتاج فى مواجهتها إلى الصبر والحكمة واجتماع الكلمة . ولأهمية هذه الخطبة — التى تعتبر نموذجاً لخطب العرابيين — نقف أمامها لحظات .

شعر النديم — بعد نجاح العرابيين وإجابة مطالبهم — بمثل ما يشعر به وزير الدعاية فى ثورة منتصرة ومن طبيعة الانتصار النشوة الغامرة التى تدع « النديم » من فرط سروره فى هذا اليوم لا يكاد يدرى « أهو فى ساحات باريس يحتفل بخطيبها العظيم ؟ أم فى لوندره يشهد مداولات مجلس الشورى » بل إنه لفرط إعجابه بالثوار المنتصرين لا يكاد يدرى « أهم أسود غنمت فريستها ؟ أم نجوم حول بدر مكانهم فى السماء وهو يتصورهم على ظهر البسيطة ؟ » ولكن . فيم الحيرة وبين يديه « العصبة الوطنية التى جاءت

---

(١) مذكرات عرابى ص ٩٣–٩٤ .

(٢) المصدر السابق .

لتودع الجيوش المصرية وقائدها مطلع شمس الحرية أحمد بك عرابى (١) .

وإنها – كما قلت – مشاعر وزير الدعاية ، ومسئوليته أن يبسط ما يحمله القادة المثقلون بالأعباء ، ولذا رأيناه يبسط قصة الماضى فى أدوار ثلاثة :

أولها : طغيان سافر لا يبالى بالشعوب ويصب على رأسه العذاب علانية ، فهناك المشنوق والمصلوب والمذبوح ، والموضوع على الخازوق .... الخ »

وثانيها : طغيان قاومه الشعب فألقى على وجهه قناعاً من الخيانة والغدر « فشهدنا جنازة المسموم والمخنوق ، وودعنا المنفى ... » .

ثم توصلنا إلى الدور الثالث فرأينا مساعدة الأجنبى ، وإكرامه وتسليمه أزمة الكثير من أشغالنا » .

وجدير بالتسجيل أن أسلوب الخطبة ومعانيها يخفيان وراءهما إلى جوار العقلية السياسية الناضجة والفكر المستنير الواعى ، شخصية قوية متماسكة ، استطاعت أن تهدهد من زهو الرجال الذين استطاعوا بالأمس أن يزلزلوا أكبر رأس فى البلاد .

★ ★ ★

ومرة ثانية سمع صوت الخطابة السياسية حين جاء وفد الأعيان والوجهاء إلى شريف باشا للتهنئة وتأكيد الثقة فقال كبيرهم (٢) .

« إنى أعرض على مسامع دولتكم أن هؤلاء الوجهاء والأعيان والنبهاء قد تمثلوا بين أيدى مراحمكم ليظهروا ما عندهم من الفرح والسرور حيث تفضلتم بقبول مسند الرياسة ، وليعرضوا أنهم متكفلون بالجيوش المصرية الذين هم فى الحقيقة أبناؤهم وإخوانهم »

والترجمة السياسية لمضمون النص كله أنه ضمان بلزوم الجيش للطاعة يقدمه ممثلو الأمة من الأعيان وذوى المكانة لرئيس الوزراء يؤكدون به العهد أو الاتفاق الذى أقره من قبل قادة الجيش .

كما أنه تسجيل للتضامن وللوحدة السياسية بين الجيش والشعب فى مواجهة الأحداث . وفى تأييد مطالب الأمة فى العدل والشورى والحرية . ولهذا كان رد شريف باشا بمثابة التصريح السياسى بنزول الحكومة عند إرادة الأمة ومشاركتها الرغبة والعمل على تحقيقها بالفعل فى قوله :

---

(١) هذه المقتطفات وما يليها من النص الكامل عن كتاب « عبد الله نديم ومذكراته السياسية » دكتور خلف الله ص ١٠٢ – ١٠٨ .

(٢) محمد باشا سلطان – الوقائع عدد ١٩ من سبتمبر ١٨٨١ بتصرف .

« .. إن تشكيل مجلس النواب هو الوسيلة الوحيدة لما نقصده من الإصلاح والسبب القوى لما تبتغونه من نجاح » (١) .

ومضت الخطابة السياسية تواكب أحداث الثورة العرابية فلم تمض أيام على وزارة شريف حتى استقر الرأى على نقل « آلاى » عبد العال حلمى أحد زعماء الثورة إلى دمياط ، ونقل « آلاى » أحمد عرابى زعيمها إلى « رأس الوادى » .

وكان سفرهما الذى تم فى أكتوبر ١٨٨١ مظاهرة وطنية مستمرة نشطت فيها الخطابة السياسية نشاطاً قوياً وظهرت شخصيات كثيرين من الخطباء إلى جانب شخصية الرجل الذى أصبح فيما بعد خطيب الثورة العرابية وأعنى به السيد — عبد الله نديم .

فحين وصل آلاى عبد العال حلمى إلى محطة القاهرة حيث كان أحد الأعيان ينثر الورود والرياحين على الجند ويسقى الناس شراباً سكرياً (٢) نهض النديم فحيا رجال الجيش وأشاد بشجاعتهم ودعا الأمة كلها إلى الاتحاد والتماسك والدعوة إلى الاتحاد كانت المطلب الذى تفرضه السياسة فى هذه الأوقات .

ونهض من بعده عبد العال حلمى قائد « الآلاى » فأعلن عزم الجيش واستعداده الدائم للبذل والتضحية من أجل مصالح الوطن وتحقيق أهداف الأمة (٣) . ولم يكن عبد العال محتاجاً إلى الإعلان فى كلمته عن أن أهداف الأمة ومصالح الوطن هى أهداف ومصالح سياسية فهذا ما كانت البلد تعرفه وتحسه وتعيش فى أحداثه .

ومرة أخرى خطب النديم فى دمياط قائلاً عن رجال الجيش « إنهم هم الذين أنقذوا البلاد » هكذا كان الحال كما صوره النديم فكيف واجهناه . ؟

قال النديم : « لقد سعينا سراً لتنظيم الصفوف وتأليف القلوب حتى دنت الساعة فأعربت الجيوش عن ضمائرنا ، ونادى الجند المظفر بحق هذه الأمة » .

وإلى هنا كان يمكن للخطبة أن تنتهى لو أن المتحدث رجل غير النديم ، ولكنه وهو الداعية المسئول يرى من واجبه أن يقول ويعيد ليؤكد فى الأذهان كل ما يراد له التأكيد ، فنراه يعيد رسم الصورة نفسها بألوان أخرى أكثر تشويقاً وأدعى للثبوت .

---

(١) الوقائع : عدد ١٩ من سبتمبر ١٨٨١ بتصرف .
(٢) مذكرات عرابى : ج ١ ص ٩١ نشر دار الهلال .
(٣) نفس المصدر .

فموقف الشعب فى فترات الظلام أشبه بمن كان فى بئر وليس له سلم وأدوار الكفاح تشبه محاولات الساقط فى البئر أن يخرج منه :

أما صورة الموقف بعد « يوم عابدين » فمثلها كالشجرة على حافة البئر تختفى أغصانها القوية تحت ستار واه من نسج العنكبوت . وعلى من يريد الخلاص من البئر أن يمد يده إلى الأغصان الحقيقية . وليست الأغصان الحقيقية عنده سوى « وحدة الاتحاد الوطنى » والجد فى طريق التقدم ، ومنع التهور ، وتنحية الشهوات البهيمية والأغراض الذاتية ، ومعرفة الحقوق ، والواجبات .

وخطبة النديم هذه صورة صادقة من إحساسه بمسئولياته بين رجال الثورة ، ونموذج لتراثه العريض فى التصوير والتعبير والقدرة على جذب الانتباه والخبرة بنفسيات السامعين.

الدستور والخطابة السياسية

أولاً : فى المجال الرسمى :

كان إنشاء دستور تحكم البلاد على أساسه أملاً كبيراً من آمال الشعب منذ استيقظ وعيه القومى وأحس معه بأخطار السلطة المطلقة ينفرد بها شخص كائنة ما كانت منزلته الشعبية ، وكائناً ما كان رصيده من الإيمان بحق مواطنيه ..

فكيف إذا أكدت الأحداث أن المنفردين بالسلطان من أسرة محمد على لم يكونوا من الديمقراطية على شىء ، وأن من يتظاهر منهم باحترام حق الشعب قبل أن تقبض على الزمام يداه ، لا يلبث حين يحكم أن يستحيل طاغية يتنكر فى سهولة لكل ما ادعاه فى ماضيه . ومن ثم كان تقرير إنشاء الدستور حدثاً اهتزت له البلاد ونطقت له الألسن الصامتة .

★ ★ ★

وكان أول عهد البلاد بالدستور ذلك المشروع الذى أعده شريف باشا فى وزارته الأولى أواخر عهد إسماعيل سنة ١٨٧٩ ، ولم يتح له أن يرى النور لما وقع من التدخل الأجنبى الذى انتهى كما هو معروف بخلع إسماعيل وطى صحيفة الدستور .

وقد شاء القدر أن يتحقق الدستور للبلاد على يدى نفس الرجل الذى حرم من قبل من إنفاذه وأعنى به محمد شريف .

فى عصر الثانى من يناير ١٨٨٢ جاء هذا الرجل إلى مجلس النواب (١) يصحبه الوزراء ليعرضوا على المجلس مشروع الدستور الجديد . وأتيح للخطابة السياسية أن تسجل من حياة البلاد هذه الفترة التاريخية الهامة بمجموعة من الخطب التى بدأها شريف

(١) الثورة العرابية — الرافعى ١٨٨

باشا بخطبة تقديم الدستور (١) وكان فيها سياسياً قديراً واضح المبادئ قوى المنطق والعبارة نفاذاً إلى أعماق الشعور والتفكير .

وقد برع الرجل فى استهلال خطبته حينما اعتبر تقديم الدستور إلى الشعب ممثلاً فى نوابه — بمثابة النهاية لعصر مضى بكل ما فيه » وبداية عصر جديد يعود على القطر بالتقدم والنجاح » .

ومن هذا المنطلق بدأ يحكى قصة الدستور معلناً عن إيمانه بأن توسيع نطاق الشورى ومشاركة الشعب للحاكم فى مسئولياته وفى سلطانه » إنما هو الطريق الوحيد لخلاص البلاد مما هى فيه » . وما كاد يصل بقصة الدستور إلى نهايتها التى يهنأ عليها القطر حتى قادته بديهة السياسى الحصيف إلى الالتفات لرجل ربما وقر فى الأذهان أن الدستور لا يرضيه وهو « الخديو » فإذا هو يدفع هذا الخاطر ويؤكد أن اكتمال قصة الدستور لم يكن إلا نتيجة مقاصد الحضرة الخديوية » .

وبجانب شخصية « السياسى » التى تتضح فى خطب « شريف » يبرز جانب « الوطنى » الذى يوقظ فى مشاعر النواب ثقتهم بأنفسهم وأهليتهم لتحمل ما يواجهون من تبعات . ويعتمد على هذه الثقة فى تمليكهم سلطات واسعة ربما كان تمليكهم إياها قفزة لايتطلبها الواقع ولكنه من جانبه « الوطنى » يريد أن يكسب — ما استطاع — سلطات لنواب الشعب ، ويدربهم على ممارستها وصيانتها، فيقول :

« وما دامت الحكومة واثقة من كفاءة النواب فقد أعطت لهم الحرية التامة فى إبداء الرأى ، وحق المراقبة على السلطة التنفيذية كلها ، ونظر الميزانية وإبداء الرأى فيها حتى لا يتم وضع أى ضريبة ولا نشر قانون أو لائحة مالم يكن بتصديقهم وإقرارهم ».

وما كاد يمضى أسبوع على هذا اليوم التاريخى حتى فوجئت مصر بمذكرة « الدولتين » تحتجان صراحة على الأمر الصادر باجتماع مجلس النواب وتغريان الخديو إغراء صريحاً بأن يسترد سلطته المطلقة ، وينقض على النظام الدستورى الجديد .

---

(١) يراجع النص الكامل لها فىالوقائع عدد ٤من يناير ١٨٨٢ ، الرافعى—الثورة العرابية ص٨٩—١٩٠ .

(٢) مذكرة ٧منيناير ١٨٨٢ — الكتاب الأصفر وثيقة رقم ٢٦ عنالرافعى -- الثورة ص ١٩٢—١٩٣ .

وأثارت المذكرة سخط الرأى العام فاتفقت الحكومة والشعب على رفضها (١) ولكن ذلك لم يثن الدولتين اللتين أرادتا خلق جو متوتر مضطرب يتيح الفرصة للتدخل وتنفيذ المخطط المرسوم .

ولذا قدم قنصلا الدولتين إلى شريف باشا مذكرة أخرى أصرح تدخلاً وأكثر إثارة مطالبين فيها الحد من سلطة المجلس ووصفاه فى قحة « بأنه عديم الخبرة، وبأن ميوله عدائية نحو العنصر الأوربى » .

وكان لشريف باشا رأى فى مواجهة الأزمة لم تتقبله مشاعر الرأى العام الثائرة . فاستقال شريف ، وجاءت وزارة البارودى التى استصدرت مرسوم إعلان الدستور فى ٧ من فبراير ١٨٨٢ .

وفى اليوم التالى تقدم البارودى إلى النواب ليقدم لهم الدستور ووصفت خطبته فى هذا اليوم « بأنها من أبلغ ما كتب البارودى ، ومن أقوى الخطب السياسية . بل إنها قطعة من الأدب السياسى لما تتضمنه من المعانى السياسية والآراء السديدة ، والنصائح الحكيمة والأسلوب البليغ (٢) » .

وبالنسبة للبارودى نجد أن هذه هى المرة الثانية التى يدوى فيها صوته إثر انتصار من الانتصارات التى حصل عليها العرابيون وكانت الأولى حين أجيبت مطالبهم وأصبح هو الوزير الممثل لهم فى الحكومة ورأيناه ليلتها يعلن عن سروره وابتهاجه ويعد ليلته تلك « ليلة أنس ومحبة وائتلاف » (٣) على حد تعبيره .

أما اليوم فهو رئيس الوزراء وصاحب المنصب الذى طمح أن يناله ، يقف ليواجه نواب الشعب فى أبهى مواقفه ، وبين يديه الكتاب الذى كأنه روح الشعب يردها البارودى إليه بعد طول حرمانه منها وهو .. الدستور « فتجئ افتتاحية الخطبة معبرة عما فى أعماقه من مشاعر مسجلة إحساسه بأنه « سعيد الطالع ومسرور كل السرور » (٤)

وبعد الافتتاحية يسير البارودى فى خطبته على درب من سبقوه . فهذا الدستور

---

(١) رسالة سفنكس إلى جامبتا فى ١٠ من يناير ١٨٨٢ – الكتاب الأصفر عن الرافعى – الثورة العرابية ص ١٩٤٣ .

(٢) الرافعى – الثورة العرابية ص ٢٢٠

(٣) الوقائع المصرية عدد ٢٧ من أبريل سنة ١٨٨١ .

(٤) المصدر السابق .

الذى حققته حركة الجند بعد يوم عابدين إنما هو « نعمة من الله سيقت عند الحاجة إليها » ويزيد فى دواعى الاعتزاز بها أنها لم تنتج عن ثورة دامية فيها « خروج على شرائع الحكمة ونواميس السكينة » .

أما يوم « عابدين » والجرح الذى تركه فى هيبة الخديو فيلقى من البارودى نفس التفاتات سابقيه إلى الرجل الجريح نفسه يحاول أن يعيد اعتباره إليه فى قوله :

« فإن شيئاً من ثمرات يوم عابدين لم يكن ليتحقق لولا عناية جنابه الأعظم الذى يجب علينا أن نقوم لحضرته بفروض الشكر وواجبات الثناء » .

وبعدها تحدث إلى النواب عن ضرورة « خلوص النية » فى الحفاظ على هذا الدستور وتشرب روحه بحيث تكون « جميع الأفكار والأعمال محصورة فى دوائرها » . كما أشار إلى اعتماده على كفاية النواب ، وأهليتهم لتخطى كل ما يحيط بالبلاد من صعوبات .

ثم مضى يشرح قصة الدستور راجياً أن تكون نهايتها تحقيق مقاصد البلاد كلها « والوفاء بما ارتبطت به من تعهدات أمام الدول الأجنبية .. التى تحب أن ترانا حافظين لحقوقنا ، قائمين بعهودنا » .

وفى ختام خطبته يلتفت إلى معنى لم يسبق إليه وهو دعوة النواب إلى الحذر من التعصب « المشرقى » فلا يجعلون له دخلاً فى الأعمال الوطنية » (١) .

والملاحظ أن البارودى سبق إلى أكثر ما أورده فى خطبته . ولسنا بهذا نعيبه فمثل هذه المعانى كانت شيئاً تفرضه الظروف والأحداث المحيطة بحيث أصبحت كالملامح العامة التى لا يستطيع مصور لحياة البلاد أن يغفلها .

وللبارودى هنا تميزه بالدفعات الخطابية المتصلة بين البداية والنهاية التى تميز أسلوبه بالجيشان إذا قيس مثلاً بما فى أسلوب شريف باشا من سكينة وهدوء .

★ ★ ★

وقبل أن أستكمل الحديث عما أحدثه الظفر بالدستور من نشاط الخطابة السياسية فى الميدان الحر .. أحب أن أقف قليلاً عند هذه الخطابة « الرسمية » .

• وأول ما تكشف عنه النصوص التى وصل استقرائى إليها هو أنها فى مجموعها كانت صورة معبرة عن المشكلات التى كانت تعيش فيها البلاد إذ ذاك وفى قمتها

---

(١) كل الفقرات المختارة عن الوقائع عدد ٢٧ من أبريل ١٨٨١ .

مشكلة حكم البلاد بلا دستور . ثم اعتبار صدور الدستور انتصاراً ونقطة تحول هامة فى حياة الأمة ؛

* وثانياً : حرص الخطباء جميعاً على استعادة هيبة الحكومة عامة وهيبة « الخديو » خاصة بعد الذى أصابها من يومى « قصر النيل » و « عابدين » وذلك بالإعلان المتكرر فى كل الخطب من أن تحقيق المطالب الشعبية إنما تم برغبة الخديو وإرادته وأن « جنابه » كان سيحققها خرج العرابيون أم لم يخرجوا .

* ثالثاً : حرص الخطباء جميعاً على الدعوة لتأكيد وحدة الأمة كلها حكومة وشعباً فى العمل لتحقيق الأهداف العامة من ناحية ومواجهة الأسماع الخارجية الزاحفة من ناحية ثانية .

* رابعاً : إعلان الخطباء جميعاً عن موقف الحكومة الجديدة التى ولدتها الأحداث العرابية تجاه الالتزامات والتعهدات مع الدول الأجنبية من أنه موقف الالتزام والوفاء بكل هذه التعهدات .

كما يلحق بهذا حرص هذه الخطب الرسمية على تأكيد تبعية مصر وارتباطها الدائم بالباب العالى أو الذات السلطانية على حد تعبيرهم . (١)

* خامساً : اشتراك الخطباء جميعاً فى الدعوة إلى بدء صفحة جديدة للعمل أساسها خلوص النيات فى مباشرة الأعمال ، والبعد عن الأغراض وعن المطامع الشخصية وإيثار صالح الوطن فى كل عمل . وبتأكيد هذه المعانى ؛

تكون الخطابة السياسية الرسمية لهذه الحقبة قد دلت على اتصالها المباشر بالأحداث وانعكاس أصدائها فيها ، كما يدل ورود هذه المعانى أو أغلبها فى معظم الخطب على ما كان يفرضه الموقف الرسمى على الخطيب من الدوران فى فلك من الأفكار لايستطيع أن يخرج عليه .

أما أسلوبها :

فكان إلى حد كبير صورة معبرة عن شخصيات أصحابه وعن ارتباطاتهم السياسية داخل الموقف العام فعلى الرغم مما كان يفرضه الموقف الرسمى العام من إطار معين للخطبة نستطيع من خلال النصوص أن نرى شخصية كل خطيب وملامح المعسكر الذى هو منه .

(١) تراجع خطبتا توفيق ، محمد سلطان باشا فى الرافعى – الثورة العرابية ص ١٨١–١٨٢

فخطب الخديوين تحدد موقفهم السياسي والنفسي من الموضوع الذى يتحدثون فيه ، ولعل خطبة (١) رياض باشا التى ألقاها فى أول اجتماع للتصفية بعد يوم عابدين أوضح نموذج لذلك .

أما خطب العرابيين فتعكس نفس اتجاههم وتدل على مركز من الأحداث ، وفى خطبتى عرابى والبارودى (٢) ما يدل على ذلك .

وإذا تتبعنا مدى تصوير هذه لروح العصر ألفيناه فى البساطة الواضحة فى التفكير والتعبير على السواء ، وفى التزام البدء والختام بالحمد والثناء والالتجاء إلى الله فى طلب التوفيق .

كما نجد فى أسلوبها بعض الرواسب الثقافية من العصور الخالية كالحرص على ذكر اسم الحاكم مشفوعاً دائماً أو مسبوقاً أحياناً بأكثر من لقب من ألقاب التفخيم والتعظيم .

وكذا حرص بعض الخطباء على التزام لون أو أكثر من ألوان المحسنات ، مع ذكر بعض الألفاظ التركية ، أو العربية فى وصفها غير الصحيح (٣) .

ومع هذا فقد كان الطابع العام للخطبة فى أسلوبه يحمل روح عصره التى تحاول التخلص من تعقيد الماضى وغموضه ، ومن تفاهة المعانى ، وسيطرة الصناعة اللفظية .

★ ★ ★

وإذا بحثنا عن الجانب النفسى فى هذه الخطب ألفيناه مرعيا فيها جميعاً . فإن حرص الخطباء على مدح « الخديو » وتمجيده بعد ما حدث فى يومى « عابدين وقصر النيل » وحرصهم كذلك على الإيحاء الدائم للنواب بأنهم أكفاء وأهل لتحمل التبعات وللنظر والتقرير وصواب الحكم كل هذا يكشف عن توفيق الخطباء فى رعاية هذا الجانب النفسى الذى كانت الظروف تفرض رعايته . حتى يمكن استلال الأحقاد وتصفية النفوس من ناحية . وحتى يمكن بعد هذا إشعار النواب بمسئولياتهم أو بما لهم من سلطات تجاه القضايا العامة من ناحية فيكونون فى ذلك كله أكثر شجاعة واتزاناً .

---

(١) الوقائع – عدد ٢٧ من أبريل ١٨٨١ .

(٢) الوقائع – عدد ٢٧ من مارس ١٨٨٢

(٣) تراجع خطبتا الخديو توفيق ومحمد باشا سلطان يوم افتتاح المجلس . الوقائع عدد ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨١ ، ٢٧ من ديسمبر سنة ١٨٨١

وإذا كان الصدى الذى أحدثه إعلان الدستور على نحو ما رأينا فى المجال الرسمى للخطابة ، فصداه فى المجال الشعبى الحر كان أعمق رنيناً وأكثر إثارة .

فمنذ صدور الدستور توالت الاحتفالات الشعبية بإعلانه سواء منها ما كانت تنظمه جمعيات وهيئات ، أو ما يقوم به ممثلون لمجلس النواب ، أو ما يقوم به أفراد من غير هذين . وفى هذه الاحتفالات جميعاً كانت الخطابة السياسية عماد التعبير عن مشاعر الشعب تجاه الحدث العظيم . وستكشف لنا النظرة الشاملة إلى ما أقيم من احتفالات وما ألقى من خطب عن ملاحظات جديرة بالاعتبار .

• وأول ما يلاحظ فى هذه الاحتفالات أنها كانت تعبيراً واضحاً عن إحساس ممثلى الشعب بمدى أهمية النصر الذى ظفروا به حين اضطروا الخديو إلى إعلان الدستور ، وضرورة العمل من جانبهم لاستدامة المحافظة عليه .

والملاحظة الثانية : أن إعلان الدستور كان فى نظر ممثلى الشعب بمثابة دقات الأجراس لنشاط شامل ينبغى أن يقوم المواطنون به حتى يثبتوا أنهم فعلاً أهل لحكم أنفسهم وحتى تأخذ أمتهم مكانها بين الأمم . وقد اشترك الخطباء جميعاً فى البحث عن أسرع الطرق توصيلاً لهذه الغاية ، وانعكست آثار هذا الخلاف على أسلوب الخطابة فى الاحتفال الواحد مما يجدر بنا أن نقف أمامه .

فى الاحتفال الذى أقامته « جمعية المقاصد الخيرية » وقف أحد الخطباء (١) محاولاً أن « يفلسف » الموقف السياسى ، وأن يرد أحداثه كلها إلى ما يشبه أن يكون سنة من سنن الحياة التى لا يمكن تخلفها فقال : « إن هذا الانتقال من الأمور الطبيعية التى لا تخلف لحكمها كما جرت به سنة الله تعالى فى هذا الوجود .

« وإن غاية السقوط أول الارتفاع ، وغاية ارتفاع الأمم أول سقوطها » .

ولعله بهذه النظرة يحاول أن يؤكد فى الأذهان أن ما حدث كان ضرورة يفرضها سنة التطور ويحاول أن يؤكد قبل هذا أن عجلة الزمن التى مضت بالأمة فى يوم إلى الأمام لا يستطيع أعداء النهضة — لو حاولوا — أن يعيدها إلى الوراء . لأن قوة الحياة

---

(١) إبراهيم اللقانى يوم ١٣ من فبراير ١٨٨٢ (الوقائع — ١٥ من فبراير ١٨٨٢) .

الجديدة تقضى حتى على مايريدون « ولا تدع لأراجيفهم سبيلاً للتسلط على أذهان النبهاء » .

★ ★ ★

وقام من بعده خطيب (١) شاب من الطلبة فحث على الاجتهاد فى تحصيل المعارف حتى يكون أبناء الوطن عوناً له على استمرار التقدم والرقى .

كما اتجه إلى الأغنياء أن يعملوا على إنشاء « بنك » أهلى يستغنى به الفلاحون عن التعرض لأثقال الديون والفوائد الفادحة حين تضطرهم الظروف إلى التعامل مع المرابيين الأجانب .

وقام من بعده النديم — للمرة الثالثة — فأطال بلا إملال (٢) وتحدث عن التربية الابتدائية والوجوه اللائقة بها .. ثم أخلى مكانه للأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده .

وكانت كلمة الأستاذ الأمام عن « الحكومة القانونية » فعرفها بأنها التى يكون فيها نواب عن الأمة يساعدون الحكومة فى إجراءاتها ، وتنظيم شئون المحكومين بها على وجه عادل حسبما يوافق المصلحة العامة وعادات البلاد :

ومن مفهوم هذا التعريف بدأ الأستاذ الإمام فى تفريع الضرورات التى يجب توفرها لكى تصبح الحكومة تامة القانونية .

« فوجود نواب من الشعب يشاركون الحاكم مسئولياته يفرض بالضرورة نشر التعليم فى الأمة حتى يكثر فيها الصالحون لهذه المشاركة . ولذا على الحكومة القانونية « أن تضمن تعميم التعليم ونشر المعارف الموصلة إلى تلك المرتبة » :

ولن يكون التعليم وحده نافعاً فى خلق أولئك النواب الصالحين ما لم يستند العلم إلى قاعدة متينة من الأخلاق ، وما لم يكن المتعلمون حائزين لوصف « الفضيلة و الشرف » بحيث تكون صفاتهم الخلقية دافعة لكل منهم إلى « أن يفكر فى مصلحة بلاده ووسائل تقدمها كما يفكر فى نفسه » :

وإذا توافر العلم ووجدت الأخلاق من غير إطلاق لحرية الاجتماع والمطابع والأفكار

---

(١) مصطفى أفندى ماهر : الرافعى — الثورة العرابية ص ٢٢٨ . ولم أجد نص الاسم فى الوقائع .

(٢) الوقائع عدد ١٥ من فبراير ١٨٨٢

والأعمال والأقوال فى ظل قانون عادل يرسم الحدود بين الواجبات ، فهذا لاخير فيه ولا جدوى له .

وتعرض الأستاذ الأمام فى نهاية الخطبة لواجب الحكومة القانونية فى تشجيع الكفاءات ، وتقدير العاملين حفزاً لهممهم وإذكاء لقرائحهم فقال :

« ويلزم أن يكون من أصول هذه الحكومة تقرير أمر المكافأة لكل من أتى بأمر غريب وصنع بديع حتى يكون هذا دافعاً للتقوى على التفكير ، والتدبر فى الوصول إلى ما يستحقون عليه المكافأة والامتياز » .

ولست بحاجة إلى أن أطوف بالقارئ خلال الاحتفالات المتكررة التى شهدها المجال الشعبى فى هذه المناسبة . وتكفينا هذه الصورة من احتفال «جمعية المقاصد» لأن ما استخلصناه منها يكاد يتكرر بنفس ملامحه وسماته فى كل ما أقيم بعد من احتفالات بحيث يكون فى وسعنا أن نرى ملامح الخطابة السياسية الشعبية فى موضوع الدستور من ملامح وسمات خطباء «جمعية المقاصد» .

ودافعنا إلى هذا بسيط وواضح وهو أن الخطباء الذين تحدثوا فى احتفال هذه الجمعية ، هم أنفسهم الذين لا يكاد يخلو منهم حفل ، ولا يكاد يرتفع لغيرهم صوت .

وما دام الموضوع واحداً ، وأشخاص الخطباء لا تكاد تتغير فيكفينا النموذج الذى عرضناه ولا حاجة بنا للبحث عن غيره .

وأهم ما نلحظه بالنسبة للخطابة الحرة فى هذه الفترة أنها كانت تضم مجموعة من الخطباء يمكن تصنيفها إلى رواد كبار يقودون الرأى العام ويؤثرون فى توجيهه وعلى رأس هؤلاء كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والسيد عبد الله نديم .

وحول الرواد كان الصنف الثانى من الحواريين والتلاميذ الذين وقفنا من قبل على أسماء بعضهم .

ولقد كان ممكناً أن تتشكل من هذا اللفيف القوى «مدارس» خطابية تنمو ، وتزدهر غراسها ، ويكون لها فى تاريخ الخطابة السياسية ما تعتز به ، ولكن أحداث الثورة العرابية قد مضت بعد انفضاض الدورة البرلمانية على غير ما كان يحبه المخلصون فاشتد الخلاف بين الخديو والعرابيين ، واشتد الضغط والتدخل الأجنبى الذى انتهى بضرب الإسكندرية على ما هو معروف وكان بداية المعارك التى انتهت بهزيمة التل الكبير فى ١٨ من سبتمبر ١٨٨٢ .

وبهزيمة العرابيين صمت فى بلدنا كل صوت حر ، ودخل الأدب عامة والخطابة السياسية خاصة إلى أعماق سجن كثيف مظلم طوال السنوات الأولى من عمر الاحتلال .

بين الخطابتين : السياسية والحرة ،

وجدير بنا أن نسجل هنا اختلاف الخطابة الشعبية عن مثيلاتها «الرسمية» فى حكاية الصدى الذى أحدثه حصول الأمة على الدستور.

فمن حيث الموضوع نرى الخطابة «الرسمية» تصف الدستور بأنه أحد أفضال «ولى النعم» الذى «لولا خلوص نواياه وسلامة طواياه» على حد تعبيرهم لما تحقق من الإصلاحات شىء .

ثم إن الدستور فى رأى الدوائر الرسمية وفى رأى «الرسميين» من الخطباء ليس إلا قانوناً يحدد علاقة الشعب بالحكومة فى نطاق التزاماتها تجاه الباب العالى ، وتجاه الدول الأوربية .

أما الجانب الحر الذى رأينا صورته فى حفل «جمعية المقاصد» فلا ينظر إلى الدستور باعتباره أحد «الأفضال الخديوية» ، وإنما يراه ثمرة وكسباً حصل عليهما الشعب بعد نضال وصبر على الآلام والمظالم ، وهى الرؤية المتسقة مع منطق التحول الشعبى من السلبية والانطواء إلى الإيجابية والمشاركة .

وإذا كان «الرسميون» منطقيين مع موقفهم حين أردفوا الحديث عن الدستور بطلب طاعة ولى الأمر والولاء له ، فقد كان الشعبيون كذلك منطقيين فى موقفهم حين أخذوا بعد الدستور فى البحث عن الوسائل التى يصان بها هذا الدستور وتنمو بها الاستفادة به .

أما عن الأسلوب :

فقد سبقت الإشارة إلى أن أسلوب الخطابة «الرسمية» كان «رسمياً» مثلها واعى العقل والتفكير حذراً من الدفعات الخطابية والانفعال العاطفى ، تختار الكلمات فيه بمنتهى العناية ، وتوزع بين فقرات الخطب لتحقق الهدف منها بدقة وهدوء ورعاية للمشاعر التى يؤذيها أن يعلن «الرسميون» عن مشاركتهم الوجدانية للشعب ، ولذا كان الأسلوب الرسمى يهدف فقط إلى مجرد نقل الأفكار إلى السامعين دون أية إثارة ، أو انفعال

• أما الإسلوب فى الجانب الشعبى فقد كان عند الأستاذ الإمام وتلاميذه صورة واضحة للأستاذ الإمام نفسه فى تفسير الأحداث على نحو شبه منهجى يخضع كل شيء لما يشبه القانون كما رأينا فى حديث الإمام عن «الحكومة القانونية» وحديث «اللقانى» عن السقوط والارتفاع .

• وكان عند الشباب الذين لم يبلغوا منزلة كبار تلاميذ الإمام صورة منهم ، يتميز بالدفعات العاطفية المؤثرة لرنين الموسيقى ، وبريق العبارة المنتقاة .

وقد عقبت «الوقائع (١)» على خطبة لأحد هؤلاء بما يزكى رأينا إذ قالت :

«ثم قام بعد النديم شاب فتكلم بما هو مقتضى روح الشباب ولوازم الفتوة ، فحث على الاجتهاد فى تحصيل المعارف ... الخ كل ذلك بعبارة تعرب عن حدة الشباب وثورة الفتوة» .

– بقى أسلوب الفريق الثالث بين أساليب الخطابة السياسية فى الجانب الشعبى الحر . ويمثله فى رأينا رجل بمفرده أوتى نصيباً غير محدود من مقدرة الخطباء ومواهبهم ، وكان له فى سجل الخطابة السياسية وحده أوفى نصيب .. وأعنى به «النديم» .

ولم يكن النديم عندما يقف للخطابة مجرد خطيب له رأى يريد التعبير عنه .. وإنما كان يقصد قصداً – يعينه الطبع الموهوب – إلى الإبداع والافتنان ، واختلاب الألباب والعقول . ويكفى أن نعرف أن «النديم» يوم احتفال جمعية المقاصد بالدستور ، قد تقدم للخطابة خمس مرات فلم يكرر فكرة ولم يستعد عبارة وإنما كان جديداً فكراً وأسلوباً فى كل مرة تحدث فيها ، مما يشهد بمقدرته الخطابية الخارقة التى أشادت بها «الوقائع» وما استطاعت أن تكتم إعجابها .

فعندما وقف خطيباً للمرة الثانية فى نفس الليلة قالت الوقائع : «إنه صال فى ميدان الخطابة ، وجال ، وأجاد فى بيان فضل هذا العصر على الأعصر الماضية» (٢) .

وقالت عن خطبته للمرة الثالثة : «إنه قام وأطال بلا إملال فى بيان التربية الابتدائية والوجوه اللائقة بها» (٣) .

أما تعليقها على المرة الرابعة فيشهد حقاً بما أوتى الرجل من موهبة علت على أسباب العجز ، وبواعث الإخفاق والملل فى قولها : «ولو أردنا إحصاء ما قال النديم من

---

(١) ١٥ من فبراير ١٨٨٢ (خطب فتح الله صبرى ومصطفى ماهر وغيرهما ، الرافعى– الثورة العرابية ص ٢٢٨

(٢) (٣) الوقائع عدد ١٥ من فبراير ١٨٨٢

غرر الكلام لاحتجنا إلى صحف كثيرة ، وضاق بنا الوقت عن حصره فلله دره خطيباً بليغاً» (١) .

وحينما وقف النديم للمرة الخامسة فوجئ باعتراض اثنين من رجال «وزارة المعارف» على رأى له حول نظام الامتحانات ، فإذا تعقيب النديم على الاحتجاج يثبت تفوقه وعلو كعبه كخطيب ثابت الجنان حاضر البديهة خصب الذهن وذلك حين قال :

«إن هذا الاجتماع لم يكن إلا احتفالا بنوال حق طالما سعينا إليه وهو الدستور ، فلا عجب إذا قام هذان الفاضلان وطلبا حقهما فى المدافعة عن شرف المدارس» (٢) .

★ ★ ★

وجمل القول فى أمر الخطابة السياسية لهذه الفترة فترة الحصول على الدستور يتلخص فيما يأتى :

• أن الجانب الرسمى منها كان موحداً فى الموضوع ويكاد يكون أيضاً موحد الإسلوب .

• كان الموضوع الكبير عند الجانب الشعبى هو البحث عن الوسائل اللازمة للاحتفاظ بالدستور وتنمية انتفاع الأمة به . وكانت الموضوعات الفرعية هى :

(أ) محاولة وضع قواعد عامة لسياسة الحكومة حتى تكون دستوريتها شيئاً حقيقياً ، وحتى تصبح روح الدستور هى الأساس فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

(ب) التحذير مما تصاب به بعض الشعوب فى أعقاب انتصاراتها من الغرور وسوء التقدير وإساءة استخدام الحق (٣) .

(جـ) الدعوة إلى المزيد من التعليم وبيان أفضل الطرق لذلك .

(د) الدعوة إلى تخليص الشعب من سيطرة المرابين الأجانب بإنشاء مصرف وطنى (٤) .

(هـ) الدعوة إلى الاعتزاز باللغة القومية «لكونها لغة البلاد وعليها المدار فى حفظ الأبناء عوائد الآباء والاقتداء بهم فيما سلكوه من طرق الكمال» .

---

(١) الوقائع عدد ٢٥ من فبراير ١٨٨٢

(٢) إبراهيم اللقانى – الوقائع ١٥ من فبراير ١٨٨٢

(٣) محمد عبده – النديم – مصطفى ماهر فى حفل جمعية المقاصد، فتح الله زكى فى حفل أحمد محمود وإبراهيم الوكيل – عن المصدر السابق .

(٤) مصطفى ماهر – نفس المصدر .

(و) الدعوة إلى الاتحاد والتماسك ، ولم تكن هذه خاصة بخطيب معين وإنما كانت قدراً مشتركاً بين كل الخطباء .

أما أسلوبها فكان فى الواقع أساليب ثلاثة :

أولا : أسلوب العقل المجرد والتفكير المستنير الواعى عند الإمام وتلاميذه .

ثانياً : أسلوب الحماسة المغمورة بفيض الصور الشعورية والعاطفية عند الشباب والطلاب .

ثالثاً : أسلوب الصناع المحترف الذى واتته مقدرته على اصطناع الأساليب حسب «المواصفات» التى يقتضيها أى موقف ، يسنده فى ذلك الحس المرهف والبديهة اللماحة والثروة اللغوية الوفيرة وهذا كله عند «النديم» .

نظرة عامة إلى الخطابة السياسية

من عصر إسماعيل حتى نهاية الثورة العرابية

فى بداية حكم إسماعيل لم تكن البلاد تعرف الخطابة السياسية إلا فى المجال الرسمى الذى بدأ بافتتاح مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦ . وقبلها كانت البلاد محكومة بسلطة الرجل الفرد الذى لا يسمح بأن يكون إلى جواره رأى غير رأيه .

ومن تتبع النصوص التى ألقاها إسماعيل نفسه فى افتتاح دورات هذا المجلس نراها معبرة عن حالة الاستعلاء التى كان يمارسها الحاكم ويحسها فى نظرته إلى الشعب . ومعبرة كذلك عن نظرة التقديس التى كان الشعب قد تعودها فى موقفه من الحاكم ولذا نراه فى خطبه يمتن على مصر بما صنعه وصنعته أسرته لها من خير ... ونرى تعقيب ممثلى الشعب الذى تعبر عنه كتب الرد على خطب العرش يؤكد نفس الحالة فتجىء هذه الردود مفعمة بالخضوع معترفة بأن الخديو ولى كل النعم ، وأن الشعب مدين للأسرة العلوية بما وصل إليه من أمن وعمران .

ومع هذا فقد سجلت ميلاد الحدث الهام فى حياة البلاد السياسية وأعنى به إعلان اشتراك الأمة فى توجيه دفة الحكم عن طريق نوابها .. أياً كانت حدود هذا الاشتراك(١)

فإذا وصلنا إلى عام ١٨٧٦ . أى بعد سنوات عشر من بدء هذه المشاركة ، ألفينا فى المجتمع المصرى تغييرات سياسية واقتصادية وثقافية هامة تباعد ما بينه وبين المجتمع نفسه فى عام ١٨٦٦ . ورأينا الخطابة السياسية تردد نفس الأصداء ، وتنعكس على موضوعاتها وفى أساليبها نفس الملامح .

فى هذا العام ١٨٧٦ م بدأ نواب الشعب يطرحون عن كواهلهم الإحساس بقداسة الحاكم ، ويستبدلون به الإحساس بأنهم نواب الشعب ورقباؤه على الحكام المنفذين ومن حقهم باسم هذا الشعب أن يناقشوا الحاكم الحساب فيما يأتى من أمر أو يدع .

---

(١) المضبطة الأصلية لجلسة الافتتاح – الأحد ٥ من نوفمبر ١٨٦٦ م رجب ١٢٨٣ هـ

وتطورت مناقشات النواب وارتفعت فوق الجزئيات المحلية ، إلى مناقشة القضية العامة التى كانت تشغل الأذهان وهى الأزمة المالية وزحف النفوذ الأجنبى .

وظهرت فى أساليبهم لهجة صاحب الحق الذى يطالب المسئولين — ولو كانوا من عتاة الأجانب — بأن يقدموا إليه كل ما يطلب من بيانات .

وقد حفل هذا العقد الثانى من عمر الحياة النيابية فى مصر بأكثر من مظهر من مظاهر تطور الوعى الوطنى عند نواب الشعب وكان من أبرز معالمه غير ماسبق هو الاهتمام الواعى فى مناقشة الأمور واليقظة ضد محاولات الخديعة . كما ارتفعت درجة التحمس فى الأخذ والرد واصطبغت بلون المشاعر الحارة عند النواب فغدت إلى الخطابة أقرب منها إلى الجدل ، الأمر الذى لم يكن لوزراء الحكومة سبيل إلى صده إلا بإنهاء أعمال المجلس بالمرسوم المشهور فى ٢٧ من مارس ١٨٧٩ .

وعندئذ تحولت المناقشات إلى خطابة سياسية رائعة سجلت للنواب مواقفهم المشرفة من الناحيتين الوطنية والأدبية على السواء (١) .

★ ★ ★

أما مجالها الحر على عهد إسماعيل فكانت نواته تلك الاجتماعات التى يعقدها الأحرار من النواب ومن الضباط والمفكرين وغيرهم لتدارس أحوال البلاد ومعرفة السبيل إلى خلاصها مما كانت تعانيه وخاصة ذلك النفوذ الأجنبى الذى انتزع من أهل البلاد كل خيراتها وتركهم فيها وكأنهم غرباء .

وأوضح مظاهر ذلك ما ألقى من خطب قبيل الثورة العسكرية المعروفة بثورة الضباط (٢) فى نوفمبر ١٨٧٩ ، وكذلك ما ألقى من خطب «الابتهاج» عندما قبلت «اللائحة» الوطنية التى تقدم بها النواب كمشروع مضاد لمشروع مصطفى رياض الذى أسقطت وزارته وألغى مرسومه بإلغاء المجلس ، واستمر بعدها فى مباشرة أعماله .

وقد انعكس الموقف السياسى بوضوح على أسلوب هذه الخطابة ، فإن ضغط الحوادث وتتابعها لم يكن يتيح للخطباء فرصة للتنميق والتأنق ، وإنما كانوا يعبرون فى كثير من المواقف بوحى مشاعر الساعة فجاءت نصوصها سهلة العبارة قوية فى توضيح الفكرة المطلوب إبرازها كما ارتفعت فيها حرارة العاطفة بنفس الدرجة التى كانت

---

(١) مناقشات دورات أغسطس ١٨٧٦ ، يناير ١٨٧٩ ، مارس ١٨٧٩ . المضبطة .

(٢) من نماذجها خطبة للبكباشى لطيف سليم فى هذه المناسبة — الرافعى — عصر إسماعيل ج ٢ ص ٢٠٣ .

ترتفع بها حرارة الأحداث فى الخارج ، ويعيش الناس فيها على فوهة بركان .

فإذا أسرعت الأحداث بخلع إسماعيل رأيناها تكشف فى الوقت نفسه عن حقيقة النزعة الاستبدادية عند توفيق، وتعجل بحدوث الصدام بينه وبين القوى الشعبية المتحفزة للوثوب .

وكانت أيام توفيق هذه أحفل الأيام بالأحداث السياسية القوية التى تثير المشاعر وتطلق الألسن وتفسح المجال الواسع أمام الخطب السياسية .

★ ★ ★

وبالنظر فى خطب هذه الفترة من حكم توفيق حتى الاحتلال البريطانى نراها تنقسم إلى مراحل ثلاث لكل منها طابعها ومميزاتها وهى :

أولا : الخطابة السياسية التى عاصرت الأحداث منذ واقعة «قصر النيل» حتى سفر العرابيين . والملاحظ على موضوعاتها هو الاهتمام الواضح بمحاولة التعفية على ما تركه يوما «قصر النيل وعابدين» فى نفوس الخديوى ورجاله ، ومحاولة استعادة هيبة الحكم ونفوذه مرة ثانية .

ثانياً : المرحلة التى صاحبت سفر العرابيين إلى مراكزهم حتى افتتاح مجلس النواب وكان كل خطبائها من العرابيين أنفسهم أو من أشد أنصارهم حماساً لهم وكان الإطار العام لخطب هذه المرحلة يحتوى ما يأتى :

(أ) الإشادة ببطولة الجيش الذى خلص البلاد من الطغيان أو هز مراكزه على الأقل وفتح أمام البلاد باب التطلع الواسع إلى الحرية والرقى

(ب) تمجيد شخص الخديوى والثناء عليه مداواة للجرح وإبقاء على وحدة الصف أمام الخطر الزاحف .

(ج) حكاية قصة الظروف التى أدت إلى يومى «عابدين وقصر النيل» ومحاولة تصوير المستقبل بعد هذه الوثبة ، مع التحذير من الفتن ، ومن الأطماع الخارجية .

ثالثاً : المرحلة التى صاحبت إعلان الدستور وتقديمه إلى الشعب ، فقد اشتركت طوائف الأمة كلها فى إعلان ابتهاجها بهذه المناسبة ، وكانت من حيث موضوعاتها أصدق ترجمان لحالة الشعب النفسية والسياسية إذ عكست مشاعره وعبرت عن وجهة نظره فى صدق تجاه الأحداث .

كما كانت فى أسلوبها صورة من مرحلة التطور الأدبى التى أدت إليها جهود الأفغانى وتلاميذه فغنيت بالصدق فى التعبير والسهولة فيه ، وطرحت عنها أكثر أوزار الماضى الأدبى المثقل بالصنعة والزينة الفارغة .

الباب الثالث

الخطابة السياسية في فترة الاحتلال

- الخطابة السياسية الرسمية
- الخطابة السياسية الحرة
- نظرة عامة فى خطابة هذه الفترة

أولا ـــ الخطابة السياسية الرسمية

١ ـ خطب الخديويين والرد عليها

الخديو توفيق :

فى ٢٨ من يوليو ١٨٨٥ ، أى بعد ما يقرب من ثلاثة أعوام من احتلال الإنجليز لمصر وسيطرتهم التامة على شئونها ، تم افتتاح الدور الأول للجمعية العمومية ، وكانت أيام توفيق كما رأينا فى الحديث عن الحالة السياسية أيام الاستسلام المطلق لسلطات الاحتلال ورجاله حتى كان الخديو شبه معزول لا يظهر له رأى ولا يكاد يسمع له صوت .

وقد انعكست هذه الحالة فى خطبه انعكاساً دقيقاً حتى لكأنه وهو يلقى خطبه يحمل على كاهله عبئاً ثقيلا يحرص فى سرعة على التخلص منه ليعود إلى عزلته ، أو كأنه لا يطيق أن يرى وجوه النواب الذين خرج من بينهم يوماً من زلزلوا عرشه .

ومن هنا كان الإيجاز الشديد هو الطابع الذى تميزت به خطب توفيق فى كل أدوار انعقاد الجمعية العمومية ، كما تميزت بوحدة المقدمة فيها جميعاً حتى لا تكاد تلمس فارقاً بينها . من حيث إهداء السلام إلى الأعضاء وإعلان السرور الخديوى بهذا الاجتماع (١) .

أما أسلوبها فكان أقرب إلى لغة الحديث العادية منه إلى الخطابة بمفهومها الفنى ، مع السهولة والخلو من المحسنات إلا من بعض سجعات قليلة كانت تصاحب الخاتمة أو ما قبلها من دعوات .

الخديو عباس :

يشعر القارئ لخطب هذا الرجل أن ثمة فارقاً واضحاً بينها وبين خطب والده

---

(١) تاريخ الحياة النيابية فى مصر – محمد صبحى خليل ج ٢ ص ٥٨٤–٥٨٦ .

توفيق ، فإذا كانت خطب توفيق بمثابة جدول أعمال لأعضـاء الجمعية العمومية ، فإن خطب عباس فى مجموعها كانت أشبه بكشف الحساب عن أعمـال النواب فى السنة المنتهية ، فيما عدا خطبته الأولى بعد توليه ، والتى كانت بمثابة عهد أو ميثاق يقدمه الخديو بين يدى ممثلى الشعب بأنه سوف يرعى مصالح الأمة ويدافع عن حقوقها (١) .

ففى أدوار الانعقاد التى حضرها عباس من السابع إلى الخامس عشر كان يتحدث عن الإصلاحات التى تمت قبل الانعقاد وبعده . وإن تميزت بعض الأدوار باهتمام بموضوعات معينة كتميز دورى الانعقاد الثانى (٢) عشر ، والثالث (٣) عشر ، بالحديث عن «التعليم» كرد فعل للحملات الخارجية التى كانت تقوم بها الأحزاب ، والتى حركت الأعضاء سواء فى الجمعية أومجلس شورى القوانين إلى المطالبة بالعناية به .

وقد انصب موضوع خطبته فى دور الانعقاد الخامس عشر حول مشروع «مدامتياز القناة حيث أعلن الخديو أن الغرض من الاجتماع إنما هو «البحث فيما إن كان من مصلحتنا مد أجل الامتياز إلى أربعين سنة» .

وفيما عدا هذه الموضوعات التى كانت تفرضها ظروف خاصة كانت الخطبة تعود إلى سابق المألوف عنها من تقديم البيان بما أنجزته الحكومة من أعمال وإصلاحات .

أما أسلوبها فكان صورة من موقف الخديو السياسى الذى تحدده علاقته بالإنجليز ، فإن كان على خلاف معهم أطنب (٤) فى التعبير عن سروره بالالتقاء بنواب الشعب وإلا أوجز واختصر (٥) .

وبالموازنة بين خطبه وخطب والده توفيق تظهر عناية «عباس» بتوفير ما يمكن توفيره من المقومات الفنية للخطبة بحيث تبدو كعمل فنى يعنى فيه بنفسيات السامعين ويحاول استمالة مشاعرهم بالثناء عليهم وإشعارهم أنهم عاملون لخدمة الوطن . وكانت

---

(١) ٣١ من يناير ١٨٩٢ – الحياة النيابية فى مصر محمد صبحى خليل ص ٥٨٦ .

(٢) إبريل ١٩٠٥

(٣) فبراير ١٩٠٧ المصدر السابق ٥٩١–٥٩٢ .

(٤) تراجع خطبته فى دور الانعقاد الخامس (الأول بالنسبة له) ٣٠ من يناير سنة ١٨٩٢ نفس المصدر ح ٤ ص ٥٨٦ .

(٥) تراجع خطبته من الدور الحادى عشر إلى السادس عشر منذ ١٩٠٤ وما بعده المصدر السابق .

العناية بهذا الجانب النفسى تبلغ غايتها إذا كان للحكومة مشروع تريد أن يصوت النواب إلى جانبها فيه .

فحين اعتزمت الحكومة تعديل الضرائب رأينا الخديو يمهد لهذا بقوله «إنه جليل الفائدة ، وسيكون من ورائه الخير المطلوب لهذا القطر المحبوب ، وهو تعديل ضرائب الأطيان بطريقة منطقية على العدل والإنصاف» .

وحين اعتزمت تقديم «مشروع مد امتياز القناة» رأيناه يحاول بطريق غير مباشر (١) أن يؤكد للأعضاء أن الحكومة كانت حريصة على معرفة رأيهم بل جعلت الفصل فى الأمر كله لهم ، كما يثبت حرص الحكومة على مصلحة الوطن بدليل أنها لم تقبل المشروع فى صيغته الأولى وإنما تشددت وقدمت التعديلات التى تضمن صالح البلاد .

وبعد حديث طويل حول هذه المعانى لم يفت الخديو أن يذكر الأعضاء بأن الحدود المشروعة لسلطاتهم لا تشمل النظر فى مثل هذا المشروع ، وأنه — تقديراً منه لخطورة الأمر — هو الذى منح الأعضاء حق إبداء الرأى فيه ، وعلى الأعضاء بعد هذا أن يردوا المعروف بمثله ويسيروا معه إلى حيث يريد .

★ ★ ★

وثمة ملاحظات مشتركة بين خطب الخديوين نوجزها فيما يلى :

أولا : كل الموضوعات التى عالجتها خطبهما كانت موضوعات داخلية بحتة ، أما القضايا العامة للبلاد ، وأما القضية الكبرى للاستقلال والحرية فلم يظهر لها عندهما أثر ، على الرغم من أن الرأى العام كان يغلى خارج القاعات الرسمية بسبب «فاشودة» و «الاتفاق الودى» و «دنشواى» و «الحرب التركية» و غيرها ... ومع هذا كله آثرت الخطب الخديوية التزام الصمت تجاه تلك الأحداث .

ثانياً : إيثار الأسلوب الإخبارى الذى يهدف إلى الإفادة قبل الامتاع والتأنق ، وهذا طبيعى من رجلين غريبى الدم واللسان عن لغتنا العربية ، وحتى لو كان آخرون يعدون لهم الخطب كما هو متوقع فإن جو القصر الذى كان يعيش فيه أولئك الآخرون كان يعمل عمله فى هذه الناحية .

ثالثاً : وهو متصل بما قبله وجود كثير من الألفاظ العامية أو الألفاظ التركية الشائعة وهى عند توفيق أكثر منها عند عباس .

---

(١) تاريخ الحياة النيابية فى مصر ج ٤ ٥٩٩ ٦٠٠ .

وخلاصة القول : إن خطب الخديوين كانت صورة صادقة لشخصيتهما من ناحية وصورة أصدق للحالة السياسية التى كانا يعيشان فيها من ناحية ثانية .

فمن الناحية الأولى برزت روح «توفيق» الساخطة على الشعب والتى لو ترك صاحبها لآثر ألا ينظر فى وجوه النواب مما حمله على الاقتضاب الشديد واستمرت خطبه جامدة على شكل لا يكاد يتغير من حيث البدء والختام .

وظهرت فيها روح عباس فى حاليه بين الإقبال على الشعب أو الاتفاق مع سلطات الاحتلال . وكلا الرجلين حملت خطبه صورة ثقافته ، وصورة لسانه الذى كانت تقفز «التركية» منه بين الحين والحين .

٢ ــ خطب الرسميين من ممثلى الحكومة

يمثل هذا التيار هنا سعد زغلول وأحمد فتحى زغلول ومن جرى على دربهما .

سعد زغلول :

أما سعد فهو أعرف من محاولة التعريف به ، ورصيده فى الخطابة السياسية وفى مجال النضال السياسى يرتفع بمقامه إلى الذروة ، الأمر الذى يقتضى إفراد دراسة شاملة خاصة به توفيه حقه ، وتصف مدى ما ارتقى إليه من العظمةالخطابية ، لا تتسع هذه العجالة للقيام بها .

ولكنى سأتحدث عنه هنا فى الحدود الضيقة التى رأيناه فيها يدافع عن وجهة النظر الوطنية وتقدير موقفه هذا أكان فى صالح الوطن أم لا ولونظرنا فقط من الزاوية الفنية ، فسنجد أنفسنا أمام خطيب عظيم قوى الحجة بالغ التأثير .

ومبلغ العظمة فى خطابة سعد هنا أنه كان يتولى الدفاع عن قضية مقطوع بخسارتها لأن الرأى العام كله كان ضدها . وعلى الرغم من شدة التيار المضاد لمشروع «مد امتياز القناة» و «إعادة العمل بقانون المطبوعات» وقف سعد يتصدى ويناضل . بل ويحاول أن يقلب ميزان الرأى إلى جانبه لولا يقظة بعض المعارضين الأشداء .

★ ★ ★

وأول ما يطالعنا من ملامحه هنا :

* صبره الذى لايكاد يوصف فى مقارعة خصومه ، وثبات أعصابه إلى الحد الذى يفقد الآخرين أعصابهم .

فحين أعيد نظر مشروع «مد امتياز القناة» بعد ما طرح للبحث مرات وأصبح الحكم برفضه شبه مقرر وقف سعد ليتكلم فمنعه الأعضاء وثاروا فى وجهه ، وصاح إسماعيل باشا أباظة بأن الموضوع شبع بحثاً ، والكلام فيه ليس إلا دوراناً فى حلقة مفرغة .

وبالرغم من هذا وقف سعد يقول : بأى حق يريد أحدأعضاء الحكومة أنيتكلم فيمنع من الكلام ؟ أريد أن أسأل : هل يجب على الجمعية سماع أقوال الحكومة أم لا ؟

وبعد ما نجح فى إخماد الثورة فى وجهه لجأ إلى الصورة الأدبية محاولا استمالة السامعين بها فقال : «نحن الآن لسنا أمام محكمة للدفاع ، ولكننا أعضاء جسم واحد نتباحث فى مصلحة البلاد ، فليس لطرف أو عضو أن يحجر على عضو آخر فيما يريد أن يقرره»(١) .

والسمة الثانية التى تبرز هنا : إقدامه على المغالطات الخطابية من أجل تأييد ما يذهب إليه ، كمحاولته التهوين من أمر مشروع مد الامتياز ووصفه بأنه مجرد عقد إيجار لمدة أخرى أو التهوين من خطر المدة الزمنية المطلوبة «إن أربعين عاماً ليست شيئاً كبيراً فى تاريخ الأمم» . وظاهر الكلام الذى يقوله صحيح ، ولكن – كما قالت اللواء – إن وقوع الأمة فى خطأ مالى أو سياسى نتيجة تساهلها فى أمر من الأمور الهامة قد يضرها فى حياتها عدة سنين فى المستقبل (٢) .

★ ★ ★

وثمة ملاحظة أرى من الواجب تسجيلها على سعد فى هذه الحقبة وفيها انزلق إلى سقطتين ما كان أغناه عن التورط فيهما.

والأولى : حديثه الغريب عن قوة الجبهة التى كان نواب الشعب يعارضون فى حصولها على مد امتياز القناة واعترافه صراحة بأن «الحق للقوة» ، وهو الرجل الذى رفع فيما بعد شعاره المشهور : الحق فوق القوة .

والثانية : وهى الأغرب والأعجب فى دفاعه عن أصحاب المشروع بما لم يدافعوا به عن أنفسهم فى قوله :

«هناك مبادئ تجب مراعاتها فى العالم ، وهى تمنع أن واحداً يستريح والآخر يتعب ويتألم» (٣) .

وسعد هنا يعتبر أن المستريح هم المصريون وأن الذى يتألم هم ممثلو الشركة إذا رفض تجديد امتيازها . والمنطق غريب من رجل يعلم جيداً كم ضحينا وقاسينا من أجل هذه القناة !

أحمد فتحى زغلول :

كان سعد أقوى خطباء الحكومة وأكثرهم تحدثاً باسمها إلى حد أن منحته بعض

---

(١) مضبطة الجمعية العمومية – جلسة ١٧ من إبريل سنة ١٩١٠ .
(٢) اللواء : عدد إبريل سنة ١٩١٠ .
(٣) اللواء : عدد ٥ من إبريل سنة ١٩١٠ .

الصحف لقب «محامى الحكومة» ولكنه لم يكن خطيب الحكومة الأوحد ، فقد برز إلى جواره ، أحمد فتحى زغلول الذى كشفت كلمته حول مشروع «قانون الأزهر» عن خطيب مطبوع تتدفق الكلمات من شفتيه قوية عاصفة.

ومع أن الموضوع الأساسى للخطبة لم يكن سياسياً إلا أن الجدل من حوله قد اتجه إلى زاوية سياسية خالصة عرضت الدفاع عنه لمناقشة مسألتى السلطة السياسية والسلطة الدينية وحدود كل منهما.

فنى مطلع الخطبة وجزء كبير من صدرها رأينا خطيباً يعنى بمشاعر سامعيه ، ويستثير غريزة حب الاستطلاع فى نفوسهم فيقول (١) :

«لنا فى كل وقت من أوقات المشروعات الجديدة ظروف تكتنفها الشبهات ، وتحيط بها الظنون والأوهام ، فتتردد بين الخاصة ، وتشاع بين العامة ، وتكثر الظنون والأقوال».

ترى : ما هذه الظنون ؟ وما هذا الذى يتردد بين الخاصة ويشاع بين العامة ؟ وماذا يقولون ؟ لم يشأ الخطيب أن يجيب ليريح سامعيه ، بل انصرف بهم إلى حديث آخر ليزيد شوقهم قبل أن يقول :

«إنهم يقولون : نريد ضمانات ، فممن؟ وضد من ؟ ولأى سبب؟ ومن أى نوع ؟ وهل تخلق الأشياء وحدها ؟ أم يراد أن تلغى أحكام النظام العام ؟»

ثم يعمد إلى المصارحة التى تقترب من المفاجأة فيتعرض لإحدى الشائعات المتصلة بسلطات الحاكم الشرعى للبلاد ومدى انسحابها على السلطة الدينية إن كان ثمة سلطات يمكن الاعتراف بها لرجال الدين فيقول :

«يقولون : إننا قررنا تعيين شيخ الأزهر بإرادة سنية فمتى كان غير ذلك ؟ وكيف كان غير ذلك ؟ ولم يكون غير ذلك ؟» ثم يحسم القضية بقوله :

«إذا كان شيخ الأزهر رئيساً دينياً ، فأمير البلاد هو وكيل الخليفة ، وإن كان رئيساً نظامياً فالجناب العالى هو رأس الحكومة النظامية .»

وواضح من هذا العرض الموجز مقدار التدفق الخطابى عنده ، ومقدرته على تلوين الأسلوب من السؤال إلى الجواب ومن الإثبات إلى النفى ، مع المراعاة الواضحة لنفسيات السامعين .

---

(١) محضر جلسة مجلس شورى القوانين ١٥ من نوفمبر سنة ١٩١٠ .

٣ ـ خطب الرسميين من ممثلى المعارضة

كانت الظروف السياسية لهذه الفترة مشحونة بالصراع المتصل بين السلطات الحاكمة وبين ممثلى الشعب ، وكان فى طبيعة الأحداث ما يدفع الشعبيين إلى مزيد من الاستماتة فى النضال كلما ازداد طغيان السلطات الحاكمة .

وسنرى فى حديثنا عن الخطابة السياسية الحرة ما قامت به من جهد على يد مصطفى كامل ومحمد فريد ومن تابعهما ـ ثم على يد أحمد لطفى السيد والشيخ على يوسف ومن نهج منهجهما .

وفى قلب المجال الرسمى (الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين) ظهر نفس التيار قوياً واضحاً يقوده رجال أشداء ، أوتوا حظاً عظيماً من الإيمان بالوطن، وحظاً عظيماً كذلك فى التعبير عن هذا الإيمان . نذكر من هؤلاء: إسماعيل أباظة ، وعبد العزيز الصوفانى ومحمود عبد الغفار وأبو خضرة وغيرهم.

إسماعيل أباظة :

كان إسماعيل أباظة هو الند القوى لمحامى الحكومة سعد زغلول. وإذا كان سَعْدٌ من يعرف الناس مكانته ومقدرته ، ومع هذا يستطيع إسماعيل أباظه يوماً أن يفحمه (١) فنى هذا ما يوضح مكانة الرجل ويكشف عن مقدرته الخطابية .

• وأول ما يطالعنا من ملامحه مستواه الرفيع فى فهم حدود المعارضة وتحديد مهمة النقد بأنها الرغبة فى الإصلاح والإفادة لا مجرد التشهير : فيقول :

«نحن لا ننتقد الحكومة إلا بنية خالصة ، وفكرة طاهرة هى فكرة الإصلاح ، واستلفات ولاة الأمور لأعمال وتصرفات نعتقد أنهم لا يرضون عنها ويتمنون معرفتها» (٢) .

• وثانيها : مقدرته العظيمة فى التَّعْفية على آثار خصمه مهما تكن منزلته

(١) مضبطة مجلس شورى القوانين ٣٠ من مايو سنة ١٩١٠ واللواء ٣١ من مايو سنة ١٩١٠ .
(٢) المؤيد ٤ من يناير سنة ١٩١٠ .

ويتضح هذا من نهوضه للكلام فى «مشروع مد امتياز القناة» وبعد ما دافع عنه سعد طويلاً ، وبعد ما أفاض وزير الأشغال فى شرح المشروع شرحاً مدعوماً بالأرقام . وكادا يظفران باستمالة السامعين أو إضعاف حماستهم على الأقل :

فإذا إسماعيل أباظة يستطيع بكلماته أن يمحو أثر كلامهم ويستعيد رأى المجلس إلى ا كان عليه وفى هذا تقول «اللواء» (١) .

«وكأنه خشى أن يتأثر حضرات الأعضاء بلهجة سعد باشا البليغة وإحصائيات معادة زميله ناظر الأشغال فشرع يقول ما مؤداه تخطئة حساب المستشار المالى حتى رأى من حضرات الأعضاء استئناساً لقوله ، واطمأن إلى أنهم ما زالوا على رأيهم الأول ...»

* وثالثها : لباقته فى تسديد الضربات إلى خصومه ، وكأنه جراح ماهر يخدر مرضاه قبل أن يشق بطونهم .

فحين جاء دوره فى مناقشة الميزانية قدم لخطابه بكلمات ناعمة مهذبة أكد بها أن هدفه من النقد هو مصلحة الوطن .

وما كاد يمضى فى القول حتى رأيته يبرز المسئولين عن تدبير أمور الدولة فى صورة المفرط الذى لا حد لتفريطه فى مصالح البلاد فيقول (٢) .

« سرنا ثمانية وعشرين عاماً غير مختارين ، وصرفنا خمسة وثلاثين مليوناً من الجنيهات ، والدين هو الدين ، بل أكثر ، والمدارس هى المدارس بل أقل . ولغة البلاد كادت تكون فى انزواء وانكماش ، والصناعة البلدية فى ضياع ، والفلاح الأمى هو الفلاح الأمى ، ومحراثه القديم هو المحراث القديم ...»

* ورابعها : مقدرته على مفاجأة خصمه بما لم يكن يتوقعه .

ومن ذلك رده على سعد بشأن مشروع محاكمة الصحفيين ، إن أعمال الحكومة يجب أن تقابل بالثقة المطلقة وألا يكون هناك مجال للشك فيها فإذا إسماعيل أباظة يقول له : «أما مسألة الثقة ... وإصدار أحكام بعيدة عن تشكيك الشاكين فهذا شىء لا يمكن قبوله ، لأن الإنسان يخضع أمام أحكام الله تعالى عجزاً عن مقاومتها ، وفى نفسه من

---

(١) ٨ من ابريل سنة ١٩١٠ .
(٢) المؤيد فى ٤ من يناير سنة ١٩١٠ .

الشكوك شيء كبير فمن باب أولى أن يكون الحكم بذلك على أحكام الإنسان». (١)

• وخامسها : تدفقه الخطابي الدال على تمكنه من موضوعه من ناحية . ووفرة الثروة اللغوية وطواعية الأسلوب من ناحية ثانية ، وفى هذا التدفق تبدو ملامح الأسلوب الخطابي القوى من حسن التقسيم إلى التكرار إلى استخدام الصورة الأدبية كما فى الفقرة التى صور بها سوء الحالة العامة للبلاد بعد حديث مفصل بالأرقام فقال :

« بلاد تراكمت على مزروعاتها مصائب الآفات ولم توفق الحكومة إلى إنقاذها منها ... بلاد تمكن الفقر الصناعى منها بعد أن طغى طوفان التمدن الحديث على الصنائع الوطنية التى كان يشتغل بها ألوف من أبناء البلاد فيفيدون ويستفيدون .

« بلاد لم يسعدها الزمان بأن يكون لها حظ فى التجارة ... بلاد يشكو أهلها من رفض الحكومة أبناءهم بمدارسها ، بلاد يستغيث أهلها من تأخير قضاياهم .. بلاد مثقلة بالديون الباهظة ...

« بلاد هذه حالها يكون من الواجب والحكمة عدم التطوح بأموالها واستعمال غاية الحذر والاحتراس فى تقدير مصروفاتها . الخ (٢) » ..

تلك أبرز السمات الخطابية للرجل الذى كان شديد العناية بالموضوع الذى يتحدث فيه وشديد العناية بالذين يلقى بحديثه إليهم والذى كان يوماً كالطود الأشم الذى تكسرت عنده هجمات سعد زغلول .

عبد اللطيف الصوفانى

فى الفترة الزمنية التى يشملها هذا البحث رأيناه يخطب مرتين وكانت هذه صورته : خطيب حاد العاطفة ثائر الوجدان ، لا ترضيه اللفظة المرنة ، ولا العبارة الملفوفة فيأبى إلا التصريح بما يريد فى أقوى عاطفة وأحر تعبير .

كقوله (٣) «لست فى حاجة إلى أن أتكلم على وصف حالتنا الحاضرة ، وما نراد بالعيان من قصور الحكومة الشخصية عن أن تسمو بنا إلى المدنية التى تطلبها أمتنا : وليست هذه الفكرة جديدة أيها السادة فإن الجمعية العمومية التى نحن جزء منها كررت المطالبة بهذا الحق . »

---

(١) اللواء ، ٣١ من مايو سنة ١٩١٠ .

(٢) المؤيد فى ٤ من يناير سنة ١٩٠٨ .

(٣) كل هذه الفقرات من خطبته فى مجلس شورى القوانين المضبطة جلسة ٣١ / ١٠ /١٩٠٨.

وكقوله : « إن الأمة تتقدم كل يوم فى التشدد فى طلب الحكم الذاتى ، وإنها كما قال حديثاً أحد كتاب الإنجليز « إذا كانت الأمة المصرية فى العام الماضى لا تقدر الحكم النيابى فقد أصبحت تقدره اليوم حق قدره . »

وكقوله : حين عرض لنجاح الثوار الأتراك فى زلزلة استبداد السلطان مراعياً حساسية موقف الخديو فى مصر « ... وذلك بسبب الحوادث الأخيرة التى حصلت بجانبنا ، والتى لا نلمح إليها إلا على سبيل ذكر المؤثرات التى جعلت أمتنا تتضاعف رغبتها فى طلب الحكم الدستورى » .

وكقوله فى ختام خطبته هذه :

« أيها السادة : لايستطيع أحد أن يفهم أنه توجد ظروف مخصوصة يجب اجتماعها لتحرير أمة من الحكم الشخصى إلى الحكم الدستورى لأن الشىء إذا كان بطبيعته واجباً لا يحتاج فى تحقيقه إلى ظرف مخصوص ، بل يجب على طلابه أن يدأبوا للوصول إليه بكل الطرق الممكنة » .

وحين احتدمت المناقشة حول توسيع اختصاص الجمعية العمومية وزيادة السلطة الممنوحة لها رأينا الصوفانى لا يكفيه من سلطات الجمعية أن تكون مجرد مشاركة للحكومة فى تحمل التبعات ، وإنما يريد أن يكون سلطانها فوق سلطان الحكومة. فيقول :

« إن وظيفة الهيئات النيابية ليست مشاركة الحكومة وإنما مراقبتها والهيمنة عليها ، إن الشعور عام فى طلب المجلس النيابى فماذا نخشى من الصراحة ؟ أنتفادى الألفاظ ولا نتفادى الغاية ؟ إن الأمة تعتقد فى مجموعها أنها أهل لنيل حقها الطبيعى وهو المجلس النيابى » (١)

* * *

وحين اعتزمت الحكومة إعادة العمل بقانون المطبوعات رأيناه يصور الحكومة وكأنها نباش للقبور يستخرج منها الأشباح المزعجة للناس ، ثم يعقب :

« وقانون المطبوعات لا ينطبق على أمة تريد أن تأخذ دستورها ، ولا يتفق مع حكومة تقول إنها تعطى هذا الحق للمصريين تدريجياً إلا إذا كانت تقصد بهذا التدريج الانحدار إلى الوراء ثلاثين سنة (٢) » .

---

(١) مضبطة الجمعية العمومية ٢٦ سنة ١٩١٠ .

(٢) المؤيد ٣١ من مارس سنة ١٩١٠ .

محمود عبد الغفار :

ومن واقع خطبه فى مجلس شورى القوانين (١) نطالع من ملامحه فى الخطابة الإحالة إلى المسلمات ، والاقتباس وحسن الاستشهاد ، والاحتراس واللباقة فى مراعاة الظروف والمواقف ، ثم الختام القوى القاطع .

★ ★ ★

ولم يكن إسماعيل أباظة والصوفانى وعبد الغفار هم كل خطباء المعارضة ، بل كان ثمة كثيرون من أمثال محمد بك أبو خضرة وفتح الله باشا بركات ومحمد علوى باشا وأحمد يحيي باشا ، ممن علا صوتهم فى المطالبة بالدستور وتوسيع اختصاص الهيئات النيابية ، ورفض مشروع مد الامتياز ومحاكمة الصحفيين وغيرها .

وهؤلاء فى مجموعهم كانوا يشكلون الصورة اللازمة للمعارضة الناجحة التى تحتاج إلى الدارس الهادئ ، نفس حاجتها إلى الثائر العاطفى والمنطقى ذى الحجج البارعة ، الأمر الذى جعل جهود المعارضة تثمر فى أكثر مواقفها وتحمل الحكومة حملاً على تغيير ما كانت مقدمة عليه ، وهذا وحده دليل حيوية الخطابة السياسية وفاعليتها فى مواجهة الأحداث .

---

(١) مضبطة مجلس شورى القوانين جلسات أكتوبر سنة ١٩٠٨ .

ثانياً ـ «الخطابة السياسية الحرة»

وتتمثل فى نشاط الأحزاب وهى :

ا ـ الحزب الوطنى (مصطفى كامل ، محمد فريد ، جاويش)

ب ـ حزب الأمة (سعد زغلول ـ لطفى السيد ..)

جـ ـ حزب الإصلاح (على يوسف ومن تابعه ...)

وسنتكلم فيما يلى عن طبيعة هذه الخطابة من الناحية الفنية .

تمهيد

كانت هزيمة العرابيين فى « التل الكبير » بداية فترة حالكة الظلام أطبقت على بلادنا من نواحيها جميعاً ، وخاصة من الناحية السياسية .

وكان طبيعياً فى هذا الجو الخانق أن يحتبس صوت الخطابة فلا يوجد له صدى ، وتستحيل الكلمات إلى مشاعر حبيسة تتلمس طريقها ـ متى استطاعت إلى الأسماع .

فلما ولى عباس شئون الحكم وكان عهده حافلاً بالمصادمات والأحداث أتيح للخطابة السياسية أن تأخذ من جديد مكانها وعلى أوسع نطاق .

فقد شهد عهد عباس أول صدام بين جبار الاحتلال « كرومر » وبين الخديو فى أزمة النظارة الفهمية التى وجد الشعب فرصته لتحدى مغتصبيه .

وشهد عهد عباس أزمة « الانتقام » التى عرفت فى التاريخ باسم «أزمة الحدود» والتى كانت كسابقتها فرصة الخطابة السياسية لإعلان رأى الشعب وموقفه من هذا الصدام .

وشهد عهد عباس « حادثة فاشودة » التى انتهت بين إنجلترا وفرنسا على غير ما كان يحبه الشعب ولم تتكلم الخطابة السياسية ولكن صمتها فيها كان أبلغ من أقوى بيان .

ثم كان « الاتفاق الودى » سنة ١٩٠٤ قاطعاً للشك باليقين كما يقولون فإذا الخطابة السياسية تحدد للشعب طريقه الذى لا طريق غيره للكفاح والنهضة .

حتى إذا كانت مأساة «دنشواى» هبت الخطابةالسياسية لتدفع الجلادين بالجريمة والإثم وتفضح فظيعتهم أمام الرأى العام لا فى مصر وحدها بل فى العالم كله .

★ ★ ★

وراح « كرومر» وحل محله صاحب سياسة الوفاق«جورست» فإذا الخطابة السياسية ترسم للشعب طريق تحرره ، وتؤكد له فى هذه الفترة بالذات أن جبهة الحرب قد أصبحت جبهتين إحداهما : جبهة المحتلين والأخرى جبهة الخديو ورجاله الموالين للاحتلال .

وهكذا تستمر الخطابة السياسية فى مواكبة الأحداث والنهوض برسالتها فى كل مرحلة حتى كانت الحروب وأعلنت الحماية على مصر ، ومرة أخرى أعيدت إلى الصمت الذى فرض عليها يوماً بعد هزيمة التل الكبير ، إلى أن واجهتها فرصة الحياة والنشاط الخصب فى ثورة ١٩١٩ .

ولو تتبعنا بالتفصيل خطابة هذه الفترة وحاولنا الوقوف على ميزات كل صاحب صوت لما وسعتنا هذه الصفحات ، ولكنا بحاجة إلى عمل كبير آخر ، ومن ثم سأحاول فقط أن أعرض للخطابة السياسية بالقدر الذى يكشف عن سماتها العامة ويوضح خصائصها مع الإلمام الكاشف بخصائص كل جماعة تتكون من رجالها «مدرسة» خطابية ، والإشارة إلى ملامح من يعتبرون رواداً على كل طريق.

خطباء الحزب الوطنى ومدرسة الايقاظ والاثارة

١ ــ مصطفى كامل

بعد السنوات العجاف العشر التى بدأت مع الاحتلال وانتهت بنهاية عهد « توفيق » أتيح للخطابة السياسية أن تعلن عن وجودها فى أزمة النظارة الفهمية ، وخلال المقابلات والاجتماعات التى كان يعقدها الخديو عباس فى بدء حكمه للاتصال بالشعب . ولكن هذه الخطابة فى مجموعها لم تأخذ طابع المدرسة المتميزة ذات الخصائص إلا على يد باعث الوطنية الشاب « مصطفى كامل » .

فقد كان مصطفى بشبابه الذى لم تنل الأيام من ثورة حماسه ولم يجمده أى ارتباط بالوظيفة أو بالمصلحة ، وبإيمانه العميق ببلاده ، وبشخصيته التى توافرت لها كل مقومات الزعامة وفى قمتها طلاقة لسانه وقدرته الجبارة فى السيطرة على المشاعر .

كان مصطفى بهذا كله ، أول خطيب سياسى جهر بطلب الاستقلال فى وجه المحتلين ، وكان أول زعيم فى هذه الفترة اتخذ من الخطابة السياسية سلاحاً لبعث الحركة الوطنية ، وآمن به منذ بكورته فقد كتب إلى أخيه بعد حصوله على الشهادة الثانوية يقول :

« أؤمل أن تعود إلىّ القوى لأدخل مدرسة الحقوق لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ، ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، وأنت تعلم أنى أميل إليها كثيراً » .

وقد وصل مصطفى كامل من التوفيق الخطابى إلى ما كان يرجوه ، واعترف له أقرانه وأساتذته بما وهب من طلاقة اللسان وقوة البيان وأنه الذى إذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول ، وسخر له الخطاب ، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق حتى يستميل إليه القلوب النافرة ، ويرد الأهواء الشاردة (١) .

وكان طابع المدرسة الخطابية التى قادها مصطفى كامل هو الإيقاظ والإثارة

(١) مصر والاحتلال الإنجليزى . محمد بك مسعود ص ٢٧ .

كما أشرنا ، والعمل على إحلال الأمل فى محل اليأس وتنبيه الوجدان الشعبى الذى أذهلته الكارثة .

ولم يكن هذا الاتجاه إلى الإيقاظ والإثارة مجرد ميل شخصى من خطباء هذه المدرسة ، ولكنه كان رد فعل طبيعى لما أحدثته الهزيمة من تحلل ، وضياع ، وإنزواء ، وفردية .

ولكى يخرج الشعب من ذلك كله كان على الخطابة السياسية أن تستثيره لتوقظه ، ولم يكن ثمة طريق يمكن البدء به غير هذا الطريق .

* * *

وإذا تتبعنا الخطب السياسية لمصطفى كامل طوال حياته الوطنية ألفيناها تخضع لشبه منهج معين قوامه فى البداية إثارة المشاعر الوطنية ، وإيقاظ الوعى الوطنى بين طبقات الشعب بكل الوسائل الخطابية المؤدية إلى هذه الغاية من الإيحاء والتذكير بأمجاد الماضى وأحداثه المشرقة أو إبراز المثل العظيمة فى حياة الشعوب لتنبيه الغيرة وحسن الأسوة ، أو بعقد المقارنات الواقعية بين حاضر الشعب بما فيه من آلام وبين ماضيه بما كان فيه من اعتزاز وقوة . ثم بين المستقبل الذى كان يمكن له أن يصفه إذا نال حريته ومكن من استغلال ما لديه من إمكانيات وطاقات .

ولم يكن يدع مناسبة تمضى أو حادثاً يمر إلا ويكون له فيه صوت يوجه به الأحداث وفق المنهج الذى أشرنا إليه . ويربط دائماً بين ما يحدث وبين مستقبل القضية المصرية .

* فبعد ما عاد من أوربا ألف الصحافة الأوربية المحلية تحمل على موقف مصر المتعاطف مع تركيا فى حربها مع اليونان وقف فى الإسكندرية ليقول :

« إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الإنجليزى واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى إنما هو اقتراع عام ضد الإنجليز فى مصر (١) » .

ومفهوم هذا القول تأكيد كراهية المصريين للاحتلال ، ومناهضتهم له ، وتأييدهم لكل ما يناهضه .

* وحين قدم عليه شهر سبتمبر سنة ١٨٩٧ وهو فى باريس لم يدع الشهر الذى دخل الإنجليز القاهرة فى منتصفه منذ خمسة عشر عاماً يمضى على نحو عادى ، وإنما

---

(١) فى مسرح زيزينيا – ٨ من يونيو سنة ١٨٩٧ – الرافعى – مصطفى كامل ص ٨٩.

أقام احتفالاً دعا إليه المصريين ، والعثمانيين وغيرهم وألقى فيه واحدة من أقوى خطبه الوطنية ودعا فيها إلى الجهاد ، ومجد الوطنية واعتبرها فرضاً على كل وطني .

من أبدع الأفكار التي تعرض لها في هذه الخطبة تحديد معنى خيانة الوطن واعتبار سلبية المواطنين تجاه مشكلات وطنهم مشاركة غير مباشرة في هذه الخيانة توجب نفس الإثم الذي يحمله الخائن الحقيقي له .

وهو بهذا التناول الطريف للخيانة يزلزل كثيراً من الرواسب الفكرية التي كانت قد رانت على مجتمعنا بعد الهزيمة ودفعت بالمواطنين إلى السلبية والانطواء ولنستمع إلى قوله :

« ولا تظنوا أيها الإخوان أنكم تكونون أبرياء من إثم ضياع مصر إذا سكتم عن المطالبة بحقوقها ، ولم تعملوا لإخراج الأجنبي منها ، فقد يظن الكثيرون أن الذي لا يخون وطنه ولا يخدمه يكون بريئاً من مصائبه وغير مسئول عن الأخطاء التي تتساقط عليه . كلا إن الذي يرى النار بعينيه ويقف عند حد المشاهدة فلا يعمل لإطفائها شريك في الإثم لمن سعرها ، فكيف بنا نرى الأجنبي يعتدى على حياة أمتنا ويهتك عرض بلادنا ، ويسلبنا حقوقنا ، ويحسن إلى الحيوان الأعجم أكثر من إحسانه إلينا (١) » .

وحين خيبت فرنسا آماله وآمال المصريين بتراجعها أمام الإنجليز في « فاشودة » انعكس هذا على إحساسه ، وكان صداه المباشر في خطبه هو التركيز على محاربة اليأس الذي قد تطفيه على النفوس مثل هذه الحادثة ، لا سيما أن آثاره قد ظهرت في الاستسلام المطلق من كبار المسئولين وعلى رأسهم الخديو الذي استعرض جيوش الاحتلال تحت العلم البريطاني وسافر في نفس العام إلى رحلة لبلاد مغتصبي بلده. فإذا مصطفى كامل يقول في أول خطبة له بعد فاشودة :

« لقد بالغنا في الاستسلام وأبدعنا فيه كل الإبداع ، وما جنينا إلا الخيبة والفضيحة والعار .... »

« أقام الإنجليز الأرض وأقعدوها بسبب « غوردون » ونسفوا قبر المهدي وأخرجوا رأسه بأشنع صفة وأقبح مثال ، وعقدوا المجامع وألقوا الخطب تحية وسلاماً على روح فقيدهم ، والمصريون ينظرون ويتساءلون : أليس لدماء من مات منا ثمن ؟ أليس لرجالنا قيمة ؟ أليس المصري في شريعة الله إنساناً ككل إنسان ؟ أتموت منا الجنود والأبطال

---

(١) الرافعي– مصطفى كامل ص ١٠٧ .

قبل استرداد السودان وفى سبيل استرداده ولايذكرون بشىء ؟ بل يكون منا من يهنئ الإنجليز بأخذ ثأر « غوردون » ؟

★ ★ ★

وبعد فاشودة كان اتفاق ١٨٩٩ الذى ضيع على مصر أكثر حقوقها فى السودان فإذا خطب مصطفى كامل تسجل ذلك ، وتدعو الأمة إلى الاعتماد على النفس وإعداد أبنائها لبناء مستقبلها وحدهم وذلك بنشر التعليم ودعم الصناعة الوطنية والدفاع عن المقدسات والحرص على الوحدة الوطنية ، كما عنيت خطبه للمرة الأولى بالحديث عن الدستور . (١)

ولما عقد الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا عام ١٩٠٤ وأعلن المترددون عن استسلامهم المطلق للاحتلال إلى حد أن يقف كبير مصرى مسئول ليعلن عن أمنيته بأن يدوم الاحتلال فى مصر حتى تبلغ أشدها على يديه (٣) .لما حدث هذا نهض مصطفى كامل ليرد بكل قوته على هذا النذير الخطير الذى ارتفع فى سماء الوطنية المصرية ، ويزيل آثاره ويعفى عليه ويؤكد لمن اعتقدوا انتهاء الحركة الوطنية بسبب « الاتفاق » إن هذا وهم من الأوهام فيقول :

« نحن نحن على حالنا ، ندافع عن المبادئ التى أعلناها للملأ كله من أول عهدنا بالسياسة إلى اليوم .

« إننا نرى أن محبة الأوطان ليست مما تميل إليه النفس ساعة وتنفر منه ساعة ، وإنما الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهيبه فى القلب ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه ، وإذا كنا افتخرنا بهذا الإحساس وتباهينا به ، فخليق بنا أن نتعلق به اليوم أضعاف تعلقنا بالأمس ، ونقول لهذا الوطن : كلما تمكن العدو منك تمكن حبك من القلوب ، وتعددت واجباتنا نحوك ، واشتد تمسكنا بحقوقك » .

★ ★ ★

فلما حدثت الفظيعة الكبرى فى دنشواى .. وصب جبار الاحتلال بكل أحقاده على الأبرياء العزل من مواطنى القرية المنكوبة ، وكان مصطفى كامل آنذاك فى أوروبا

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ص ١٤٦ /١٤٧ /٣٥٢ .

(٣) رياض باشا فى حفل مدرسة محمد على الصناعية وكان الخديو حاضراً فى ٢٣ من مايو سنة ١٩٠٤ .

كتب مقاله الشهير : « إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن » (١) والذى كان فى حقيقته خطبة قوية من خطبه السياسية قال فيها :

« جئت أسأل الإنجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها جئت أسأل الذين يجاهدون فى كل آن ذاكرين الإنسانية . جئت أسأل الأمة الإنجليزية إذا كان يليق بها أن تترك ممثليها فى مصر يلجأون إلى قوانين استثنائية ووسائل همجية » .

وقد عرض مصطفى كامل فى كلمته هذه مأساة دنشواى عرضاً كاملاً فيه غيرة القائد الوطنى ، ويقظة رجل القانون ، وفيه مقدرة الخطيب الكاتب على التصوير والتأثير ومناقشة كل ما أثاره الممثلون حولها وخاصة دعوى التعصب المزعوم .

وكان لهذه الخطبة المكتوبة صداها لدى المخلصين لقضية الحرية ، فأقام الشرقيون المقيمون فى لندن احتفالاً كبيراً عبر فيه المحتفلون عن مشاعرهم تجاه القضية المصرية وتجاه شخص مصطفى كامل على المجاملة بإقامة احتفال كبير دعى إليه ذوو النفوذ السياسى فى البرلمان الإنجليزى والشرقيون ورجال الصحافة العالمية .

* * *

وفى اليوم الذى عقد فيه هذا الاجتماع كان قد مضى على الحكم فى مأساة دنشواى أقل من ثلاثين يوماً ، ولم تكن دماء الشهداء ولا دموع ذويهم قد غاض معينها بعد ، وكان الرأى العام البريطانى نهباً لتيارين متعارضين فى هذه القضية .

* تيار ساخط على أعمال الاحتلال فى مصر يلطخ وجهه بالعار ويصب ... مصاص من الجبار « كرومر » . ومن وراء هذا التيار كان يقف المصرى الشاب الخطيب مصطفى كامل .
* وتيار مضلل ينشر الأكاذيب ويدبر الجرائم ، ويطالب الحكومة البريطانية بإقرار السياسة المتبعة فى مصر ... ومن وراء هذا التيار كان يقف « كرومر » .

وكان على الداعية الوطنى ألا يدع هذه المناسبة تمضى دون أن يستخدمها ليس فقط فى توضيح حقيقة ما حدث فى دنشواى ، وإنما لكى يبسط وجهة النظر فى كل ما يتصل بالاحتلال وتصرفات البريطانيين فى مصر .

ولذا ناقش ما زعمه المحتلون من أن الشعب المصرى راض عن الاحتلال ، ونفى هذا الزعم وأكد استمرار الحركة الوطنية وقوتها ، وناقش تهمة التعصب وأثبت أن عكسها هو الصحيح بل هو الأصل فى الخلق المصرى ، كما أكد أن إخلاف الساسة البريطانيين لوعودهم لن تثنى المصريين عن المطالبة بكل ما لهم من حقوق .

---

(١) جريدة الفيجارو الفرنسية ١١ من يوليو سنة ١٩٠٦ — الرافعى مصطفى كامل ص ٢٠٤

ومن أهم ما أثاره مصطفى كامل فى هذه الخطبة التى كانت استجواباً أو وثيقة اتهام للاحتلال مناقشة الادعاء البريطانى بأن الإنجليز أصلحوا شئون مصر المالية ، وجنبوها ويلات الدين ، وأن الاحتلال بهذا وحده جدير بمحبة المصريين .

تعرض مصطفى كامل لهذا فأبدع فى رده وقال :

« لقد ألقت الحالة المالية فى مصر على عيون الكثيرين من الناس هنا غشاوة فتراهم مندهشين من أن المصريين غير سعداء فى عهد الاحتلال .

« وأن السامع لأقوالهم ليحسب مصر سوقاً ، لا وطناً ، فأرجو أن ينظروا إلى الأشياء بإمعان ، وأن يدرسوا الحالة الأدبية فى مصر ، ويدركوا على الخصوص ، أنه لا توجد ثروة ، فى العالم ولا رخاء ينسى الإنسان كرامته ، وحرية بلاده (١) » .

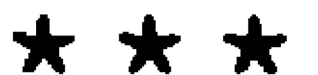
« ثم تحدث عن السودان ، وتحدث عن الامتيازات الأجنبية التى تضع أولئك الدخلاء فوق متناول القانون وتهين الشعور الوطنى ، وكل هذا من ويلات الاحتلال الذى سلب البلاد حريتها وحرم أهلها حقوقهم الطبيعية المشروعة ، ولو كان هناك دستور ينظم علاقة الحاكم بالمحكوم لما بلغ الاستخفاف بحقوق الشعب هذا المدى الذى يزداد فيه كل يوم نمو السلطة المطلقة للمعتمد البريطانى (كرومر) المسئول الأول عن كل ما حدث فى دنشواى والرجل الذى عمل على محو شخصية الحكومة المصرية إلى جوار سلطاته المطلقة » .

وفى ختامها قال مصطفى كامل :

« فمصر لا تسأل إحساناً بمطالبتها بحريتها ، بل تطلب حقاً معترفاً به ، ولا نزاع فيه تطلب حقها فى الحياة والوجود ، وإنى على يقين من أنكم لو كنتم محلنا ، لشعرتم بنفس شعورنا ولسلكتم مسلكنا . »

وقد رد عليه أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى وكان حاضراً الاحتفال بقوله (٢) :

« أما مسألة دنشواى فإنكم — يا حضرة الباشا تعرفون جيداً مقدار القلق الذى قوبلت به أخبارها ، ويمكننى أن أؤكد لكم وجود الانعطاف الفعلى الخالص من قبل العدد الأكبر والأعظم من الشعب البريطانى ، وإننا نقدر آمالكم ومطالبكم حق قدرها » .



---

(١) الرافعى — مصطفى كامل ص ٢٢٠ .

(٢) المستر جون روبرتسون — المصدر السابق ص ٢٢٣

وإن المقارنة بين لغة الاستخذاء والضعف التي كان يصطنعها كبار المسئولين أمام الاحتلال ولاسيما بعد الاتفاق الودى إلى حد أن يجرؤ أحدهم (١) على مدح الاحتلال ورجاله وتمنى دوامه ، ويجرؤ زميل (٢) له فيرأس المحكمة المخصوصة التي تولت الإعداد والتنفيذ لمجزرة دنشواى ، تشعرنا هذه لمقارنة بين هذه المواقف المستخذية وبين ما رأيناه وسمعناه من مصطفى كامل وخاصة خطبه فى أوربا بل وفى قلب لندن ـ بمدى الفارق بين الوطنيين المخلصين وبين المستوزرين ، كما تدلنا على نوع التطور الذى حدث فى موقف الحركة الوطنية بوصف عام ، فقد كانت خطبه السياسية بمثابة التعبير الحقيقى عما يضطرم فى أعماق الشعب من مشاعر ، ولذا كانت تجد بين صفوفه صداها العظيم ، وكان المصريون أنى وجدوه يتلقفون كلماته ذات الترجمة الصادقة عن مشاعرهم .

يقول الرافعى فى حكاية الصدى الذى أحدثته خطبته التى أشرنا إليها الآن (٣) :

« كان لهذه الخطبة دوى هائل فى مصر ، ونالت إعجاب الرأى العام ، إذ أكبرت الأمة من زعيمها المجاهد بحقوق مصر فى العاصمة البريطانية ، وبين جمع من كبار الإنجليز ، ونفدت نسخ « اللواء » التى نشرت فيها الخطبة ، وانهالت الطلبات على إدارته لطبعها فى « كراسة » على حدة وتوزيعها على الجمهور ، كما تلقى « اللواء » تلغرافات ورسائل عديدة بتأييد موقف الفقيد والإعجاب بجهاده » .

ومن هنا يبدو مقدار وعى الشعب تجاه القضايا العامة ، ومقدار اهتمامه بالخطابة ، وبالخطباء السياسيين خاصة .

★ ★ ★

فنية الخطابة عند مصطفى كامل :

موضوع الخطابة السياسية هو مناقشة سياسة الدولة عامة وسواء تعلقت المناقشة بالشئون الخارجية كالحرب والسلام أو المعاهدات والعلاقات بين الدولة وغيرها أم تعلقت المناقشة بالسياسة الداخلية كشئون التعليم والاقتصاد والتشريع وعلاقة الشعب بحاكمه (٤) ، وعلى هذا يكون نصيب الخطابة من « السياسة » بمقدار نصيب « السياسة » من الموضوع الذى تعالجه .

(١) مصطفى رياض فى حفل توديع كرومر
(٢) بطرس غالى ـ رئيس المحكمة المخصوصة .
(٣) الرافعى ـ مصطفى كامل ص ٢٢٣ .
(٤) فن الخطابة ـ للدكتور أحمد الحوفى ص ٥٤ .

وإذا تتبعنا موضوعات الخطابة السياسية لهذه الفترة فى تاريخنا ألفيناها سجلاً دقيقاً لكل ما توالى على مسرح السياسة المصرية من أحداث، وسجلاً أكثر دقة لصورة المشاعر والآراء الوطنية فى ما يحدث من أحداث. فهى بهذا تاريخ لبلدنا أكثر صدقاً وواقعية من كثير من التواريخ التى لعبت بها الأهواء.

ومن حسن حظ الخطابة السياسية أن توهب فى هذه الفترة من حياتها شاباً عظيماً كمصطفى كامل متفانياً فى حب بلاده، يملك عليه حبها سمعه وبصره وفؤاده، ويعيش فى الهتاف بها ليله ونهاره، فإذا البلاد تبادله الولاء بالولاء ويستطيع بخطبه بعد السنوات العجاف العشر أن يعيد الحياة والحركة إلى كيان الأمة التى تحالفت كل القوى على سلبها إياها منذ كارثة الاحتلال.

ولست أدرى كيف كان يمضى ركب التاريخ المصرى بعد الاحتلال لو لم تنهض الخطابة السياسية بهذا الدور الخالد الذى أزعجت به المحتلين، ووقفت بالمرصاد لكل من يعاونونهم، ثم نجحت فى أن تمسك على الشعب حيويته ووطنيته.

وكما سبق أن رأينا كانت الحركة الوطنية فى حاجة كبرى إلى الإحياء والبعث ودفع أغوائل اليأس التى كانت محيطة من كل مكان بالشعب. ولذا كانت طبيعة الدور الذى نهض به مصطفى كامل وأتباع مدرسته من بعده تقضى بأن تقف الخطابة السياسية عندهم بالمرصاد لكل حدث من أحداث السياسة تتلقفه لتصنع منه وقوداً يغذى شعلة الوطنية، وتنير الطريق فى الآفاق المظلمة، ومركز الدائرة عنده هو الخطابة والإلحاح فى إعلان الدستور.

★ ★ ★

فبعد عودة مصطفى كامل من أوربا بعد الرحلة التى طاف خلالها أكثر من بلد، وتحدث إلى كثيرين فى أمر القضية المصرية، ورأى مقدار الاستهانة بحق مصر فى الجلاء والاستقلال عاد فألقى فى الإسكندرية أول خطبه (١) الوطنية التى حث فيها الشعب على التمسك بحقه، واستثار فيها روح الكرامة والأمل فى القلوب، وكانت أول خطبة من نوعها السياسى يقوم على إلقائها شاب غيور، عرف واجب الوطن، وضرورة التفانى فى حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال الأجنبى أربعة عشر عاماً (٢).

وهو الذى قال فى ذكرى ١٤ من سبتمبر مخاطباً بنى وطنه « .. فالبسوا ثياب الحداد

---

(١) ألقيت فى ٣ من مارس سنة ١٨٨٦ ونشرت بالمؤيد عدد ٤ مارس.

(٢) المصدر السابق.

فى ذلك اليوم واندبوا حظ بلادكم التعسة ، وخففوا من آلامها بالعمل لخدمتها ، والتفانى فى سبيل خلاصها » وهو الذى خرج من أعماق اليأس والظلام بشعاره المشهور « إنه لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة » .

وأقرب تحديد لموضوعات الخطابة عند مصطفى كامل هو ما عبرت عنه مدام جوليت آدم ... فى قولها عنه (١) :

« إنه كان يجاهد بكل الصور والأشكال ضد اليأس والقنوط ، وعدم الاكتراث بشئون البلاد ، وقلة الوطنية ، تلك الآفات الثلاث التى تهدد مصر ، والتى هى أشد خطراً على الأمم من المغيرين » .

فمحاربة هذه الآفات تكاد تكون الموضوع الأساسى الذى دارت من حوله خطبه ، وما التفصيلات كلها سوى وسائل يستخدمها الخطيب لتحقيق هدفه السابق .

وما نذهب إليه هنا يتفق وما أعلنه مصطفى كامل نفسه فى آخر خطبه السياسية حين قال رداً على من سألوه عن وسيلة الوطنيين لتحقيق الاستقلال .

« إن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال تنحصر فى بث روح الوطنية الصحيحة ، والشهامة والإقدام فى الأمة ، وإعلاء ملكتها وإيجاد حب السؤدد والرفعةومسابقة الأمم الراقية منها ، وجعل الاستقلال رائدها » .



ثانياً : الأسلوب :

إن من أبلغ وأدق ما صور به أسلوب مصطفى كامل ما كتبته إحدى (٢) الصحف الفرنسية تعقيباً على كتابه « المصريين والإنجليز » وفيه يقول كاتب التعقيب :

« قرأت هذه الخطب التى ألقيت الأولى منها عام ١٨٩٥ ، والأخيرة عام ١٩٠٤ فهى عشر سنوات من حياة الخطيب جمعت واختصرت فى هذه الصحائف .

« إن فيها قوة وحدة وروح الشباب والأمل تملأ هذه الصحائف وتهزها وتشعر اليد بارتعاش عند تقليبها .

---

(١) الرافعى : مصطفى كامل ص ١٨٦ .. فى المقدمة التى وضعها لكتاب «المصريون والإنجليز » .

(٢) الجورنال موكسيير الفرنسية عن : الرافعى – مصطفى كامل ص ١٨٦ |١٨٧ .

« إن القارئ عندما يطالع هذه الخطب لا يقرأها . بل يسمعها في الحقيقة لأنها بالغة الغاية في الحياة .

« ورغما عن هذه الحرارة وتلك النار المشتعلة ، ورغماً من الحدة التي تلازم كل حب شديد فقد استطاع هذا الخطيب الشاب أن يحافظ دائماً على الاعتدال ، ويقف عند الحد الواجب ، فهو حاد اللهجة ، وفي عباراته حركة شديدة أحياناً بحيث قد تشعر أنها تجرى وتعدو ، وتدوى كالسيل الجارف وقت ذوبان الثلوج ، فيخيل إلى الإنسان أنها ستأخذ في طريقها كل شيء ولكن السد الذي أقامته نفس شريفة وفكر عال موجود .

« وهناك أمر آخر يستوجب دهشتي ، وهو أن هذه الحياة وحدة منسجمة متصلة ، فهي خط مستقيم لا انقطاع فيه ، فترى من أول خطبته إلى آخر خطبته ضميراً واحداً وروحاً واحدة ليس فيها تناقض ، ولا خطوة واحدة في غير موضعها ، وإلى مثل هذا ينتهي التعقل والصراحة والطهارة » .

والذي أعتقده مخلصاً أني لو حاولت أن أصف خطابة مصطفى كامل الوصف الموضوعي الدقيق الصادق ، ثم وفقت في المحاولة لما استطعت أن أزيد حرفاً فيما خطه الكاتب الفرنسي في تعقيبه السابق .

خطب قوية حادة تملؤها روح الشباب والأمل ، وتحس عند مطالعتها أنك تسمعها من فرط حرارتها ، تتفجر منها العواطف كأنما تتساقط من شلال ، ولكنها دائماً محكومة بسد العقل والاعتدال ، وهي بعد هذا كله خط مستقيم وتيار واحد متصل ، ولننظر في هذا القول المجمل بشيء من التفصيل .

★ ★ ★

الجانب النفسي في هذه الخطابة :

كان مصطفى كامل خطيب الموهبة الخارقة ، يفهم جيداً نفسيات سامعيه ، ويعرف أقصر طريق للوصول إليها .

فنحن نعرف أنه كان حدثاً في السن وفي مباشرة شئون السياسة إذا ما قيس بالمخضرمين من معاصريه ، ومعارضيه ، وفي هذا وحده ما قد يفتح عليه أكثر من باب من أبواب الحسد والغيرة والمنافسة اللاشعورية بينه وبين هؤلاء وغير هؤلاء .

ولكنه بفطرته الموهوبة كان يهدهد هذه المشاعر ، وينميها حيث تكون ، بل ويعمل على أن يغرس في مكانها مشاعر الإخلاص والحب . وكانت طريقته في ذلك هي أن ينحي شخصه هو عن أن يكون مجالاً للتكريم والحفاوة حتى ولو كان ذلك في حفل يقام

أساساً لتكريمه وإنما يعلن فى تواضع شديد أن كل تكريم يوجه إليه إنما هو فى الواقع تكريم للمبدأ الذى يدافع عنه مع المدافعين ، وتحية للوطن الذى يشترك فى حبه مع سامعيه ومع غيرهم (١) .

★ ★ ★

وكان مصطفى كامل يعتمد فى رعاية نفسيات سامعيه على عمق فهمه لهم ومعرفته بأحب ما يحبون ، وأبغض ما يبغضون .

فخطبه فى الإسكندرية مثلاً لا تكاد تخلو من تمجيد تاريخ هذا الثغر والإشادة بنصيب أهله فى الكفاح الوطنى ، حتى ليكاد يدعهم يحسون بأن الغيرة الوطنية لم تنبع إلا من أهل الإسكندرية ، ومنها سرى التيار إلى كل أرض الوطن .

ولكن مغالاة الإسكندريين فى حب وطنهم كانت – كما قال – مصدر متاعب سياسية فى الماضى حينما اتخذت ذريعة إلى ضرب الحركة الوطنية . ومن ثم كان على الخطيب أن يضع الاعتدال والحكمة فى التصرف هدفاً كبيراً أمام جماهير الإسكندرية حتى لا تدفعها حماستها إلى مثل ما أخذ عليها من قبل .

وقد دخل مصطفى كامل إلى نفوس الإسكندريين من الباب الذى لا يمكن أن يوصد أبداً فى وجه طارقه ، وذلك باعتبار نفسه واحداً منهم يدافع عن الإسكندريين ويشرح وجهة نظرهم فى كل ما أقدموا عليه ، ويستمر فى موقفه يناقش ما قيل وما يقال حتى لكأن حديثه العالى ليس أكثر من همسات خالصة بين أفراد أسرة واحدة . ومتى بلغ الخطيب هذه المنزلة فلابد أن تقع دعوته تماماً حيث يريد .

★ ★ ★

فإذا كان الخطاب لطائفة بعينها من طوائف الشعب ، أو إلى بعض النزلاء الأجانب داخل إلى نفسياتهم من طريق آخر .

خطب فى الإسكندرية فى مجموعة من الأوربيين وكان بينهم بعض الإنجليز فألقى خطابه باللغة الفرنسية التى كان يجيدها فسيطر على سامعيه مع أن موضوع الخطبة كان هو القضية الوطنية .

فقيام رجل غير فرنسى ليخطب بين الفرنسيين بالفرنسية كان فى الواقع مفتاحاً

---

(١) تراجع خطبة الإسكندرية فى ٣ من مارس ١٨٩٦ – الرافعى – مصطفى كامل خطبة ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٧ ص ٤٦٦ .

إلى مغالق نفوسهم لأنه فوق ما يتيح من توصيل الأفكار والمشاعر كاملة ، فإنه يخلق شعوراً بالراحة لدى السامعين يجدون فيه ضرباً من التكريم غير المباشر لهم أن يتحدث الخطيب إليهم لا بلغته ، ولكن بلغتهم .

فإذا أضفنا إلى هذا أن توفيق مصطفى كامل فى استخدام الفرنسية كان يعز على الكثيرين من أبنائها فسيتحول الشعور بالارتياح عند سامعيه إلى إعجاب بهذا « الغريب » ، ومن هنا يبدأون فى الانقياد له .

وحتى لو اضطره موضوعه إلى استخدام الدليل الخطابى رأيناه يسوقه بطريق هى إلى التأثير النفسى أقرب منها إلى الإقناع العقلى .

فإذا وصل الخطيب إلى أعقد المواقف النفسية ، حينما اتجه بخطابه إلى الإنجليزية ، رأيناه كذلك شديد المهارة وشديد الرفق فى مس أوتار قلوبهم ، خاصة وأن طبيعة الموقف كانت تثير التحدى – النفسى على الأقل – بين المتحدث والمتحدث إليهم ، ولكنه يخرج من كل هذا ليقول (١) :

« أما فيما يختص بالأمة الإنجليزية فلا نستطيع إلا احترامها ، إذ أنه لا يصح أن يقضى على شعب من الشعوب بخطأ بعض أفراد من أبنائه ، لأنها لو كانت تعلم إحساسنا لأظهرت عدم رضاها باحتلال ضار كهذا الاحتلال ، ولكانت ولا محالة قضت عليه » .

ويخيل إلى أن كل من شهد الاجتماع من الإنجليز قد عاش – ولو لحظات – يسعده فيها أنه من غير أولئك الذين ارتكبوا جريمة الاحتلال لمصر ، والتى تعاب بها سمعة الشعب الإنجليزى كله لا سيما وأن الخطيب قد أكد هذا المعنى صراحة فى قوله :

« فإننا لا نستطيع أن نتصور طرفة عين أن أمة بلغت من العظمة والمدنية مبلغ الإمة الإنجليزية تجرؤ يوماً من الأيام على أن تخون علناً سريرتها ، وتحتقر أمام الناس شرفها » .

وقد لوحظ اشتداد التصفيق وتواتره عندما بلغ الخطيب هذه الفقرة ، مما يؤكد أنه نجح تماماً فى بلوغ الهدف النفسى الذى كان يتجه إليه .

وغنى عن البيان أن الاستشهاد فى موقف كهذا بأقوال أوربيين لهم فى نفوس السامعين منزلة مما يمهد نفسياً لوقوع الدليل موقعه ، كما حدث عندما استشهد فى هذه الخطبة بكلمتين ، « لهوجو » و « غامبتا » فقوبل استشهاده « بالتصفيق العظيم المتواتر » (٢)

---

(١) الرافعى . مصطفى كامل ص ٤٤٢ .

(٢) نفس المصدر .

وإذا سيطر الخطيب على مشاعر سامعيه إلى هذا المدى فلا يضيره بعد أن يناقش أى موقف مهما يكن خطراً ، وشائكاً ، وهذا ما حدث عنده ، وواتته موهبته فأخذ يستثير السامعين إلى الوقوف وراء القضية المصرية ليس فقط لأنها قضية عادلة ولكن لأن المصلحة فى تأييدها . . مصلحة السامعين كأفراد ، ثم مصالح دولهم التى يهددها انفراد إنجلترا بالسيطرة على مصر فقال :

« ومتى تخلصنا من هذا النظام الذى وجهته فائدة بريطانيا العظمى ومتى تخلصت التجارة من الملل الذى يسببه لها الاحتلال الإنجليزى فسنفتح لنا ولكم آفاقاً ذهبية » .

وقوله (٢) : « إن أمة دبت فيها روح الوطنية ، وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبداً وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميراً واحداً لاذ بالوطنية عن وجهته » .

وقوله : « ماذا يريد منا الإنجليز ؟

« أيريدون أن نسمى سيئاتهم حسنات ، ونصفق لضياع حقوقنا واستيلائهم على بلادنا ، وتجريدهم إيانا من كل سلطة ونفوذ ؟

« من منا يذكر السودان ويشكر المحتلين الذين أنكروا حقوقنا فيه بعد أن روينا أرضه بدمائنا وأنفقنا عليه الأموال الطائلة ؟ أى مصرى يرضى عن قوم لا يعرفون العدل والإنصاف والمساواة » ؟

وقوله :

« أى قيمة لحرية القول وحرية الأقلام فى مصر إذا كانت هذه الحرية لا تفيد الحكومة ولا تصلح من أمورها ؟ وهل القصد من هذه الحرية أن يسمح للمصريين بأن يبكوا استقلالهم وينادوا بالويل والثبور على سالبيه . ليس إلا ؟

« لو وقف الأمر عند هذا لأصبحت المسألة مهزلة أو مأساة وإهانة للشعب تقدم إليه على أنها إحدى النعم » .

وما رأيناه فى هذه الخطبة ليس إلا نموذجاً لكل ما كان يجرى عليه مصطفى كامل فى العناية التامة بنفسيات سامعيه ، وهى نفس العناية التى كان يوجهها فى خطبه إلى الشباب أو الشيوخ ، أو الأغنياء والفقراء ، أو الموالين للقضية أو المناهضين لها .

★ ★ ★

---

(٢) من « الخطبة الكبرى » الرافعى – مصطفى كامل ص ٤٧٠ .

الصورة الأدبية :

« ليست الحرية بعزيزة على قوم يعملون للحصول عليها ، ويجتهدون فى نوالها ، وليس بعزيز على المصريين أن يفكوا قيود بلادهم ويعيدوا إليها استقلالها ومجدها فالصخرة الضخمة تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها نقطة بعد نقطة (١) » .

صورة من الصور الأدبية القوية التى حفل بها الأسلوب الخطابى عند مصطفى كامل ، فيها الحركة ودقة التصوير ، وتجسيم المعنويات حتى لتكاد تلمسها الأيدى أو تراها العيون .

ولست بحاجة إلى الحديث عن أهمية الصورة الأدبية فى الإسلوب الخطابى ، فإنها لا تكفى فقط فى تلخيص المواقف وتحديد معالمها ، بل إنها تحفر فى ذهن السامع آثاراً تظل طويلاً بمنأى عن الضياع حين تمضى الأيام بما يقوله الخطباء ، ورجل السياسة أشد الخطباء ، حاجة إلى خلود كلماته ما استمر النضال من أجل تحرير الوطن .

ولقد وهب خطيبنا حظاً موفوراً فى القدرة على رسم هذه الصورة ثم فى حسن استخدامها ، وكان نصيب الصورة الأدبية من الحرارة والقوة يزداد عنده كلما ازداد ضغط الأحداث على البلاد ، وعلى عزائم الرجال فتجىء الصورة الأدبية عنده مفعمة بالإصرار والتحدى ، ومواصلة النضال حتى لو أكره يوماً على أن يناضل وحده .

« سأستمر بمشيئة الله طول حياتى ، ولو بقيت وحيداً — أخطب فى الصحراء وأكتب على صفحات الماء ذلك الذى عرف فيه المصريون الخادم الأمين للوطن العزيز (١) » .

« وما دامت هذه الشعلة الوطنية تغذينى وتؤازرنى فإنى لا أهاب شيئاً ولا أحداً فى الوجود » .

التدفق الخطابى وتنوع الأساليب

كلما طالعت خطبة من خطب مصطفى كامل ، وخاصة منها ما يجىء فى أعقاب المحن — كنت أشعر كأنى أعيش معه ، أرقب مشاعره وأفكاره تنساب غير محتجزة وراء لفظ أو عبارة ، وكأنه فيض ينساب طبيعياً متدفقاً ، لا صنعة فيه ولا تكلف .

(١) من خطبة له فى ٢٣ من ديسمبر سنة ١٨٩٨ — الرافعى — مصطفى كامل ص ٤١٤ .
(١) من خطبة له سنة ١٩٠٤ — الرافعى — مصطفى كامل ص ١٧٧ .

ومبعث هذا التدفق فى اعتقادى هو إيمانه الجارف بالقضية التى كان يدافع عنها ، إيماناً ملك عليه حياته كلها حتى بات مستحيلاً أن يحيا بدونه ، فإذا تحدث أو خطب ، فكأنما ينثر من نفسه قطعاً أو ذكريات خاصة تتدفق من فمه سهلة بسيطة ، مليئة بالشعور وبالصدق ، ومن نماذجه ذلك النص الذى كرر فيه كلمة « الوطنية » ثمانى مرات دون أن يزيدها التكرار إلا تأكيداً وقوة :

« إنما الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهيبه فى القلب كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه .

« الوطنية – هى العماد لكل مملكة ، والأساس المتين لكل دولة .

الوطنية هى الروح العاملة فى كل بلاد العالم المتمدن .

الوطنية هى أم المعجزات وأمل كل تقدم ، وارتقاء .

الوطنية هى التى تنقل الشعب الجبلى إلى التقدم والحضارة والعمران .

الوطنية هى الدم فى عروق الأمم والحياة لكل ذى حياة .

الوطنية هى الغذاء الذى يحتاج إليه جسم مصر قبل كل غذاء (٢) » .

* * *

ولم يكن التدفق ثمرة العاطفة وحدها ولكنه كان كذلك ثمرة الوعى بظروف القضية التى يدافع عنها ، وقد جاء رده الخطابى على ما زعمه المحتلون من أنهم تقدموا بالبلاد تقدماً يستحق الشكر فإذا هو يسألهم عما يستحق الفخر فى سياستهم ؟

« هل انتقال الوظائف من أيدى المصريين .. وإماتة كل نفوذ لهم ؟

هل هو محو كل روح وطنية فى المعارف ؟

هل هو رفع العلم البريطانى على عاصمة السودان ؟ .. إلى آخر سلسلة الاستفهامات التى لا يملك المحتلون أن ينفوها .

* * *

أما تلوين الإسلوب فمن ترسل منطلق كأنه السيل إلى عناية عابرة ببعض المحسنات .. ومن أسلوب تقريرى قوامه الخبر إلى أساليب أخرى قوامها الإنشاء والصورة الأدبية ، وحكاية المعانى المجردة .

---

(٢) من خطبته فى ذكرى العيد المئوى لمحمد على سنة ١٩٠٢ .
الرافعى مصطفى كامل ص ٤٦٥ .

وتلوين الإسلوب على هذا النحو كان صفة موفورة تقودها الموهبة الجبارة التى تصنع من التباين والتنوع وحدة خطابية فى الإيحاء والتأثير .

فبينما تراه يقيم الجملة الخطابية على الرنين الموسيقى وحسن التقسيم الداخلى فى مثل قوله : « فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية » إذا هو يعمد إلى الصورة الأدبية يؤكد بها ما سبق فيقول :

« نعم — إننا لو تخطفنا الموت واحداً بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم (١) » .

وبينما نراه يسخر من الثراء الذى زعم المحتلون أنهم صنعوه لمصر بمثل قوله :

« فما قيمة الثروة التى يفاخرون بها بجانب الحرية الشخصية ، وسيادة المصرى فى بلاده ؟ » .

إذا هو يستخدم فى الوقت نفسه لغة الأرقام والوقائع ، والمسائل المحددة « ومن الذى ينكر أن الأزمة المالية ناشئة عن فوضى البورصة ، وكثرة الشركات ..... وأى خلل فى الميزانية أكبر من ذلك الذى فضحه المستشار المالى السابق حين أعلن أن مصر خسرت ٧٠,٠٠٠ سبعين ألف جنيه فى كل مليون اشترت به أسهم الترنسفال أو القونسيلد الإنجليزى » .

ومثل هذا لا يكاد يحصى .

والجدير بالتسجيل أن تلوين الإسلوب كان صفة أساسية فى إسلوب مصطفى كامل بحيث لا يكاد يستمر على صورة واحدة أكثر من فقرة أو فقرتين حرصاً منه على الاحتفاظ بانتباه السامعين وضمان إقبالهم » .

وأما حسن الاستدلال عنده :

فهو المقدرة التى لا يدانى فيها وكأنما خلق مصطفى كامل ليكون محامياً طبيعته الدفاع عن الحقوق ومناضلة الظالمين دونها ، فكيف إذا كانت القضية قضيته هو ؟ قضية مصر التى أصبحت كما قال « سر حياته » ؟

ولنرى مبلغ قوته فى الاستدلال سنعرض لبعض التهم المحددة المتبادلة بينه وبين الإنجليز ، ثم بينه وبين بعض خصومه فى مصر .

اتهمه الإنجليز ، واتهموا مصر كلها معه بالتعصب الدينى ، فإذا هو يقدم بين يدى

(١) الرافعى مصطفى كامل ص ٤٦٨ .

أدلة النفي ما يلقي ظلال الشك والريبة في أصل الاتهام ، فوصف التعصب بأنه « خيالي » وأن الذين يتهموننا بهذا هم أعداؤنا . ثم ساق أدلة ، وهي كما يلي من واقع خطبته :

* « إن الأوربيين يعيشون بأعظم سكينة في القرى مع الفلاحين الذين هم أكثر الناس تمسكاً بالدين ومع هذا يتاجرون في أشياء يحرمها الدين ، ولا يجدون من الفلاحين إلا حسن العلائق » .

* وهل احتاج أجنبي يوماً إلى عسكري إنجليزي ليحميه من أحد من المصريين ؟ :

* ثم وجود هذا الحشد من الأجانب وسط الشباب الوطني الثائر في احتفال تذكى فيه شعلة الوطنية ، ومع هذا لا يبادلهم المصريون غير الاحترام والود دليل فوق الأدلة على بطلان الاتهام .

* أما ختام الأدلة فكان أقطع من السيف « فلو كانت الأمة المصرية متعصبة أكانت تسمح لأبنائها بأن يذهبوا لمحاربة أمة أشد تمسكاً منها بالإسلام .. ثم : ألا يقول الإنجليز ودعاة الاحتلال إن المصريين راضون عن الاحتلال محبون لحكم الإنجليز فكيف تكون الأمة في آن واحد متعصبة في الدين ومحبة للإنجليز ؟ » .

★ ★ ★

وثمة صفات خطابية أخرى يشترك فيها مصطفى كامل مع كثيرين غيره كالاقتباس أو التضمين ، أو مزاوجة الإسلوب بين الترسل وبين استخدام المحسنات ، وكحسن التقسيم واستخدام وسائل التوكيد.

ومن نماذج الاقتباس وحسن الاستشهاد الذي كان يحسن التمهيد له بما يجعله قوي الدلالة واضح الأثر ما قاله حين كان يتحدث عن سياسة إنجلترا في مصر أمام جمهور أوربي بعضه من الإنجليز .

« وكل الذين يعرفون للشرف معنى يعتقدون مثل « غامبتا » أن ليس هناك سياسة حقيقة فعلية مثمرة إذا اعتدت القوة ولو لزمن مؤقت على المبادئ الراسخة للعدالة والإنسانية (١) » .

ثم قوله في خطبة أخرى تعقيباً على ما أبداه بعض الإنجليز من الدهشة لمطالبته المصريين بالجلاء :

---

(١) من خطبته بالإسكندرية في ١٣ من إبريل سنة ١٨٩٦ — الرافعي — مصطفى كامل ص ٤٤٥

« كيف يدهش هؤلاء من مطالبة المصريين بالجلاء وفيهم (يعنى الإنجليز) من يقول :

« إنه يحق للمصريين أن يبغضونا من عميق قلوبهم إذا أقمنا طويلاً بينهم مهما أسعدناهم ، وأسبغنا عليهم من النعم ، لأن الاستقلال لا ثمن له » (١) .

★ ★ ★

ومن نماذج حسن التقسيم المقترن عنده بالتدفق الخطابى وخاصة فى المواقف التى يتخذ فيها حالة التصميم والإصرار على رأى أو اتجاه قوله :

« فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية .

نحن مسلوبون ، والإنجليز هم السالبون ، ونحن طلاب حق مقدس ، والإنجليز هم مغتصبو هذا الحق ، فلا سبيل إلى الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ، ورده إلينا » (٢) .

★ ★ ★

أما وسائل التوكيد فهى نفس الوسائل المألوفة من التوكيد اللفظى فى مثل قوله « مصر اليوم التى تمثل الاستسلام للإنجليزى هى التى ردتهم عن الديار تحت إمرة محمد على وقالت له : مكانك أيها المهاجم مكانك أيها الداخل . مكانك أيها المزاحم ، إنى أمة حية تأبى الضيم والهوان (٣) » .

كما كان يستخدم أدوات التوكيد المعروفة والتى لا سبيل لحصر نموذجها وكذلك كان يستخدم التقديم والتأخير فى إحداث ألوان من التأكيد كقوله :

« باطلاً يعتقد البسطاء أن الإنجليز مع كونهم ينوون البقاء فى مصر يقبلون منح أهلها حكومة دستورية » .

أما عن إسلوب مصطفى كامل بين الترسل والتزام المحسنات فلا يستطاع وضعه تحت لون منهما . ومن العسير على من يراجع المأثور من خطبه أن يجد فيها — ولو واحدة —

(١) الكلمة المقتبسة للورد دوفرين — عن الرافعى — مصطفى كامل ٤٦٣ .

(٢) الرافعى — مصطفى كامل ص ٤٥٦ .

(٣) نفس المصدر — ص ٤٧٦ .

تخلو خلواً تاماً من السجع ، ومن العسير كذلك أن نجد له خطبة – ولو واحدة – تقوم كلها على التزام المحسنات.

فالإسلوب مزيج من هذا وذاك ، فيه الصورة الأدبية وفيه العبارة المجردة ، وفى بعض حالاته تبرز فيه لغة الأرقام إلى جوار تعبيرات رائعة كأنها الشعر فى العاطفة والخيال .

★ ★ ★

ولقد لاحظت أن الترسل عنده هو صفة خطبه القصار ، بينما تمتلئ الطوال منها بآثار العناية وبالمحسنات ، ولعله كان يحبر الطوال منها ويعدها ويدع نفسه فيها لتعطى الإسلوب حظه من الزينة الأمر الذى لم يكن يتوفر فى الخطب القصار التى تتم بالارتجال.

وإذا صحت الملاحظة كان الأصل هو الترسل فى طبيعة مصطفى كامل يلتزمه دائماً فى حالة الارتجال فتجيء العبارات على لسانه دفاقة من فيض مشاعره ، مليئة بالحرارة والقوة والصدق ، وفى غير حاجة إلى تحسين خارجى (١) » .

فإذا خلا إلى نفسه ليكتب خطبه – وقد كان يفعل هذا أحياناً – فإنه يحرص على التأنق ويهتم بالمحسنات .

وميزة خطيبنا على غيره هى مقدرته على التمهيد القوى للنص المقتبس بما يزيد فى أهمية الاقتباس ويضاعف من تأثيره ، رأينا هذا عنده فى اقتباس فقرة من كلمات « غامبتا » الذى يعرفه كل الإنجليز وكانت الخطبة حول سياسة إنجلترا فى مصر ، وبين سامعيها كثيرون من الإنجليز (٢).

ومرة أخرى حين عرض لما أبداه بعض الإنجليز من الدهشة لثورة المصريين ومطالبتهم بالجلاء . فإذا مصطفى كامل يعلن دهشته من اندهاش الإنجليز وفيهم من يقول :

« ... إنه يحق للمصريين أن يبغضونا من أعماق قلوبهم ، إذا أقمنا طويلاً بينهم مهما أسعدناهم وأسبغنا عليهم من النعم .. لأن الاستقلال لا ثمن له »(٣) » .

ويلاحظ كذلك فى أمر الاقتباس عنده هو اقتصاره على الأخذ عن المصادر الأوروبية وعن الفرنسية خاصة ، ويندر بينها الاقتباس من أصول عربية أو إسلامية وخلال أكثر من مائتى صفحة من الخطب فى مختلف الموضوعات يندر أن تجد اقتباساً من أصل عربى .

(١) الرافعى – مصطفى كامل ص ٤٦٦–٤٩٦ .

(٢) فى ١٣ من ابريل سنة ١٨٩٦ الرافعى – مصطفى كامل ص ٤٤٥ .

(٣) الكلمة للورد دوفرين – الرافعى ص ٤٦٣ .

وواضح أن ثقافة الخطيب الفرنسية كان لها أثر فى ذلك ، أو لعله كان يحرص حرصاً مقصوداً على الاقتباس من المصادر الأوروبية حتى يكون على ثقة من تأثيرها على السامعين الأوروبين .

★ ★ ★

وفيما يتصل باستخدامه للمحسنات أو إعراضه عنها لم تكن ثمة خطب مرسلة وأخرى مليئة بالمحسنات وإنما كان أسلوبه مزيجاً من الترسل واستخدام المحسنات ومزيجاً من الصور الأدبية والعبارات المجردة ثم هو مزيج من إسلوب لغة الأرقام إلى جوار قطع كأنها الشعر فى الخيال والتصوير وحدة العاطفة .

وقد لاحظت أن الترسل عنده صفة خطبه القصار (٣) ، على حين تمتلىء الطوال منها بآثار العناية بالمحسنات ، ولعله كان يهتم بإعداد خطبه الطويلة فينمقها قبل أن يلقيها . الأمر الذى لا يحدث فى الخطب القصيرة التى يغلب عليها الارتجال .

وإذا صدقت هذه الملاحظة يكون الترسل هو الأصل فى طبيعة مصطفى كامل الخطابية ، والذى يبدو على الطبيعة حين يرتجل ، أما حين يكتب خطبه ويعدها فتتوارى الطبيعة قليلاً أمام رغبة الإجادة والتفوق الفنى .

★ ★ ★

نموذج من خطابته :

« ماذا يريد منا الإنجليز ؟ »

أيريدون أن نسمى سيئاتهم حسنات ؟ ونصفق لضياع حقوقنا واستيلائهم على بلادنا ، وتجريدهم إيانا من كل سلطة ونفوذ ؟

من منا يذكر السودان ويشكر المحتلين الذين أنكروا حقوقنا فيه بعد أن روينا أرضه بدمنا وأنفقنا عليه الأموال الطائلة ، وأى مصرى يرضى عن قوم لا يعرفون العدل والإنصاف والمساواة ؟

كيف يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالإنجليز وهم الذين يدعوننا كل يوم إلى إساءة الظن بهم ؟

---

(٢) بالنسبه لخطبه الطويلة ، وإلا فهى طوال فى مجموعها .

(٣) كان يفعل أحيانا .. الرافعى – ٤٦٦ /٤٩٦ .

وكيف يصدق المصريون أن الإنجليز حقيقة يريدون لهم الرقى والتقدم ، وهذا « دنلوب » يأمر مديرى المدارس العليا بالطعن الصريح فى كفاية كل مصرى .

وإذا تركنا « دنلوب » وارتقينا إلى رؤسائه وجدنا سياستهم قائمة على تجريد المصريين من كل سلطة ، وإبعادهم عن كل منصب ذى خطر ، والاستعانة بالضعفاء والمارقين على تمثيل مصر فى المناصب التى يشغلونها بأسوأ صورة .. فهل بعد هذا يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالإنجليز ؟ وهل هناك عداء صريح من قوم لآخرين .. أكبر من هذا العداء ؟ . أليست دنشواى وحدها كافية لأن تثبت على مدى الأجيال أن الإنجليز أهانوا المصريين إهانة لا تنسى ؟ ولا يمكن أن يختلف منصفان فى الحكم عليها ؟

أيعاقب أهالى دنشواى بتلك الشدة المتناهية لأن الأمة لم تكن مع الإنجليز فى مسألة « العقبة » ؟

إن الرجال لا يحكمون بمثل هذه السياسة ؟ ولا تدبر أمورهم بمثل هذا الاعتساف ألا فاقرءوا التاريخ الإسلامى معاشر الإنجليز وانظروا فى أعمال الخلفاء العظماء الذين كانوا يمتثلون للحق ، ولو كان قائله من أحقر الناس .

٢ ــ محمد فريد

الرجل الثانى فى مدرسة الإيقاظ والحماسة الوطنية مدرسة الجلاء والدستور، عاش قصة البعث الوطنى منذ أيامها الأولى مخلصاً ومضحياً عظيماً فى سبيلها ،حملته الأقدار بعد وفاة مصطفى عبء قيادة الحركة الوطنيةفنهض بتبعاتها قوياً شامخ الهمة وضرب لمواطنيه أروع الأمثال فى التضحية والفداء.

هذا هو الرجل الذى كانت خطبه السياسية صورة دقيقة من أخلاقه وشمائله .

* * *

وإذا كان محمد فريد حوارياً مخلصاً لمصطفى كامل فى المذهب الوطنى فهما فى أسلوب الخطابة مختلفان .

فهناك عند مصطفى كامل الموهبة العارمة والطبع المتدفق والافتنان فى الأساليب حتى يتحقق التأثير على نحو رائع آخاذ .

أما عند محمد فريد فنحن أمام رجل لا يعنيه الافتنان فى القول ، ولا يحرص على الجمال والروعة ، وإنما يعنيه أولا ً وأخيراً أن يصل بتجربته إلى سامعيه من أقصر الطرق نفاداً إلى العقل ، وأكثرها اعتماداً على قوة الحقيقة.

وأساس الفارق بين خطابة الرجلين يقوم على الفارق بين طبيعتين وبين ظرفين مختلفين . فمصطفى كامل كان الخطيب الشاب الممتلىء حماساً والمتدفق عاطفة .

أما محمد فريد فكان الرجل الذى أثقلت الأيام كاهله بالأعباء ، وجعلت عقله أحدّ كثيراً من حسه وعواطفه .

كما كانت طبيعة الحركة الوطنية حين ولى قيادها محمد فريد فى وضع يختلف عما كانت عليه تحت لواء مصطفى كامل .. وكان على فريد أن يبدأ من حيث انتهى سلفه ، فيتجه بخطابته إلى توعية وطنية تقوم على التعقل والفهم بعد ماقام سلفه بمهمة الإيقاظ والتنبيه .

ومن هنا يكون الانتقال من خطابة تقوم على استثارة الوجدان عند مصطفى كامل إلى أخرى أساسها محادثة العقل عند فريد هو الشيء المتفق وتطور الحركة الوطنية .

★ ★ ★

كان رثاء مصطفى كامل أول مناسبة سمعنا فيها صوت فريد بعدانتخابه رئيساً للحزب الوطني (١) . ولم يكن قد مضى على وفاة رئيس الحزب أكثر من ثلاثة أيام ، ومشاعر الوطنيين ماتزال مفعمة بالأسى لفقده، ولا يزال يرن فى الأسماع صوته وتحرك كلماته القلوب وترددها الشفاة .

وأى رجل تلقى به الأقدار فى مثل موقف فريد هذا مهما تكن مقدرته الخطابية فلن يكون دوره أبعد من تذكير سامعيه فى كل كلمة ، وكل حركة أو إشارة بالرجل الذى كان هذا مكانه ، وهذا ما عبر عنه فريد صراحة فى قوله :

« إن هذه المرة الأولى التى أتشرف فيها بالوقوف أمام مثل هذا المجتمع الرهيب ، وكنت أود ألا أقفه بل كنت أفضل أنى لم أكن فى يومنا هذا شيئاً مذكوراً لأنه ماحدا بى إلى هذا الموقف إلا وفاة صديقى الحميم ورئيس الحزب الوطنى المغفور له مصطفى كامل باشا » .

ومن هذه المرة الأولى رأينا خطيباً يوجه عناية إلى الأحداث والحقائق ويبدو الفارق واضحاً بينه وبين سلفه ، ونسمعه للمرة الثانية فى حفلة التأبين الكبرى فإذا هو يبدؤها من حيث انتهت خطبته السابقة فيؤكد أن مصطفى لم يمت ، وأن الجنود الذين حملوا اللواء من بعده لا يزالون ماضين على نفس الطريق ، ثم يستمر كما كان هناك فيعرض الأحداث والوقائع ، ويتركها وحدها تتحدث ، وحتى فى مثل هذه المناسبات التى لا مجال فيها لذكر الوقائع أو الاستشهاد بالأحداث المحددة رأينا فريداً يقتبس فقرتين غير قصيرتين من رسالتين كتبهما إليه مصطفى كامل من « فينا » (٢) و « بودابست » ثم يعقب عليهما تعقيبه الهادىء الذى لا يحفل برنين العبارة قدر اهتمامه بقوة الواقع والأحداث .

★ ★ ★

فنية الخطابة عند فريد

خطيب الجلاء والدستور

كانت خطب فريد كخطب مصطفى كامل سجلاً دقيقاً تنعكس فيه الأحداث السياسية بكل أصدائها على الشعور الوطنى.

---

(١) الرافعى — محمد فريد ص ٤٠٠ .

(٢) ، (٣) فريد ص ٤٧|٤٨ .

وإذا كان جهاد مصطفى كامل قد تركز فى معظمه لمحاربة الاحتلال البريطانى مما جعل « الجلاء » هو موضوعه الأكبر ... فإن فريداً كان منذ أيامه الأولى فى رياسة الحزب الوطنى يحارب فى جبهتين :

جبهة المستعمرين وفى وجهها طلب الجلاء ، وجبهة الخديو وأعوانه من المستضعفين والخونة ، وفى وجهها يطلب الدستور . وتبلور هذان المطلبان فى خطب فريد السياسية بحيث أصبح ما عدا الجلاء والدستور عنده مجرد مقدمات أو وسائل لإبراز المطلبين الأساسيين .

« ترك بعضهم المطالبة بالجلاء ، وسموا هذا التحول اعتدالاً فى المبدأ ، وما هو إلا خيانة كبرى للوطن وبنيه ، وأخذوا من ثم فى تولية وجوههم شطر « لوندرة » لطلب بعض الإصلاحات البسيطة ، ونسوا الأمر الأساسى الذى لا يجوز أن يكون لنا مطلب غيره من الإنجليز : ألا وهو الجلاء العاجل » (١) .

« إن كل ما طلبه هذا الوفد سنحصل عليه فى وقت قريب حينما يرد إلينا الدستور الذى نطلبه إلا من الخديو ، فلتكن كل قوانا وكل مساعينا موجهة إلى نيل هذا الدستور الذى أصبح على الأبواب » .

وفى مؤتمر « الأمم المهضومة الحقوق » الذى عقد فى لندن كانت أبرز فقرة فى فى خطاب فريد تلك التى قال فيها :

« أوجه الكلام إلى جميع الأحرار ، وأناشدهم أن يطالبوا حكومتهم ألا تمنع الخديو من رد الدستور إلى مصر ، وأن يعملوا على الوفاء بالوعود والعهود التى صرح بها حكام الإنجليز باسم الأمة الإنجليزية » .

وفى مؤتمر « بروكسل » كانت كلمته صريحة كل الصراحة فى تحديد أهداف الحركة الوطنية حين قال :

« أما برنامجنا فإنه يجتمع فى كلمتين : الجلاء والدستور . »

* * *

ولو مضينا نستقرئ ذكر الجلاء والدستور فى كفاح فريد لألفيناهما موجودين كلما خطب أو كتب ، ولكن الجلاء والدستور لم يكونا وحدهما موضوع خطب فريد ،

---

(١) الرافعى محمد فريد ص ٧٤ / ٧٧ .

ولم يكن ممكناً أن يحدث ذلك فقد تناول فى خطبه كل أحداث الساعة التى يتكلم فيها ويتناول كل أمر يكون تناوله من الواجب الوطنى .

فقد تحدث عن « الوفاق » وأهاب بالخديو ألا يطمئن إليه ، وألا يعتمد على غير أمته :

« يجب على الملك أو الأمير أن يستمد قوته من الأمة ، دون غيرها ، ويجب على الجالس على العرش ألا يعتمد إلا عليها فهى عدته وقوته (١) » .

وأعرب صراحة عن رأى الوطنيين فى أن اختلاف السياسة البريطانية بين «الوفاق» أو « الشقاق » لا أثر له عندهم فى جوهر العمل الوطنى الذى يسعى لاستخلاص حقوق الأمة من عدوها سواء كان بالخارج أم فى الداخل .

« إن استبدال عميد بعميد ليس بالشيء الذى يطربون له مادام الاحتلال موجوداً . نعم لقد صدق « كرومر » فى خطابه ببور سودان حيث قال « إنجليزى يذهب وإنجليزى يجيء » لأننا نعلم أن للاحتلال الإنجليزى خطة مرسومة هى ابتلاع وادى النيل .. » وسواء كان المنفذ لهذه السياسة كرومر أو جورست أو كتشنر فالنتيجة واحدة ما بقى من أبناء مصر من يوقع على مايطلبون إصداره من أوامر أما الأمة التى يقع عليها أثر هذه الأوامر ، فسيان لديها أن تكون السياسة سياسة وفاق أو سياسة شقاق . »

* * *

وفيما بعد « الوفاق » وما « قبله » كانت سياسة الاحتلال فى مصر من أبرز الموضوعات فى خطاب فريد ينال منها ويشهر بها ويفضح على الدوام سوءات الاحتلال :

« هل يرجى إصلاح من الإنجليز وهم الذين أفسدوا نظام الإدارة ، وأتوا إلينا بشبان من بلادهم لا يعلمون شيئاً من أخلاق الأمة المصرية ، ولا عوائدها وقيدوا المديرين حتى فى أصغر الأمور ؟

« هل يرجى منهم إصلاح بعد أن أصبحت البلاد بلا جيش يحمى ذمارها ؟ ماذا أقول ؟ كيف يرجى الإصلاح من سالبى استقلالنا ؟ وكيف ترجى مساعدة الغاصب الطامع فى ابتلاع بلادنا ؟ »

وقد تميزت خطب فريد والوطنيين عامة — عند هجومها على الاحتلال — بغلبة روح البحث وبالدقة العلمية فى كل ما يقال حتى أصبحت خطبهم فى المؤتمرات السنوية للحزب تقارير فنية مدروسة فى كل موضوع تعرضت له .

* * *

---

(١) — الرافعى — فريد ص ٢٧٤-٢٧٨ .

ويبدو أن الصراع السياسى الحاد الذى دار بين الوطنيين وبين غيرهم قد أبرز أمام « فريد » حقيقة الداء الذى تعانى منه القضية الوطنية ، وهو داء فى الأخلاق قبل أن يكون داء سياسة ، ولذا رأيناه يكثر الحديث عن القيم والمبادئ ممجداً إياها ناقماً على طلاب المغانم الشخصية الزائفة .

« إن من أسباب تأخرنا السياسى المحاباة ، والمجاملة فى المعاملات السياسية وغيرها فإذا سألنا حاكم أو عظيم عن رأينا فى أمر من الأمور اجتهدنا فى جعل الجواب أقرب إلى ما يعتقده هو لا إلى ما يعتقد المسئول ، وهذا نقص فى تربيتنا السياسية وأخلاقنا القومية ، فيجب علينا ألا نحابى فى الجواب بل يجب علينا أن نحتج على كل كلمة نسمعها مخالفة لرأينا » .

ويبدو كذلك أن هذا الصراع ضد أصحاب المصالح الخاصة الذين كانوا إذ ذاك من جيل فريد أو من السابقين له ، قد جعله يولى وجهه شطر الجيل الصاعد ، فيحتضن الشباب ، ويفتح لهم أوسع أبواب المشاركة فى شئون الحزب ويعتبرهم أصلح العناصر والمسئولين الأول عن دفع الحركة الوطنية ، وفى هذا يقول :

« ويسرنى أن أخبر حضراتكم أن حزبنا الوطنى يزداد رسوخاً سنة بعد سنة ، ويقوى ساعده وتشتد عزيمته بدخول الشبيبة فيه وانضمامهم إليه ، فتبعث فيه روح الفتوة ونشاط الشباب » . (١)

ومن بين الموضوعات التى برزت مع الجلاء والدستور فى خطب فريد موضوعان لهما أهميتهما .

أما أولهما : فهو الدفاع عن كتلة الشعب من الفلاحين الذين كان المحتلون يزعمون أنهم راضون كل الرضا عنهم ويؤيدونهم ، وأن أصحاب الجلاليب الزرقاء ، كما قال كرومر يشعرون بالعدالة فى ظل الاحتلال وهم به سعداء .

وأما الثانى : فهو الخاص بتشريعات النقابات والعمال الذين كان فريد يعتقد أنهم ليسوا أقل إهمالاً من الفلاح المصرى .

★ ★ ★

وكان موضوع مد امتياز قناة السويس من أهم الموضوعات التى شغل فريد بها وتكلم فيها فوفاها حقها من العناية والبحث :

---

(١) من خطبة فى المؤتمر السنوى للحزب سنة ١٩٠٨ — الرافعى ص ٨٩ /٩٣ .

« مشروع الاتفاق الذى كان يراد حمل وزارتنا على التصديق عليه قبل اطلاع الرأى العام كما حصل فى مشترى سكة حديد الواحات الذى وقع ناظر المالية على نسخته الإنجليزية، وسعادته يجهل هذه اللغة تماماً ، ولم يترك له الوقت لترجمتها إلى العربية ، وصدق عليها مجلس النظار تحت رئاسة الجناب العالى الخديو دون أن يطلع عليها باقى النظار (١) » .

وهكذا نرى أن فريداً لم يغفل فى خطابته أى موضوع أو موقف يتصل بمصالح المدارس العامة من قريب أو من بعيد، وهذا بالطبع ما يتفق وموقفه كقائد وزعيم وطنى ، ولكن أخطاء الداخل ومشكلاته ليست فى الحقيقة سوى نتيجة للمشكلة الكبرى مشكلة ضياع الاستقلال والحرية ، وهى التى كانت محور الخطابة السياسية وغرضها الأكبر عنده فركزها أساساً فى الهدفين الكبيرين : الجلاء والدستور .

★★★

الأسلوب عند فريد

قلنا إن فريداً بدأ من حيث انتهى مصطفى كامل ، واضطلع بمسئوليات الحركة الوطنية بعد أن تكونت ملامحها ، وأخذت شكلها التنظيمى فى الحزب ، وأصبح لها أنصار يهتمون بها ، كما كانت ظروفه السياسية مختلفة عن الظروف التى عاصرها سلفه ، وكل ذلك كان يفرض على فريد أن يغير أساليب المعركة وفقاً لما تغير من ظروف.

وأول ما كانت تفرضه الظروف على القائد الجديد أن يعيش فى واقع موقفه ، ويحمل أنصاره معه على العيش فى هذا الواقع ، بعد ما كان سلفه مضطراً لأن يحملهم طويلاً على أجنحة الخيال حتى ينتزع اليأس ويغرس فى مكانه الأمل .

محمد فريد كان يقود نفوساً مهيأة للعمل مستعدة له، وكل ماتريده فقط أن ترسم لها خططه ، وتوضح لها مشروعاته ، ومن هنا حال أسلوب فريد فى الخطابة إلى عرض الأحداث والتفصيلات والوقائع وتركها وحدها تسعى إلى سامعها .

وحتى فى المجالات التى يتجه فيها الخطباء عادة إلى هدهدة العواطف، كان فريد يؤثر الاهتمام بالواقع وبالحقائق ، ويراها وحدها التى تبقى بعد أن تتخمر آثار الانفعال .



(١) الرافعى – فريد ص ١٢٧ .

وكان للاهتمام بالحقيقة أثره فى أسلوبه بصفة عامة ، فهو لا يعنى بالتأنق فى العبارة ، ولا يهتم كثيراً بالصور الأدبية ، أو بالمحسنات الفارغة ، بل قد لا يرى بأساً فى استخدام بعض التراكيب المستهلكة أو القريبة من السياسة كقوله :

« وأخذ يستعد لتنظيم الحزب الوطنى ، ووضعه على قوائم ثابتة ، حتى إذا لم يكن فى عمره متسع لا يخشى عليه من الانحلال .. لاسمح الله » .

وقوله :

«وتأكدوا أن البذور التى ألقاها رئيسنا المرحوم منذ خمسة عشر عاماً قد نبتت ، ونمت ، وأننا سنجنى ثمار أتعابه » .

« وإن الدموع التى سكبت عليه من يوم وفاته إلى اليوم لكافية لإرواء هذا النبت ، وتغذيته ، فهى أقوى سماد طبيعى » .

ونتيجة للاهتمام بالواقع كان يوفق كثيراً فى تجسيم الحقيقة وتقديمها كما هى للسامع اعتماداً على ماتثيره فى نفوس السامعين من مكنون شعورى وفكرى دون تدخل من جانبه :

« فبينما نجد شوارع ، « جاردن سيتى » بالقصر العالى مرصوفة ... بالمكادام ، وبها الأنوار تتلألأ ، حيث لا ساكن ولا أنيس ، نجد أحياء برمتها لاينفذ إليها نور الشمس نهاراً ، ولا يوقد فيها مصباح ليلاً ، ولا تعرف للنكس والرش اسماً ، مع أن الكل سواء فى دفع عوائد الأملاك » .

« ومن الظلم أن يلزم سكان الحارات بإبقاء المصابيح على أبوابهم ، بمصاريف من طرفهم مع دفعهم للعوائد » .

وربما كان فى كثرة وصفنا لفريد بأنه يهتم بالواقع فى خطابته ما يوحى بأن نصيبه من الفن الخطابى لايكاد يذكر ... ولكن الحقيقة لم تكن كذلك .

فقد كان فريد مثال الصدق الفنى فى الأداء ، الصدق الذى يحكى بدقة مشاعر المتكلم ويصور جوانب نفسه ، ومن هذا الصدق تفتحت أمامه أبواب التوفيق الخطابى من غير قصد منه إلى التفوق فى هذا المضمار.

وإلى جوار هذا الصدق الفنى كانت سمعة الرجل وماضيه وحاضره تتقدم كلها بين يدى خطبه لتجعل لكلماته من التأثير ما يفتقده الكثيرون من مهرة الخطباء .

فى كثير من خطبه كان الفن الخطابى يبلغ عنده ذروة عالية من حسن التصوير وقوة العرض ، والتدفق الخطابى الملفوف بالعواطف الحارة.

خطب فى ذكرى دخول الإنجليز مصر محتلين فبدأ يقول : (١)

« إننا مجتمعون الليلة ، لا للاحتفال بعيد الدستور ، ولا بتاريخ خروج الإنجليز من مصر ولا لإحياء ذكرى عمل مجيد قامت به الأمة ، ولكن أقول مع الأسف الشديد إننا اجتمعنا لنذكر الأمة بأشأم الأيام فى تاريخها ، ذلك اليوم الذى أفل فيه نجم الاستقلال » .

وفريد هنا لا يكاد يختلف عن مصطفى كامل فى مثل هذه المناسبة إذ يبدو حرصهما معاً على تجسيم الجوانب المنوعة المظلمة فى ذكرى سقوط العاصمة ، لاسيما وأن حاضر البلاد كان قد بلغ كل أيام فريد من السوء ومن الهوان ما لم يبلغه على أيام سلفه ، فكان طبيعياً أن تكون الصورة أمام الرجل قاتمة ، وأن يجد نفسه مضطراً لوخز عواطف سامعيه وإيلامهم فى مشاعرهم بما يجمع بينهم جميعاً على الإحساس بمدى نكبة البلاد فى استقلالها وحريتها.

وكانت لفريد طريقته الخاصة به فى تجسيم عيوب خصومه السياسيين والسخرية منهم فحينا عرض لموقفهم من قضية الجلاء سخر من أسلوبهم فى طلب الاستقلال على نحو يبرز نفاقهم وتذبذبهم فقال :

« ثم ظهرت فكرة السكوت عن الجلاء اكتفاء بالتذكير بالوعود ، فإذا ما اعترض عليهم قالوا : إن الجلاء من ضمن هاتيك الوعود التى يطلب الوفاء بها . »

وإذا لامهم أصدقاؤهم الإنجليز قالوا : إننا نطلب الجلاء ، بل وضعنا هذه الجملة المبهمة حتى لايرمينا المصريون بالخيانة ، فهكذا السياسة ، وهكذا الدهاء » .

★ ★ ★

وعندما ناقش الإصلاحات الاستعمارية المزعومة برع فى تجسيم عيوب النظام كله وسخر منه بمرارة فقال :

« ولكن : أتعرفون كيف بدأت إنجلترا الإصلاحات الضرورية لإعطائنا حكومة ثابتة الدعائم شبيهة بالحكومات الأوربية ؟

إنها ألغت النظام الدستورى ، ثم أبدلته بمجلس شورى القوانين ، وهو مجلس

---

(١) يراجع نموذج من خطابه فى نهاية البحث .

ليس له إلا رأى استشارى ، ونصف أعضائه تقريباً تعينهم الحكومة ، وليس لهذا المجلس البائس حق فى مناقشة الجواب والرد عليه ، وواجبه الذى يقضى به القانون أن يطأطىء الرأس ويرضى بأوامر الحكومة » (١) .

★★★

ولم تكن السخرية عند فريد تعتمد على الصورة وحدها بل كانت له طريقته فى استخدام بعض الألفاظ والصفات اللاذعة كقوله على لسان خصومه : « إن الجلاء من ضمن هاتيك الوعود » ؟ ! وكوصفه مجلس شورى النواب بأنه المجلس البائس ، ووصف الحكام والوزراء المصريين فى ظل الاحتلال بصفة البؤس والمسكنة . وكتشبيه موقف إنجلترا من الخديو ومصر بموقفها من حكام المستعمرات البريطانية ، وخاصة ، «رجوات الهنود » .

وقد تميز أسلوب فريد باهتمامه بتلخيص أفكاره فى نهاية خطبه ، وكأنه «أستاذ» يحرص عند انتهاء دروسه على تحديد معالمه ، وإبراز أهم نقطة أمام تلاميذه . (٢)

وعلى ذكر التلخيص لاحظت أنه كان يختم خطبه بأساليب شبه منبرية تغلب فيها عبارات الدعاء والالتجاء إلى الله أن يمنح الجميع التوفيق « إنه سميع مجيب » .

واعتقادى أن وراء مثل هذا الختام روحاً متديناً يستشعر القوة فى الالتجاء إلى الله ، وأن هذا الروح كان يبرز خاصة حين يكون السامعون من المصريين الذين يستجيبون لمثل هذه اللغة .

أما حين يكون السامعون من غير المصريين أو حتى من المصريين فى خارج مصر فإن العبارات السياسية القاطعة تعود لتأخذ مكانها فى نهاية كل خطبة .

★★★

وكما وفق مصطفى كامل فى رعاية الجانب النفسى لسامعيه فإن فريداً هو الآخر قد لقى حظه من ذلك التوفيق بحيث كانت لغة خطابته وخاصة فى افتتاحيتها تتغير بما يوافق الموقف النفسى للسامعين .

فإن كان سامعوه شباباً أشاد بهم ، وأعلن استبشاره من اهتمام الشباب بمستقبل بلادهم وتحمسهم منذ البكورة لحمل تبعاتها .

وإن كان يرثى سلفه العظيم أحسن رعاية جانبه ووفاه حقه ، واقتبس منه كلماته أو من رسائله ما يكون له فى النفوس أجمل الأثر .

---

(١) الرافعى ص ١٢١ |١٢٤ - من خطبته بمؤتمر الشبيبة المصرية بجنيف سنة ١٩٠٩ .

(٢) تراجع نهايتا خطبتيه فى مؤتمر الشبيبة بجنيف ، وفى المؤتمر الوطنى عام ١٩١١ .

وإن كان المخاطبون أوربيين سعى إلى نفوسهم من باب — المصالح — القائمة لدولهم فى بلادنا والتى يكون انفراد إنجلترا بشئون مصر خطراً عليها .

ونذكر من لفتاته النفسية الموفقة تلك التى كانت فى مؤتمر « استكهولم » حينما حرص على أن يضمن كلمته هو فقرات من كلمة الافتتاح التى ألقاها وزير خارجية السويد البلد المضيف ، وتقديمه للكلمة المقتبسة بقوله :

« أستميحكم أن أبدى إعجابى بالأقوال السديدة التى تكلم بها حضرة وزير الخارجية فى حفل الافتتاح (١) » .

فإذا كان الخطاب موجهاً إلى الإنجليز أنفسهم رأيناه — على طريقة سلفه — يحاول كسبهم إلى صفه مستثيراً فى مشاعرهم يقظة الضمير وشرف الأمة محذراً لهم من تركهم لبعض الإنجليز من ممثلى الاحتلال فى مصر يسيئون بتصرفاتهم إلى سمعة الأمة الإنجليزية كلها .

★ ★ ★

ومن وسائل فريد فى تعزيز أسلوبه الخطابى تقديمه الشواهد والأمثلة لسامعيه فى المواطن التى يكون المثال فيها قاطع الدلالة فى الموقف المعروض .

• تحدث فى إحدى خطبه عن العلم والوطنية ، وعرض لما كان يذهب إليه خصومه من ضرورة إبعاد العلم عن السياسة ، وكان يرى أن فى هذا تجنياً على صالح الوطن بحرمان ميدان الكفاح الوطنى من صفوة العناصر الوطنية ، ثم قدم المثال الحى فقال :

« تعرفون كلكم من هو « باستور » الذى طبقت شهرته الآفاق ، وأهداه الملوك أكبر أوسمتهم ، ومن بينهم إمبراطور ألمانيا فقد رفض « نيشانه » لأنه عدو بلاده وقاهر أمته » (٢) .

• وعندما اغتيل بطرس غالى ، ونهضت سلطات الاحتلال لتشهر بالوطنيين المصريين ، وترميهم بالتعصب رأينا فريداً يحرص على توضيح حقيقة الموقف فى أن اغتيال بطرس غالى لم يحدث لأنه مسيحى ، ولكن لأنه مصرى انحرف عن الطريق الوطنى فيما رأى القاتل .

وأياً كان الأمر فليس ما حدث فى مصر منعدم النظير فى العالم ، بل ما أكثر ما تحدث أمثال هذه الحوادث دون أن يوجه الاتهام إلى الأمة كلها فيقول :

---

(١) الرافعى محمد فريد ص ٢٠٨ .

(٢) « « « ص ٨٠ .

« إن الجرائم السياسية ترتكب كل يوم فى أوربا وأمريكا الرئيس كامرونون فى فرنسا والملك امبرتو فى إيطاليا ، والامبراطورة اليزابيث فى النمسا ، والدوق كارلوس فى البرتغال ، فلم تفكر الأمم الأخرى فى احتلال بلادهم أو الإغارة عليها » .

★★★

وقد تميزت خطب فريد فى مجموعها بارتفاع مستوى الوعى السياسى ودلالتها على ما كان يتمتع به من ثقافة سياسية عالية وناضجة تبرز فى أحكامه على المواقف ودقة تقديره للأمور .

• فحينما نشط — المعتدلون — فى طلب الإصلاح والدستور من الإنجليز باعتبارهم السلطة المتصرفة فعلاً فى شئون البلاد — حين حدث هذا ثار فريد ، ورأى فى هذا اعترافاً ضمنياً بسلطات المحتلين يجعل لتصرفاتهم صفة شرعية فى بلادنا ، وفى هذا أكبر الخطر حيث يقول :

« وإذا كان لا يمكن منحنا المجلس النيابى إلا بعد استشارة إنجلترا فنحن نعلن جهاراً بأننا نفضل عدم الحصول على الدستور مؤقتاً على أن نأخذه بهذه الصفة التى يكون من ورائها القضاء على استقلال البلاد (١) »

★ ★ ★

• وحين حضر مؤتمر الشعوب المهضومة الحقوق فى لندن سنة ١٩١٠ ، وعرض لاتفاقية السودان دفع بعدم شرعية صفة ممثل الخديو فى التوقيع على المعاهدة لأنه من حق السلطان ، ولم يتنازل عنه بعد ، كما دفع بعدم تكافؤ طرفى الاتفاق ، وعدم ملاءمة الظروف التى تم فيها ، وبهذا كله تصبح أمراً مفوضاً ، لامعاهدة جديرة بالوفاء.

• وكان تفسير فريد للحروب الاستعمارية فى العصر الحديث متفقاً وأحدث الآراء فى هذا المجال ، فقد أعلن فى إحدى خطبه بمناسبة العدوان الإيطالى على تركيا أن هذا العدوان فى القرن العشرين ليس إلا نكسة صليبية تحت أسماء زائفة .

« إن هذه الحرب التى تعلنها إيطاليا على تركيا من غير مسوغ ليست إلا حلقة من سلسلة الحروب التى بدأت فى القرن الثانى عشر من الحروب الصليبية ، ومهما حاول السياسيون إسنادها إلى أسباب دهنت بطلاء الإبهام والتغرير فما هم بمزحزحيها عن كونها استمراراً للحروب الصليبية الموجهة ضد الأمم الشرقية إسلامية وغير إسلامية » .

---

(١) الرافعى — محمد فريد ص ٥٥ .

تلك هى الملامح البارزة للخطابة السياسية عند فريد .

تصوير دقيق للواقع السياسى بكل مافيه ، وتركيز لمشكلة البلاد الكبرى فى « الجلاء والدستور » ودعوة متصلة إلى نيلهما ، هذا إلى نداء متصل كذلك إلى الأخلاق والمثل العليا ، والتذكير الدائم بضرورة الاتحاد ، والتكتل وائتلاف عنصرى الأمة .

أما فى أسلوبها فقد رأينا لغتها أقرب إلى لغة الحياة منها إلى اللغة الخطابية الأنيقة ، وهى فى مجموعها لغة تخاطب العقل وتحاول إقناعه بالمنطق والبرهان .

« بعد مصطفى وفريد »

لم يكن مصطفى كامل ومحمد فريد مجرد رجلين أوتيا حظهما من الزعامة السياسية التى تجمع إليهما القلوب ، وإنما كانا زعيمى مدرسة فى الخطابة السياسية سلاح الوطنية الأول .

وعلى الرغم من ضخامة الرصيد الخطابى الذى خلفاه لنا ، فإنه لم يكن كل الرصيد الخطابى لرجال الحزب الوطنى ، بل كان هناك الكثيرون من الخطباء ومن الرجال والشباب .

وعلى الرغم مما ألفينا من قوة النفوذ الخطابى الذى كان يتمتع به زعيم الحزب الوطنى بحيث ينطفىء إلى جواره كل نفوذ ، فقد كان هناك أكثر من واحد من رجال الحزب استطاعوا أن يستأثروا بالقلوب ، وأن يكون لهم نفوذهم الخطابى ، وتكون لهم أسماؤهم إلى جوار العمالقة .

ومن بين هؤلاء يبرز أمامنا الشيخ عبد العزيز جاويش وإسماعيل شيمى ، وعلى فهمى كامل وغيرهم من الخطباء الذين كانوا ذوى ماض حافل فى النضال أكسب خطبهم السياسية من القوة والتأثير ما كان يفتقده الكثيرون .

٣ ـ الشيخ عبد العزيز جاويش

يعتبر واحداً من الرواد الوطنيين الذين شاركوا بنصيبهم الملحوظ فى حركة الإصلاح والتحرير على السواء ، وتعرض بسبب آرائه لكثير من ألوان الاضطهاد ، والعسف ، وكان بوسعه ــ لو شاء ــ أن يحيا حياة رتيبة آمنة كما كان يعيش غيره ممن بلغوا فى الوظيفة مثل منزلته .

ولكن طبيعة النضال فى مثل هذه النفوس التى لايطيق أصحابها رغد العيش وبلادهم فى الضيق ، مثل هذه الطبائع المناضلة تفرض على أصحابها أن يهجروا الحياة الوادعة مختارين إلى ميادين التضحيات والمشقات .

* * *

ويصور الشيخ عبد العزيز جاويش هذه المعانى بقلمه فيقول فى أول افتتاحية كتبها بعد توليه رئاسة تحرير اللواء . (١)

« بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ، ومطيتها الدهان ، والتلبيس فى أسواقها النافقة ، تشترى فيها نفسيات النفوس بزيف الفلوس وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس .

« وبعونك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة فى القول حياة الجهر بالرأى ، حياة الإرشاد العام ، حياة الاستماتة فى الدفاع عن البلاد العزيزة .

« أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر منبرياً فى ميدانها ، فإما إلى الصدر ، وإما إلى القبر » .

وفى هذه الافتتاحية يجدد الشيخ موقفه السياسى الذى يلتزم فيه برفع الصوت دفاعاً عن مطالب الوطن حتى يبلغ أبواب السماء ، ويقف نفسه وقلمه على خدمة الأمة

---

(١) اللواء .. عدد ٣ من مايو سنة ١٩٠٨ .

المصرية والدفاع عن الأريكة الخديوية ، ما حرصت على مصلحة رعاياها ، ومجاهدة الإنجليز ما بقوا فى بلادنا .

أما وسيلته :

« فهى اللسان الناطق بالحكمة والصواب ، والقلم الذى لا جولة له فى ميادين القحة ، ولا علم له بمعاهد الفحش والسباب » .

والغاية والوسيلة اللتان حددهما الشيخ لنفسه كانتا هما الغاية والوسيلة للحزب الوطنى ، ولذا لم يكن عجباً أن يتعرض للأذى من المحتلين ومن أعوانهم ، وأن يتربصوا به الدوائر حتّى حبسوه فى القضية المشهورة « قضية الكاملين » (١) ، ثم حوكم ثانية من أجل مقال كتبه عن « دنشواى » عدته النيابة طعناً فى رئيس الوزراء بطرس غالى باشا ، وحكم عليه هذه المرة بغرامة قدرها أربعون جنيهاً عدلت عند الاستئناف إلى الحبس ثلاثة أشهر ، كما حوكم بعدها فى قضية « المنشورات » وكان وقتها فى تركيا ، فسلمته الحكومة التركية لمصر على غير ما يجرى به العرف . وحكم عليه بالسجن سنة لكتابته مقدمة كتاب « وطنيّتى » للشيخ على الغاياتى.

وهذا التاريخ الحافل بالنضال والحيوية ، والامتزاج التام بالقضية المصرية كان جديراً به أن يخلف لنا تراثاً خطابياً أوفر كثيراً مما أثر عن الشيخ .

ولكن لعل إشرافه على صحف الحزب الوطنى ومباشرته التامة لها جعلته يؤثر بحكم العمل أن يشرع قلمه مدة أطول مما كان يشرع فيها لسانه .

ومع هذا لم يكن الشيخ يوجد فى مجتمع تستخدم فيه الكلمة المنطوقة حتّى نراه عالى الصوت قوى التذكير حاضر البديهة شأن أى خطيب مطبوع .

★ ★ ★

أقام الحزب الوطنى مأدبة بمناسبة انعقاد الجمعية العمومية وكان يشهدها محمد فريد رئيس الحزب إذ ذاك ، وجاء دور الشيخ فى الكلام فاستطرد إلى ذكر الأيام التى قضاها فى سجنه ثم التى قد يقضيها ، ومن هنا عرج فى سخرية بالحكومة وبالعدالة على ما تخبئه الأيام لرئيس الحزب الوطنى ، وكان ينتظر محاكمته بعد ثلاثة أيام من المأدبة ، فابتسم فريد لهذه الإشارة ، فقال جاويش مستمراً فى خطبته :

---

(١) الرافعى – محمد فريد ص ٧٢ / ٧٥ .

« إنني أسر لرؤية الرجال يبتسمون لما ينزل بهم من الشدائد ، فيستوى لديهم الرخاء والشقاء ، ولا تؤثر فيهم المحن والمصائب » .

ولست بحاجة إلى القول بأن مثل هذا التعقيب على بساطته يكشف عن بديهة خطيب مطبوع قوى السيطرة على عقله ولسانه .

ولكي نحدد مكان عبد العزيز جاويش بين الخطباء الوطنيين الكبار سنقف أمام آخر أثر خطابى له ، وهو الذى ألقاه فى رثاء المرحوم محمد فريد (ولو أن هذا الخطاب كان سنة ١٩١٩ أى بعد إعلان الحماية) .

فى هذه الخطبة لن أبحث عن الأغراض السياسية أو المعانى الوطنية ، فتلك عند رجال الحزب الوطنى كانت قد أصبحت شيئاً مطرداً لاتكاد تخلو منه خطبة من خطبهم .

ولكنى سوف أنظر لمقدار ما تدل عليه من الكفاية الخطابية فى موقف تنعقد فيه ألسن الكثيرين ، وتحل العبرات فيه محل الألفاظ والصور .

بدأ الشيخ خطبته يقول :

أيها السادة : أمام جثة هامدة وميت لا يعى نحن واقفون ؟ كلا ...ثم كلا سأل وأجاب « كلا » .

فإذا جاء الخطيب ليضع الواقع الذى لا شك فيه موضع الشك الكبير ثم يسرع بالإجابة بما ينفى هذا الواقع الذى يلمسه الناس بأيديهم ، ولا يكتفى بل يسرع فى تقديم الدليل على مايقوله فنى هذا ـ ولا شك ـ مايهز انتباه السامعين ، وينزع مشاعرهم من غمرة الموقف بكل مافيه من رهبة ، ويفرض على عقولهم اليقظة لما سيقول الخطيب من تفسير ، وهذا وحده توفيق خطابى كبير فى الاستهلال والسيطرة على انتباه السامعين.

ولما كان ما يريد الخطيب إثباته ، وهو أنهم ليسوا واقفين أمام جثة هامدة ، شيئاً غريباً على الشعور فى مثل هذاالموقف ، فقد استخدم الخطيب أكثر من وسيلة من وسائل التوكيد ثم ألقى بعدهابالتفاتته الخطابية البديعة التى لا يستطيع واحد من السامعين أن يتشكك فى صحتها فقال :

« نحن وقوف أمام صفحات من تاريخ الجهاد الأكبر فى سبيل الحرية البشرية ، وفى سبيل الذود عن الحقوق الطبيعية للشعوب الإنسانية ، وفى سبيل مصارعة الأمم ذات المطامع .. »

ولما كانت أبرز صفات فريد تضحيته النادرة فى سبيل القضية الوطنية ، وإيمانه العميق بالمثل العليا ، فقد كان على الخطيب أن ينحنى هنا أمام جثمانه مكرماً شمائله مسجلاً ملامحه العظيمة فيقول :

« لقد جمع فقيدنا العزيز إلى صلابة العزم جهاداً لايوهنه الملل ، ولا يوهيه الكلال كما ضم إلى الصراحة البالغة فى كتابه وكلامه إقداماً يستهزئ بالغوائل ، ويسخر من من كارثات النوازل (١) » .

ثم لا يدع هذه المعانى تبقى فى الأذهان مجردة ، وإنما يشفعها من رواية الوقائع بما يجسمها فى ذهن كل سامع ، ويذكر العارفين بما قد تنسيهم الأيام :

« لقد رأيناه رحمه الله يوم ساقه الإنجليز إلى السجن بمصر ، فما كان إذ ذاك أقل ابتسامة منه يوم فارقه بعد ستة أشهر كاملة قضاها فى غياباته وظلماته » .

وتتداعى المعانى فى ذهن الخطيب من هذا الحديث إلى عرض أطراف من قصة فريد مع الإنجليز فى مصر وفى غير مصر ، وكيف ثبت على ولائه لمصر وللمثل الرفيعة حتى انتهى الأمر إلى أن يقضى هكذا غريباً عن البلد الذى وهب له عمره وماله وكل حياته ، ولا يكتم الخطيب ألمه أن يكون « فريد » يستشعر الألم حيث وافته المنية ولما ير بلده ، وقد ارتفعت من فوقه راية الحرية ، وفى مجرد التعرض لمثل هذه المشاعر ما يخلق المشاركة الوجدانية القومية بين الخطيب وبين سامعيه . المشاركة فى التألم من أجل الرجل الذى وهب لوطنه كل شىء وما ظفر حتى بأن يموت على أرض هذا الوطن .

وما يلبث الخطيب أن يخرج سامعيه من هذه اللحظات الممضة المؤسفة إلى ما يرد نفوسهم إلى الهدوء ، ويشيع فيها الرضا فيقول :

وإذا كانت حياة الرجال أيها السادة خيراً للأمم التى يخدمونها فكم منهم من أفاد بمماته بمقدار ما أفاد بحياته ، ليس فريد بتلك الجثة الهامدة والنسمة الجامدة ، وإنما هو تلك النفس الأبية والقدوة الصالحة والذكرى الطيبة التى ستتجدد على بلى الأيام ويوالى نشرها إنطواء العصور والأجيال فطوبى لمن سن سنة حسنة . وطوبى ثم طوبى لمن اقتدى بالعاملين (٢) .

وقبل أن يختتم كلمته يعود فيؤكد ماقرره فى البداية من أن المرثى ليس بالجثة الهامدة ، ولا النسمة الجامدة ، وإنما النفس الأبية ، والقدوة الصالحة ، والذكرى الطيبة التى ستتجدد على بلى الأيام .

---

(١) الرافعى — فريد ٢٥٤ /٢٥٥ .

(٢) الرافعى — محمد فريد ص ٤١٦ .

٤ ـ وأما عن على فهمى :

فهو الأخ الشقيق لباعث الحركة الوطنية مصطفى كامل ، والذى عرضته أخوته لمصطفى كامل أن يكون هدفاً للانتقام فى شخصه من أخيه ، حين قدموه للمحاكمة بتهمة الفرار من الخدمة العسكرية ، وهو الرجل الذى كان مسئولاً عن « الشئون الخاصة » للحركة منذ ولادتها حتى بلغت ما بلغته .

* * *

وطوال حياة مصطفى كامل لم يكن لعلى فهمى كما لم يكن لغيره صوت بارز متميز بين خطباء الوطنية لأن صوت مصطفى كامل كان أعلى من كل أصواتهم وكان الجميع يجدون فيما يقول مصطفى كامل ترجمة لما فى نفوسهم فلا يكون ثمة داع إلى البيان والقول .

وبعد وفاة مصطفى كامل وتغير ظروف الجهاز الموجه للحركة وهو الحزب الوطنى وتحوله إلى صورة أكثر تنظيماً فقد كان من الطبيعى أن تتحدد لكل عامل فى هذا الجهاز مهمته ومكانته ، وأن تظهر أسماء وشخصيات لم تكن معروفة من قبل .



وكانت منزلة على فهمى من أخيه تفرض عليه متابعة الجهاد ، وتصنع له بعض النفوذ الخطابى الذى جعله يعلن رأيه فى كل مناسبة .

• أقام شباب مصر احتفالاً بالعام الهجرى فتحدث فيه معرباً عن مشاعر الاعتزاز بقوميته المصرية التى يرى من واجب الشباب انتهاز كل المناسبات لتمجيدها والإعلان عنها .

• وحين أدلى « ثيودور روزفلت » بتصريحاته المعروفة حول القضية المصرية واتهم فيها المصريين بعدم الصلاحية لتولى شئونهم تزعم على فهمى اجتماع الشبيبة المصرية الذى احتجوا فيه على هذه التصريحات وساروا متظاهرين إلى الفندق الذى كان ينزل به محتجين هاتفين بالاستقلال وحياة الدستور وسقوط روزفلت .

وكما قلت فى معرض حديثى عن الشيخ جاويش أننى لن أبحث فى الموضوعات الخطابية التى كان يعرض لها رجال الحزب الوطنى فهذه الموضوعات كانت من طول شرحها والحديث فيها قد أصبحت شيئاً يكاد يعرفه كل معنى بالقضية الوطنية ومهتم بها ، ولم تكن هذه الموضوعات لتخرج عن الاستقلال والحرية كمشكلتين أساسيتين يضاف إليهما ما تأتى به الأحداث والظروف من موضوعات. ولذا سيكون الوقوف بالتفصيل عند موضوعات كل خطيب ليس إلا تكراراً لا داعى له .

ولذا سأختار لعلى فهمى كامل واحدة من خطبه أتناولها بالتحليل الكاشف عن مقدرته الخطابية من الناحية الفنية الخالصة بالقدر الذى يميز شخصيته الخطابية عن غيرها ، وهى تلك التى ألقاها فى رثاء فريد ، ولو أن هذه الخطبة كذلك كانت سنة ١٩١٩ أى بعد إعلان الحماية .

إن الرجل الذى وقف على كامل ليخطب بين الخطباء فى رثائه لم يكن لجثمانه أثر على أرض وادى النيل ، وإنما كان هناك .. فى برلين غريباً وحيداً هناك بين الأحياء والأموات . أو ليس فى ذلك ما يهز أقسى المشاعر وأصلبها ، فكيف إذا كان المرثى والراثى شقيقين فى الجهاد الوطنى جمعت بينهما الأحداث والمحن ، وألفت بينهما صلتهما بباعث الحركة الوطنية . ؟

ويبدو أن على فهمى كامل كان يتحدث وهو لا يكاد يتصور أن يموت فريد هكذا فى بلد لا يعرفه ، ولذا رأيناه فى افتتاحية الخطبة يكرر لفظ « مات » أربع مرات ، ومع اللفظ كل مرة صورة تستثير الشعور .

ولما كان أبرز العناصر فى مأساة فريد أنه قضى غريباً فقد أمضى الخطيب افتتاحيته كلها ليعالج هذا العنصر ، ويتناوله من زواياه جميعاً .

ففريد قد مات محروماً من عطف الأهل فى أدق الساعات التى تعظم فيها منزلة الأهل والولد ، ويكون الحنان الأسرى وحده خير معين على لقاء النهاية .

« مات رحمه الله تلك الموتة التى عرفتموها بعيداً عن أهله ووطنه » ..

ومات بعد أن حرم نسيم مصر ثمانى سنوات كاملات حباً فى تحرير النيل وواديه ، وعملاً لتحقيق أمانى أمته ، وأمانيه » .

★ ★ ★

وعلى خطة الوطنيين فى كتاباتهم وخطبهم من حيث الدعوة إلى المبادئ والمثل رأينا على كامل ينتزع من أعماق المأساة معالم البطولة والمثل العليا فيقول :

« مات فريد غير آسف على فراق أهل أو مال أو بنين ، أو أية نعمة من نعم الحياة .

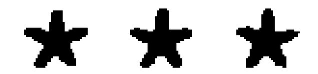
« مات فى ميدان الجهاد مرتاحاً مسروراً لأنه أدى واجب الوطن فوق ما يجب ولفظ آخر نفس من أنفاس الحياة داعياً لأمته العزيزة لديه بالتوفيق لنيل الحرية والاستقلال . »

وبعد أن يفرغ الخطيب من نثر هذه الصورة يلتفت التفاتة بارعة يترك فيها سامعيه جميعاً فى زمانهم ومكانهم ، ويمضى غير الزمن والتاريخ ليوجه الخطاب إلى شقيقه مصطفى فيقول :

« مات فريد يا مصطفى ، مات خليفك الذى أقسم أن لو انتقل فؤاده من الشمال إلى اليمين أو تحولت الأهرام عن مكانها المكين ما تغير له اعتقاد أو تبدل له مبدأ فبر بقسمه وكان من المخلصين » .

« مات ليلحق بك ، وليسكن معك جنة الأبرار المتقين . »

وبهذا الالتفاف الخطابى يضع الخطيب مشاعر سامعيه تحت أقوى محاولة للتأثير تجتمع فيها الذكرى المثارة والوفاء والتقاء الأحباب هناك فى رحاب الله كما تلاقيا واجتمعا من قبل فى ساحة النضال الوطنى .



وجملة القول فى أسلوب على فهمى كامل أنه نسج على منوال المدرسة الأولى ، مدرسة الإيقاظ والإثارة التى صنعها ونماها شقيقه مصطفى كامل ، فنى أسلوبه تكثر الصورة الأدبية ، والمعانى المثيرة ، هذا إلى قدر طبيعى من التدفق الخطابى وحسن ختام الفقرات .

* * *

خطباء الشبيبة

وكان صدى نشاط الكبار فى الحزب ينعكس على الشبية الناهضة ، التى كان أفرادها يشاركون فى كل ميدان ، ويتحدثون فى كل مناسبة ، بل كانت عليهم مسئولية تنظيم الاجتماعات والخطابة فيها ، ليس فى القاهرة وحدها بل وفى عواصم الأقاليم .

• فنى أزمة « مد امتياز القناة » تعددت اجتماعات الشباب لبحثه ، ومنها اجتماع حديقة الأزبكية الذى خطب فيه الأستاذ محمد زكى على . واجتماع آخر بطنطا خطب فيه الأستاذ مصطفى الشوربجى ، وثالث بالمنيا خطب فيه الأستاذ عبد السلام ذهنى (١) .

★ ★ ★

• وحين أعيد العمل بقانون المطبوعات فى مارس سنة ١٩٠٩ نشطت الخطابة السياسية ، وقامت مظاهرات الاحتجاج ضد هذا القرار ، وكانت أولاها مظاهرة الجمعة ٢٦ من مارس وفيها اجتمع آلاف الشبان من طلبة المدارس العليا والأزهر ، وطوائف التجار والصناع بحديقة الجزيرة ، وتوالى الخطباء يحتجون على إعادة العمل بهذا القانون .

ثم تجددت الاجتماعات والمظاهرات فى ٣١ من مارس وألقيت كذلك خطب الاحتجاج ومثل هذا حدث فى اليوم التالى أول إبريل سنة ١٩٠٩ ، وبعد الخطابة تحركوا فى موكب هائل (٢) .

★ ★ ★

وخارج الحدود حيث كان شبابنا يتعلم ويدرس كانت اجتماعاتهم تتوالى للدرس القضية الوطنية ، وفى « جنيف » عقد شباب الحزب الوطنى مؤتمراً للشبيبة المصرية يتولى المختصون الحديث كل فى ناحية تخصصه .

وفى هذا المؤتمر الذى استمر ما يقرب من ثلاثة أيام ألقى المتحدثون أكثر من ثلاثين بحثاً فى أهم الموضوعات وأكثرها خدمة للقضية .

---

(١) الرافعى — فريد ص ١٥٥ .

(٢) الرافعى — فريد ص ١١٢ .

وكان الاحتفال بذكرى المولد النبوى مناسبة دورية للخطابة الوطنية ، يعرب فيه الخطباء عن مشاعرهم الحبيسة ويبثون نجواهم وشكواهم وأسرار نفوسهم إلى الله على مسمع من الناس ، وكان تنظيم هذا الاحتفال والإشراف على كل ما فيه مما يكاد يختص الشباب وحده بتنظيمه وإعداده .

وفى احتفال عام ١٣٢٧ هـ ١٢ من أبريل سنة ١٩٠٩ أقام طلبة المدارس سرادقاً كبيراً فى ساحة المولد نصبوا بداخله مصباحين كبيرين من القماش الأبيض كتب على أحد جانبى المصباح الأول « وشاورهم فى الأمر » ، وعلى الجانب الثانى « وأمرهم شورى بينهم ». وكتب على المصباح الثانى « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » وعلى جانبه الآخر « إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسى ذكره ، وإن ذكره أعانه ، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه » (١) .

★ ★ ★

ولم تحرم الحركة الوطنية من مساهمة المرأة بدورها حيث أعلنت عن وجودها بين الوطنيين فى مؤتمر بروكسل سنة ١٩١٠ .

وفى هذا المؤتمر تليت خطبه بالفرنسية لإحدى السيدات عبرت فيها عن مشاعر السيدات ، والفتيات المصريات نحو وطنهن ، واهتمامهن بشئون البلاد وقيامهن بتربية الجيل الجديد تربية وطنية صحيحة ، فقوبلت خطبتها بالتصفيق والاستحسان (٢) » .

★ ★ ★

وهكذا كان النشاط السياسى عند الحزب الوطنى نشاطاً مباشراً للخطابة السياسية التى واكبت الحركة الوطنية فى كل أدوارها ، وسجلت مراحل تطورها المختلفة ، وهذا النشاط لم يكن نشاط شخص ، ولم ينفرد به اسم من الأسماء ، وإنما كان شيئاً ضخماً كالدوامة الهائلة ، التى يصعب فى مجراها تحديد أى التيارات أعظم من غيرها أو أشد تأثيراً .

ومع هذا فلو مضينا نحصى خطباء الحزب الوطنى فى مختلف منازله زعماء وأتباعاً ، وشباباً وشيبة لوجدنا له رصيداً ضخماً يفاخر ، الحزب ، ويشرق به تاريخ الخطابة السياسية فى هذه الحقبة من الزمن ، وكيف لا؟ وقائد الحزب وزعيمه هو الخطيب الذى استهوى الشباب وانتزع إعجاب الشيوخ وكان فى كلا حاليه مبعث القدوة والتأثر .

---

(١) الرافعى – فريد ص ١١٢ .

(٢) « – فريد ص ٢٣٠ والسيدة هى / السيدة انشراح شوقى كريمة مصطفى بك شوقى.

ولم تكن الخطابة عند رجال الحزب الوطنى مجرد تأثر واقتداء وإنما كان يدرب عليها الشباب تدريباً تقوم به مدارس الشعب فيما كانت تصنعه من برامج لإعداد الرواد والدعاة . وتعد إشارة فريد إلى هذا فى حديث له عن مدارس الشعب فقال :

« قد انتشرت هذه الحركة فى كثير من مدن القطر ، وقراه ، بفضل المخلصين من رجال الحزب وغيرهم ، ولم يكتف أنصار العمال بذلك ، بل أسسوا بقسم الخليفة جمعية للخطابة تعقد جلساتها كل يوم خميس ليخطب فيها المعلمون والعمال أنفسهم بعبارة تكاد تكون صحيحة » .

* * *

فالخطابة السياسية كانت عند رجال الحزب الوطنى هى السلاح الأول للمعركة ، ولذا لم يكن غريباً أن يصبح التناسب بينها وبين نشاط الحركة الوطنية « طردياً » كما يقول الرياضيون ..

خطباء فى غير الحزب الوطنى

لم يكن النشاط الخطابى مقصوراً فى تلك الفترة على رجال الحزب الوطنى وحده ولكنه كان موجوداً وقوى الوجود عند غيرهم من رجال الأحزاب الأخرى التى كان نشاط الحزب الوطنى يفرض عليها النشاط ويكرهها على الحركة والنضال كحزب الإصلاح وحزب الأمة وكذلك عند الآخرين ممن لا ينتمون إلى حزب من الأحزاب .

* * *

فقد لمعت فى هذه الفترة أسماء عدد غير قليل من الخطباء العظماء الذين شاركوا بكلماتهم فى قيادة الحياة السياسية ، وتوجيه الرأى العام ، ودفع مواكب الشعب على الطريق الصحيح للتطور .

لمعت فى هذه الفترة أسماء سعد زغلول ، وأحمد لطفى السيد ، والشيخ على يوسف وإسماعيل أباظه وأحمد فتحى زغلول والصوفانى وغيرهم من عظماء الخطباء الذين جمع بينهم الاهتمام بالقضايا العامة للبلاد ، وإن فرق بينهم اختلاف الآراء وتبادل وجهات النظر ، وكان وجود هؤلاء وغيرهم دليلاً على نشاط الخطابة السياسية فى مصر فى ذلك الحين وتفاعلها التام مع احتياجات الشعب .

* * *

وإذا كانت الخطابة السياسية عند رجال الحزب الوطنى قد غلب عليها الطابع الوجدانى ذو اللهجة الحماسية المثيرة كما سبق أن رأينا فى خطبهم بصفة عامة وخطب زعيمهم بصفة خاصة فإنها عند غير الوطنيين ، كانت تجرى فى تيارين متميزين :

أولاً : التيار المؤسس على الإقناع القوى والمنطق الهادئ الذى يقترب فى أسلوبه من لغة التعليم والمحاضرة .

وسنقف فى هذا البحث أمام علمين من أعلامه هما : أحمد لطفى السيد والشيخ على يوسف .

وثانياً : اللون الذى جمع بين الإثارة والمنطق العاقل ، وقد سبق أن وقفنا أمام اثنين من رجاله هما : سعد زغلول وإسماعيل أباظه .

* * *

وجدير بالتسجيل أنه لا يكاد يوجد خلاف كبير بين هذه التيارات الخطابية من حيث موضوعاتها لأن الموقف الذى كان يعنى به رجال حزب من الأحزاب كان يلقى نفس العناية من الآخرين سواء فى الناحية السياسية أو فى الناحية الاجتماعية .

فمثلاً : كانت المناقشات حول توسيع اختصاص الهيئات النيابية والمطالبة بتوسيع سلطاتها واختصاصها ، أو المطالبة بالدستور ، أو إبداء الرأى فى مشروع مد امتياز القناة أو مناقشة سياسة التعليم ، أو الاحتفال بالهجرة ، أو ذكرى ميلاد الرسول صلوات الله عليه.

كانت هذه الشئون تتم على صورة شبه متقاربة ، وتلقى نفس العناية من ممثلى جميع الأحزاب مع فارق أصيل هو اختلاف الأساليب ، واختلاف طرق التناول .

* * *

وجدير بالتسجيل والملاحظة كذلك أن كل تيار من هذه التيارات ، أو كل مدرسة من هذه المدارس كانت تمثل مرحلة من مراحل التطور الخطابى ، المتفق وتطور الحياة السياسية فى مصر .

فمثلاً : كانت بداية النهضة بعد انتكاس الثورة العرابية ، تتطلب لوناً معيناً يتفق وإيقاظ المشاعر ، وهو اللون الوجدانى القائم على الإثارة العاطفية للمشاعر التى جمدها الاحتلال وسوء الظروف ، وهذا ما ظهر بوضوح فى خطابة الحزب الوطنى عامة ، وخطب زعيمه خاصة .

ومثلاً : حينما كان الوعى السياسى يعبر فترة الانتقال من هذه المرحلة إلى مرحلة النضج العقلى الكامل ، انعكس ذلك على الخطابة فرأينا تياراً واضحاً أساسه المنطق والعقل واصطناع الأسلوب شبه التعليمى ، الذى كان رائده أحمد لطفى السيد .



١ – احمد لطفى السيد

أستاذ عظيم بين أساتذة هذا الجيل ، وكبير بين كبراء معلميه ، عاش حياتنا السياسية إبان نهضتها ، واتصل بها اتصالاً وطنياً مباشراً وأسهم فى معركة التوعية السياسية نيفاً وثلاثين عاماً ، يحمل قلمه حيناً ، ويقول بلسانه حيناً آخر ، وهو فى حالتيه مثال الأستاذ الوطنى والمعلم الثائر .

★ ★ ★

وإذا كان التاريخ الزمنى لحياة مصر السياسية يحدد موضع لطفى السيد داخل تشكيل سياسى معين هو حزب الأمة .

فإن تاريخ الخطابة السياسية يجتاز به هذا النطاق الضيق ، ليحتفظ له بمكانته رائداً من رواد اتجاه معين فى التفكير ، والتعبير أساسه التوعية الهادئه ، التى مهما كانت ضيقة الحدود فقد كانت عميقة الأثر .

★ ★ ★

ويهدينا النظر فى خطابة الأستاذ لطفى السيد إلى الملامح الآتية : –

أولاً : اصطناع المنهج المنطقى من حيث ترتيب المقدمات على نحو ينتهى بها إلى النتيجة المطلوبة .

فحين تحدث عن « الحالة الحاضرة » أكد فى مطلع حديثه أن الواجب الأول فى حل المشكلة المصرية يقع على عاتق المصريين وحدهم دون غيرهم .

ولكى يصل إلى هذه النتيجة تسلسل فى عرضه داخل مجموعة من المقدمات التى هذه نتيجتها فقال : إن استقلال المصريين رهن بترقية أحوالهم . وترقية أحوال المصريين لا يمكن أن ترجى أبداً إلا من المصرى . وإذن فتحقيق الاستقلال نفسه هو مسئولية المصريين وواجبهم الأول .

واستمع إلى قوله (١) :

« إذا كان استقلال مصر أمراً أوربياً محضاً كما قال لورد كرومر ، فلا شك أن جميع الأعمال التحضيرية التي تؤدي حتماً إلى الاستقلال ، هي بيد المصريين ومن أعمالهم الذاتية التي لا دخل لأوربا فيها .

« المصريون يقومون بوضع المقدمات المنتجة للاستقلال ، وأوربا تعترف به ، فعمل أوربا لنا لا يمكن أن ينتظر مطلقاً قبل أن نفرغ من القيام بواجبنا الوطني الأقدس . »

★ ★ ★

وحين أراد أن يؤكد أن جميع النظم التي وضعها الاستعمار لم تتقدم بالبلاد خطوة ، بل إنها تسير بها إلى الوراء ، ساق مقدماته في صورة أمثلة حية مستقاة من الواقع ، وينتهي الاطلاع عليها حتماً إلى النتيجة المطلوبة .

« فالوزير مسلوب السلطة أمام المستشار الإنجليزي .

« والحكام الإداريون وهم إنجليز ، جعل لهم حق الإشراف على التحقيق الجنائي ، ومعنى ذلك ضياع استقلال القضاء وتقهقر التشريع ... » .

والنتيجة كما قال :

« إننا في جميع نظمنا الحكومية نتقهقر إلى الوراء ، ولا شيء يسير عندنا إلى الأمام ، حتى .. ولا الوعود (١) » .

★ ★ ★

ثانياً : مقدرته الفائقة في هدم دعاوى خصومه ، باستبعاد الأساس الذي ترتكز عليه القضية ، ونقل المناقشة إلى موضوع آخر يهدم الأول ويقضي عليه .

من ذلك طريقة مناقشته لما كان يقال من أن الأمة المصرية ليست أهلاً للحكومة النيابية على أساس عدم كفاءتها للحكم الذاتي .

فهو يبدأ ليؤكد أن إثارة الموضوع على هذا النحو خطأ كبير ، وليس إلا « مغالطة اخترعوها ليجرونا من حيث لا نشعر إلى البحث في كفاءة الأمة ، ولا شك في أن الدخول

---

(١) من خطبة له نشرت له بالجريدة عدد ١٧ من مايو سنة ١٩٠٨ .

(١) الجريدة ١٧ من مايو سنة ١٩٠٨ .

فى هذا البحث تسليم بهذا المبدأ الفاسد .. مبدأ أن الأمة تحتاج فى نيل حريتها العامة إلى نيل شهادة بالكفاءة » (١) .

ثم ينتقل بالمناقشة من البحث فى كفاءة الأمة إلى تقرير حقها الطبيعى فى الحرية والدستور فيقول :

« إن الطبيعة قرنت حياة الأمة بحريتها العامة ، فكما أن حرية الفرد هى المقوم لحياته الإنسانية ، كذلك حرية الأمة هى المقوم لحياتها ، وعلى ذلك يكون حق الأمة فى الدستور حقاً طبيعياً خلق معها من يوم كونها أمة » (٢) .

★ ★ ★

ومن ذلك ما رد به على بعض خصومه فى « الجريدة » الذين اتهموه بالاستبداد وتصويره للاتهام على أنه اتهام بالاستقلال بأعمال شركة الجريدة والذى هو حقه بمقتضى قانون تأسيسها . وعلى طريقته التى أشرت إليها ينتقل بالمناقشة إلى اتجاه آخر أكبر من المهاترات حول الشخص وهو اعتبار الأمر كله كيداً للأمة .. فيقول :

« إننا لا نحارب فى أشخاصنا فيكون الأمر هيناً ، ولا فى أموالنا فيكون الأمر أهون ولكن خصومنا يحاربوننا فى أعز شىء لدينا جميعاً ، وهو شرف الأمة » (٣) .

★ ★ ★

ثالثاً : ومن أبرز الملامح وأوضحها فى خطبه ظهور آثار ثقافته العظيمة ودراسته الجادة لكل موضوع يعرض له ، على مستوى يميزه بين غيره من الخطباء السياسيين فى تلك الفترة .

من ذلك ما جاء فى إحدى خطبه عن « نظرية الحكومة الشخصية » رداً على القائلين بأنها الحكومة اللازمة لمصر إذ ذاك ، وتأكيده « أن الحكومة الشخصية لا تستمد وجودها إلا من أصل واحد ، هو عبادة البسالة وعبادة القوى ، عبادة القاهر » (٢) .

ثم تحديده لسلطة الحكومة داخل نطاق معين تعتبر كل مجاوزة له توسعاً غير مشروع حيث يقول :

---

(١) الجريدة ٢ من يناير سنة ١٩٠٩ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الجريدة ٢٦ من يناير سنة ١٩٠٨ .

(١) الجريدة ٢٤ من أغسطس سنة ١٩٠٨ .

« تختص الحكومات مهما كان نوعها بأمرين اثنين هما :
حماية الوطن من العدوان الخارجي ، وحماية الأفراد بإقامة العدل فى الداخل وكل سلطان للحكومة على الأفراد فى غير هذين الموطنين يعتبر توسعاً ، لا محل له » .

ثم حديثه عن الاتصال المتبادل بين شكل الحكومة ، وأخلاق المحكومين بحيث إذا ارتفعت حال الأمة الأخلاقية والعلمية أهلتها للحكم النيابى ، وإذا تجردت نفوسهم من الحرية كان ذلك من جهة أخرى دعامة من دعامات الاستبداد وطول عمره .

وليس هذا المثال الدليل الوحيد على ما تميز به لطفى السيد من سعة المعرفة وعمقها والدراسة الجادة لكل شىء يتناوله ، بل إن هذه الصفة تكاد تكون الطابع العام لكل ما أثر عنه من خطب حتى يمكن القول بأن خطب لطفى السيد فى حقيقتها دراسات سياسية واجتماعية شاملة تساق فى ثوب خطابى ، وفى معظم خطبه ما يدل على ذلك (١) .

★ ★ ★

رابعاً : من الملامح البارزة فى خطبه ظهور شخصية المصلح الاجتماعى الذى لا يعنيه أن يهدهد مشاعر الجماهير بقدر ما يعنيه أن يعلمها ، ويضع النور أمامها على طول الطريق . وقد وضحت هذه الصفة عنده فى التبشير بقيم جديدة يرتكز عليها إصلاح المجتمع ، وإعداده لنيل حقوقه ومن هذه القيم :

(أ) الدعوة إلى الواقعية فى التفكير ، والصراحة فى مواجهة عيوبنا الاجتماعية وتقديرها تقديراً حقيقاً ، لا مبالغاً فيه ، ولا متجاوزاً فى الحكم عليه حد الحقيقة ولو كانت مرة تؤلم عواطفنا ، فإننا إذا لم نحتمل مرارة الحقيقة التى تظهر لنا النقص الذى يجب علينا سده لا يمكننا أن نتحمل المشاق التى تعرض لنا فى سبيل استقلالنا (٢) .

« إن بعض الناس يظنون أن إشهارنا لنقص اجتماعى ، أو سياسى ، أو تصدينا لنشر تصرف منتقد صدر من سلطة أهلية ، إنما يقيم علينا الحجة بأننا غير أهل للحكومة الذاتية . »

« ولكنهم نسوا أن ستر عيوب الأمة عنها إقرار لها على ما هى عليه من

---

(١) تراجع خطبه المنشورة فى الجريدة : (إسكندرية) ٢٢ /٨ /١٩٠٨، ٢٦ /١ /١٩٠٨ ، ٢ /١ /١٩٠٩ ، ١٤ /١١ /١٩١٠ ، ٢٠ /١٢ /١٩١٠ .
(٢) الجريدة ١٧ من مايو سنة ١٩٠٨.

التأخر ، وصرف لها عن إصلاح ذاتها ، وذلك هو الذى جر علينا أسوأ النتائج إلى الآن (١) » .

(ب) الدعوة إلى إعزاز قوميتنا : وتأكيد وجودنا فى مختلف المجالات . فقد رأيناه فى مواجهة الطغيان الاستعمارى الزاحف يحذرنا من فناءشخصيتنا خلال موجات التقليد للغزاة الأقوياء فيقول :

« ويجب علينا أن نأخذ المبادئ الجديدة بغايةالاحتراس ، وألا نتوسع فى تطبيقها إلا بعد تمصيرها .

« ونحن أمة نخشى عليها جداً من الفناء فى غيرها ، فنسلب من أخلاقنا إلى غيرها ، ومن عاداتنا إلى سواها ، ومن أزيائنا ، بل من شرقيتنا ، ومصريتنا (٢) » .

★ ★ ★

واستمع إليه حين يتحدث فى خطبة له عن الحالة الاقتصادية ، فيؤكد حرصه على أن يكون لنا تأثير إيجابى فى عمليات التبادل الاقتصادى ، كما نتأثر بها حتى لا يظل موقفنا سلبياً على الدوام :

« علة من علل النجاح أن يكون لنا فى سوقنا المالية صوت يسمع ، غير أننا لا نزال إلى الآن نشارك فى الحركة المالية على الوجه الانفعالى لا الفاعلى .... نتأثر بحركة السوق ، ولا نؤثر فيها ، لا نصرف الأمور المالية ، ولكننا موضوع تصرفها ، كأن أموالنا وأعمالنا إنما جعلت لتكون محل الاستغلال الأجنبى (٣) » .

★ ★ ★

(جـ) الدعوة إلى تأكيد وجود الفرد ، وإعزاز قيمته ، واعتبار ذلك الشعور أساس التضامن القومى الذى يبدأ منه كل إصلاح :

« أيها السادة : يجب علينا أن نعرف أنفسنا ، أريد أن يعرف كل فرد منا أنه عضو من أعضاء الجمعية المصرية ، وأنه بذلك شريك لجميع المصريين فى هذه البلاد ، وأن منافع الشركاء مختلطة متفقة ، لا متباينة ولا متضادة » .

---

(١) الجريدة ١٧ من مايو ١٩٠٨ .

(٢) ألقيت بنادى المنصورة الأهلى ، ونشرت بالجريدة فى ١٤ /١١ /١٩١٠.

(٣) الجريدة : ٢٣ من أغسطس سنة ١٩٠٨ .

ويتصل بهذه الدعوة عنده الدعوة إلى أن يشعر كل فرد بتبعاته تجاه القضايا العامة فلا يقف منها عند السلبية المكروهة :

« أيها السادة : لا أظنني آتي لكم بما لم يأت به غيري من المشتغلين بسياسة مصر ، ولكني أرى رأي « سيشرون » في أنه يجب على كل فرد أن يكتب على جبينه رأيه في أمر قومه (٣) » .

★ ★ ★

وجدير بالملاحظة أن هذه القيم الجديدة التي دعا إليها كانت في واقعها ، تعبيراً صادقاً عن احتياجات الشعب ، بل كانت بمثابة رد فعل للحالة السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية التي كانت عليها البلاد .

فالدعوة للاعتزاز بالقومية كانت رد فعل لمحاولة المستعمرين طمس معالم الشخصية المصرية ، وإفنائها في شخصية الغالب ، ومثلها الدعوة إلى تأكيد وجود الفرد ، وإعزاز شخصيته ، لأن ما صنعه الاحتلال لإذلال الفرد وسلبه كل إحساس بالكرامة إلى الحد الذي كان فيه كبار المسئولين من المصريين لا يكادون يملكون من الأمر شيئاً أمام أي صغير من الإنجليز ، كما هو ثابت في السجلات التاريخية لهذه الفترة المظلمة جدير بأن ينعكس على دعوات المصلحين .

والدعوة إلى إشعار المواطن بمسئولياته تجاه القضايا العامة كان كذلك رد فعل ، لمشاعر السلبية والانزواء التي غرستها في النفوس محنة الثورة العرابية مما صرف الغالبية العظمى إلى الاهتمام بالمصالح الشخصية .

★ ★ ★

المقومات الفنية في خطابة لطفي السيد :

واضح من دراسة خطب لطفي السيد أن الطابع العام لأسلوبها هو الطابع العلمي القائم على الشرح والتوضيح بقصد التعليم والتوعية على نحو يرسب في عقل السامع قدراً من المعرفة يكون له أثره في مستقبل تفكيره .

ولهذا لم يكن في مجموع خطبه حريصاً على الإثارة العاطفية ، بل لعله كان يباعد بينها وبينه ، حرصاً على استقرار الأفكار وثباتها ، حتى لا تفنى بفناء الانفعال . وليس معنى هذا

---

(٣) الجريدة : ديسمبر سنة ١٩١٠ .

أن خطبه كانت مجرد كلام ليس فيه من المقومات الفنية شيء، وإنما كانت المقومات الفنية عنده كثيرة نعرض لها فيما يلي :

(أ) الجانب النفسي :

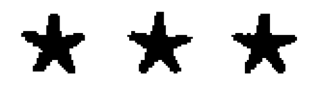
على الرغم من أن لطفي السيد كان يقف من الجماهير في موقف الأستاذ الذي قد لا تعنيه مشاعر تلاميذه بقدر ما يعنيه أن يسدد خطاهم ولو اضطر إلى القسوة في سبيل ذلك على الرغم من كل ذلك فقد كان لطفي السيد لا يغفل هذا الجانب ، بل ويهتم به ويسوق الرعاية النفسية بين يدي حديثه فيصل بها لما يريد .

• فمثلاً : عندما وقف ليخطب يوماً في الإسكندرية راعى مشاعر الإسكندريين وتحدث عن هذه المدينة التي هي عنوان مصر الجغرافي، وكذلك الإسكندريون عنوان المصريين في جميع الحركات الفكرية ، وطليعة رسل التمدن الحديث إلى جوف الأمة المصرية (١) .

• ومثلاً : حينما عتب على بعض الصحف الأوربية هجومها على الحركة الوطنية في مصر ، ودورانها في فلك السياسة الإنجليزية ، استخدم السلاح النفسي في محاولة التفريق بين الإنجليز وبين الأوربيين عامة محاولاً كسب الآخرين إلى صف مصر .

« وقد يكون للإنجليز مصلحة في إماتة شعور الاستقلال في نفوس المصريين ، فهل للنزلاء الأوربيين من الأمم الأخرى مصلحة في إذلال المصريين ؟

وكلا .. فإن منافع النزلاء الأوربيين تتفق تمام الاتفاق مع منافع المصريين (٢) » .



(ب) التدفق الخطابي :

لسان هذا الخطيب يقف دائماً وراء حاجز من عقله القوي اليقظ الذي لا يرسل القول إلا وكل لفظة فيه تحمل معناها وتعبر عن فكرة في الموضوع المعروض . فهل معنى هذا أنه لا يقوى على التدفق الخطابي ؟

الجواب القاطع — لا . وأقرب الأدلة على ذلك هذا الفيض الذي ذخرت به المكتبة من خطبه ، والتي كانت على الدوام من الخطب الطوال .

---

(١) الجريدة ٢٣ من أغسطس سنة ١٩٠٨ .

(٢) صفحات مطوية — لطفي السيد — ص ٣٤ ، ٣٥ .

والتدفق هنا فيض الآراء والأفكار والدراسات الشاملة لكل موضوع يعرض له .
ولست فى هذه العجالة بمستطيع إحصاء مواقف التدفق الخطابى عند لطفى السيد، ولكنى سأكتفى بواحد منها جاء فى سياق حديث له عن المطالبة بالدستور ، فعرض فيه ملخص القضية التى كان عمرها ثلث قرن لخصها فى سطور دفاقة قال فيها (١) :

« ليست فكرة الدستور جديدة فى بلادنا ، فإنه لما نشر الدستور العثمانى سنة ١٨٧٧ . سرت عدواه إلى المصريين فاشتدت بهم الرغبة فى أن يقلدوا إخوانهم فى كسب الشرف القومى ، والخلاص من ذل الحكومة المطلقة .

« وقد تخمرت هذه الفكرة فى أدمغة بعض الأفراد .. ، ثم انفجرت بقوة ووضوح فى الحركة العسكرية .

« وقد كسبت الأمة بمناسبة تلك الحركة حقها الطبيعى المقصود ، وحصلت على الدستور وابتدأ مجلس النواب المصرى يعمل لمصلحة الأمة » (١) .

* * *

ولم تخل خطابة لطفى السيد من ذلك النوع من التدفق الذى تجيش به العاطفة ومن نماذجه وإن كان قليلاً ، ما جاء فى معرض حديثه عن الحكومة الشخصية ، وموقف الأمة منها ، ذلك الموقف الذى شبهه بموقف العبد من السيد حيث قال :

«وكلما قلنا ذلك غضب الإنجليز ، وقامت قيامة جرائدهم علينا ، يتهموننا مرة بنكران الجميل ، ومرة بأن هذه الحركة موجهة ضد أمير البلاد ، وأوعدونا ثالثة بالضرب على أيدى الجرائد ، والحد من حريتها » .

وحين يبلغ الخطيب هذه النقطة — نقطة الحد من حرية الصحافة — تثور عاطفته فى مواجهة التهديد فيتدفق متحدياً ويقول فى رنة خطابية فى منتهى القوة :

«فليفعلوا ما أرادوا، وليهدموا التعليم كما هدموه أول مرة ، وليحدوا من حرية الجرائد بأقسى مما كانت عليه جرائد الآستانة قبل الدستور ، وليتهمونا بما طاب لهم ، فإنا أمام الحقيقة التى نقولها لا نهاب شيئاً (٢) » .



(١) صفحات مطوية — أحمد لطفى السيد ص ٤١ .
(٢) صفحات مطوية — لطفى السيد ص ٢٦ | ٢٧ .

الاقتباس عند لطفى السيد :

لم يغفل الخطيب أهمية الاقتباس ، وتأثيره فى نفسيات السامعين ، ولذا لا تكاد تخلو منه خطبة من خطبه ، والملاحظ أن مصادره فى الاقتباس كلها غريبة عن السياسى الأثينى القديم « سولون » (١) والخطيب اليونانى « شيشرون » (٢) وغيرهما من الأوربيين .

وعلى الرغم من تأثر الخطيب بالموارد الغربية ، تطالعنا من خطبه بعض اللمحات الإسلامية الخالصة التى تظهر فى تضمين بعض آيات القرآن :

« فليفعلوا ما أرادوا ، ويهدموا التعليم كما هدموه أول مرة » فهو تضمين وبناء على نسق الآية الكريمة « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة »

وقوله :

« إن اليهودية والنصرانية والإسلام أديان توحيد ، لا خوف على أمة دانت بها جميعاً إذا تأصل الاعتقاد الصحيح فى نفوس الأفراد ، وانتبذ التعصب بالخلاف مكاناً قصياً » .

فهو تضمين على نسق الآية الكريمة « فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً » .

★ ★ ★

تلوين الأسلوب :

تعد خطب لطفى السيد فى مجموعها من الخطب الطوال التى يستغرق إلقاؤها كثيراً من الوقت . وتستنفذ فى تسطيرها غير قليل من الصفحات الشىء الذى قد يعرض سامعيه للملل ، مالم يهتم هو بتلوين الأسلوب .

وقد فعل خطيبنا ذلك ، فلم يدع أسلوبه ليجرى على نسق واحد ، وإنما كان يلونه من فقرة إلى أخرى ، بل وفى الفقرة الواحدة ، فينتقل من السؤال إلى الجواب ومن النفى إلى الإثبات . ومن الحديث عن الغائب إلى حديث المخاطب ، بل قد يدع أسلوبه كله إلى الاقتباس والتضمين كما سبقت الإشارة ، وقد يرصع حديثه بين الحين والحين بلفظة عامية ، أو تعبير أو تعقيب ساخر .

« أليس من الإهانة الكبرى أن نرضى نحن بهذا الشكل الاستبدادى الذى نفرت

---

(١) صفحات مطوية — لطفى السيد — ص ٢٦ ٢٧ .

(٢) نفس المصدر — ص ٢٥ .

منه كل الشعوب وتخلصت من ذله؟ .... ومن ذا الذى يمكنه أن ينكر علينا طلب الدستور ؟

• « الحكومة التركية تعتبر مصرنا رأساً فهل يقبل أن نعتبرها نحن ذنباً ؟ وهل يستوى الرأس والذنب ؟

« الإسكندريون هم عنوان مصر الجغرافى » فلا غرابة أن أجبتم دعوة حزب الأمة وسعيتم إلى هذا المكان لتقيموا برهاناً جديداً على ما عرف به الإسكندريون من الاهتمام بالشئون السياسية (١) » .

وغير ما سبق كانت الصورة الأدبية سبيلاً من سبل تلوين الأسلوب عند لطفى السيد ومن نماذجها تصويره ليقظة الرأى العام ،وتمكن الرغبة فى الاستقلال والرقى من مشاعر الأمة فى هذه الصورة النابضة بالحيوية .

« ذلك الشعور الذى خرج من جوف الأمة يستصرخ غرائز أفرادها إلى الرقى العلمى والسياسى ، وذلك الشعور الذى يملأ أعيننا نوراً لتنظر إلى المستقبل ، ويملأ قلوبنا ثقة بالرجاء فى المستقبل ، ويهز أعصابنا إلى أن نتضامن لسعادة المستقبل (٢) » .

ومن نماذجها كذلك تصويره لخطر السياسة التعليمية التى يرسمها الاحتلال لمصر والتى تميت فى المصريين أشرف الملكات ، وتحولهم إلى آلات .. فيقول :

« ولكن الغرض من التعليم عندنا إنما هو إنماء القوى الآلية التى يصبح بها الإنسان آلة مضبوطة نوعاً ما للدخول فى تركيب الماكينة الكبرى ماكينة أعمال الحكومة » .

★ ★ ★

وقد استخدم لطفى السيد فى تأكيداته نفس الوسائل التقليدية التى كان يستخدمها الخطباء من تكرار ، إلى أدوات توكيد ، إلى أسلوب النفى والاستثناء : ومن نماذجه فى كل ذلك :

« إنى أنصح للذين كسبت أيديهم من مسئولياتها أن يستغفروا الوطن والتضامن والمنفعة القومية ، أن يستغفروا مطالب الأمة ، وأن يعملوا لتلافى ماعساه ينجم عن ذلك ..

« أيها السادة إن الرأى العام لا تكون إرادته ذات أثر فعال إلا إذا كانت مؤسسة على التضامن بين جميع الأفراد ، والشعور الكامل بالحاجة إلى هذا التضامن .. »

---

(١) الجريدة ٢٣ من أغسطس سنة ١٩٥٨ .

(٢) صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية فى مصر .
أحمد لطفى السيد ص ١٣ .

أستاذ الجيل من خطابته :

إذا كانت آثار لطفى السيد فى مختلف فروع المعرفة قد حددت مكانته كأستاذ رائد لهذا الجيل فإن خطبه السياسية كانت أعظم آثاره دلالة عليه فى هذه الناحية . ومظاهر الأستاذية التى تدل عليها خطبه تتضح فيما يلى :

(ا) التعمق فى تناول الموضوعات وفى دراستها بحيث يكون الرأى الذى يراه فيها موضوع الاحترام والتقدير حتى ولو كان فى نفس الوقت موضع خلاف وجدل .

فمثلاً حينما تعرض لمقدار السلطة التى يجوز للحاكم أن يستأثر بها حصرها فى نطاق توريث العرش لأبنائه . أما ماعداها من سلطات ، فإنه لايكسبها لشخصه ، وإنما ليستخدمها فى مصالح الأمة فقال :

« أيها السادة : إن الحقوق التى يكسبها الملك أو الأمير إنما يكسبها لقومه لا لنفسه ، وليس للملك أو الأمير شىء إلا حق الملك ، أى حق التاج فقط ، أما بقية الحقوق ، وهى الاستقلال الداخلى أو السيادة الداخلية فهى حق لجميع الأمة المصرية (١) »

(ب) والمظهر الثانى لهذه الأستاذية كان يجىء فى شكل تعقيبات صارمة يخطىء بها كثيراً من الآراء ويعدل بها كثيراً من الأحكام .

فمن ذلك تعقيبه على من يظنون « أن أمة غفلت عن الاشتغال بسياستها يوماً يجب أن تغفل دهراً ، أو أن تغفل إلى الأبد » .

فإذا هو يصف قولهم هذا فى حزم بأنه « خطأ على خطأ » ويضيف معلماً وشارحاً :

« ألا يعرف هؤلاء الفرق بين الحركة الصناعية وبين الحركة الطبيعية ؟ » (٣) .

★ ★ ★

وكذلك تعقيبه على من يظنون أن سيادة مصر الداخلية على أرضها بعيداً عن السلطنة العثمانية لا معنى لها مادامت البلاد محكومة بحكومة استبدادية ، ويرتبون على هذا أفضلية التبعية للدولة العثمانية .

فإذا هو يعقب فى حزم بقوله : « .... ذلك رأى باطل فى أصله ، عقيم فى نتائجه لاينطبق على مركز مصر الدولى ، ولا على مصلحة المصريين ، ولا على مصلحة العائلة المالكة » .

---

(١) الجريدة ٢٣ من أغسطس سنة ١٩٠٨ .

(٢) صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية فى مصر — لطفى السيد — ص ١٤ .

(ج) والمظهر الثالث لأستاذية لطفي السيد ما تكشف عنه افتتاحيات بعض خطبه ، وبعض فقراتها الداخلية التي يتجلى فيها إحساس الأستاذ بذاته وثقته المطلقة فيما يلقي من بيانات وآراء يعرضها على سامعيه في شكل مسلمات لا تقبل الجدل ، كقوله في وصف إخفاق الوزارات المصرية في أداء واجباتها في ظل سلطات الاحتلال : « ظاهر للعيان أن كل نظارة من النظارات تفشل يوماً فيوماً في الوصول إلى منهاجها » (١) .

وكقوله في معرض الحديث عن أهمية الوعي القومي في مواجهة المحتلين وفي كسب الاستقلال والحرية وكأنه أستاذ يضع مناهج العمل لتلاميذه :

« الوقوف الدائم على حال الأمة والحكومة هو الوسيلة الوحيدة لانتهاز الفرص ، التي تمكننا من الرقي والتقدم . فإننا إذا أغفلنا عن مراقبة أحوالنا ، أو فرطنا في ذرة واحدة من حقوقنا التي اكتسبناها فإننا واقعون في نتائج تفريطنا ، والمفرط أولى بالخسارة (٢) » .

ويتصل بهذه التعقيبات ضرب من التعقيب عنده ممزوج بالسخرية اللاذعة بالخصوم ، أفراداً كانوا أم سلطات الاحتلال ؟

من ذلك سخريته بحقيقة مركز الرأي العام المزعوم على عهد محمد علي وتأكيد أنه كان رأياً كاذباً ، يجمعه إطار كأنه قضبان سجن لايستطيع المسجون فيها أن يقول إلا ما يسمح به السجان فيقول :

« يخيل إلى أن أول مادة صدر بها قانون ذلك الرأي العام هي :

يجب على المصريين مجتمعين أو منفردين أن يداروا الحاكم الأكبر ، ومن دونه وألا يغرروا بأنفسهم فينقدوا عملاً من أعماله (٣) » .

وقوله في معرض السخرية بالإصلاحات التي كان المحتلون يزعمون أنها لترقية المستوى الأخلاقي ، والاجتماعي للشعب .

« تهتم الحكومة بتربيتنا اهتمام مروع الفؤاد على مصلحة الأمة ، فتلصق إعلانات

---

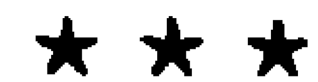
(١) صفحات مطوية ص ٣٧ .
(٢) « « ص ٣٨ .
(٣) « « — ص ٢٢ .

شتى على محطات السكك الحديدية تحذر فيها السياح من أن يعطوا « بقشيش » إلى صغار المصريين لأن ذلك يعودهم الكسل » .

ويعقب ساخراً :

« رحمة فائقة ، عناية كاملة ، اشتغال بأهم الأمور الحيوية للأمة ، ولكن ما بال الحكومة لا تنشر كلمة واحدة تحذر فيها المساهمين من الشركات التى لم تراقبها » (١) .

وبعد فهذه ملامح الصورة التى أرجو أن أكون قد وفقت فى الاهتداء إليها لشخصية الأستاذ المعلم أحمد لطفى السيد من واقع ما أثر له من نصوص الخطابة السياسية .



(١) صفحات مطوية ص ٢٣ .

٢ ـ الشيخ على يوسف

بعض الذين كتبوا عن الشيخ على يوسف ، وحددوا معالم شخصيته قالوا : « إنه لم يكن جهورى الصوت ، وأن صوته لا يصلح للخطابة » (١) .

وفى هذا ما يفسر لنا سبب إقلال الشيخ فى الميدان الخطابى ، الذى لم يسمع صوته فيه ، إلا فى مناسبات قليلة .

ويبدو أن المقدرة الصحفية الرائعة التى كان يتمتع بها الشيخ قد أتاحت له الفرصة الكبيرة للتعبير عما يريد بالكلمة المكتوبة قبل الكلمة المنطوقة .

وربما .... لولا ظروف الوضع السياسى الذى كان للشيخ كرئيس حزب بعض واجبه أن يواجه ـ على الأقل ـ أعضاء الجمعية العمومية لهذا الحزب مرتين فى كل عام .. ربما لولا هذه الظروف ما كان للشيخ فى تاريخ الخطابة السياسية ذكر وكان يكفيه ويغنيه ماله فى ميدان الكتابة السياسية من ذكر خالد .

ومع هذا فقد استطاع فى المناسبات التى تكلم فيها أن يحتفظ لنفسه بمكان عظيم واضح بين أولئك الخطباء المعلمين الذين اعتبرنا أحمد لطفى السيد رائدهم وكبير مدرستهم .

فالشيخ على يوسف كان يلتقى ولطفى السيد فى أن الأول كان كالأخير « ليس من عشاق الخيال ، ولا كان يجرى وراء البرق الخلب ، وإنما كان يقيس الأمور بمقياس العقل ، ويزنها بميزان المنطق (٢) » . وتلك بينهما هى الصفة الجامعة .

ومن ملاحظة المناسبات التى تحدث فيها الشيخ نراها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ المناسبات الدينية : كاحتفال الحزب بذكرى هجرة الرسول أو ميلاده صلوات الله عليه .

---

(١) عبد العزيز البشرى فى المختار ج ١ ص ٢٤٦ .

(٢) أدب المقالة الصحفية ـ د. عبد اللطيف حمزة ج ٤ ص ٧

٢ — المناسبات الخاصة بشخص الخديو ، كالاحتفال بعيد جلوسه ، أو استقباله عائداً من سفر . أو توديعه راحلاً .

٣ — المناسبات السياسية : كتلك التى يتحدث فيها فى الجمعية العمومية للحزب ، أو بمناسبة إبداء الحزب رأيه فى أمر وطنى عام كما حدث عند نظر مشروع مد امتياز قناة السويس ، وكخطبه فى المؤتمر الوطنى سنة ١٩١٠ .

وأهم ما نلحظه من مطالعة هذه النماذج أن الفكر السياسى كان هو المسيطر عليها جميعاً ، والموجه لكل ما فيها حتى ما كان يقال منها فى مناسبات غير سياسية كالمناسبات الدينية الخالصة .

★ ★ ★

فعند احتفال الحزب بذكرى الهجرة النبوية زحفت السياسة على خطبة الشيخ من زوايا ثلاث :

أولاً :

عندما تحدث عن الهجرة ، وأثرها فى إعلاء راية الدعوة المحمدية على أكبر رقعة من الأرض فى قوة وعزة قاده هذا المعنى إلى التعرض المقارن لما وصلت إليه حال المسلمين أيامها من ضعف وتفكك فقال : « ولكن ما يؤلمنا هو هذا الانحطاط الذى نحن فيه (١) » .

ثانياً :

وعندما جاء ذكر المدينة المنورة الوطن الثانى للرسول صلوات الله عليه رأيناه يتحدث عن عناية الدولة العلية بها ، وذلك بمد سكة حديد الحجاز بينها وبين الشام .

ثالثاً :

ثم رأيناه بعد هذا يتحدث عن الوطنية عند المسلمين حديثاً يتفق وأمانيه فى بعث الأمة الإسلامية الكبرى التى ترتفع بالوطن فوق حدود التقسيم الجغرافى إلى ذلك الرباط المقدس الذى يجمع بين كل المؤمنين بفكرة واحدة تستيقظ بها مشاعر الوحدة والترابط فيقول :

« إن الرسول صلوات الله عليه هاجر لما رأى الحق الذى يدعو إليه قومه مضطهداً

(١) المؤيد ١٥ من يناير سنة ١٩١٠ .

فأراد تعليمنا أن الحق فوق الوطنية ، وأن المسلم حيثما استوطن تلزمه واجبات الوطنية..

« والوطنية هى روح التضامن الذى يستلزم أن يكون الكل يداً واحدة فى نصرة الحق الذى لهم ، وفى دفع السوء عن مجموعهم » .

والملاحظة الكبيرة الثانية

أن الشيخ على يوسف حينما كان يتحدث فى الشئون العامة أو الشئون السياسية التى لا تتصل بشخص الخديو أو بمركزه، كان يطلق لذهنه عنان الأخذ والرد والتحليل والتعليل ، والدقة فى المؤاخذة والحساب ، وتقرير ما ينبغى أن تكون عليه الأمور.

أما إذا مس الحديث شخص الخديو أو مركزه رأيناه يصطنع منهج رجل الدعاية الذى لاتعنيه الحقيقة إذا كان فى إذاعة الأوهام والخرافات ما يزكى شخص ممدوحه ويشرفه .

فالشيخ على يوسف الذى حاسب الحكومة أشد الحساب وأعسره على موقفها من مد امتياز قناة السويس ، والذى لم يكفه أن تعترف الحكومة بحق النواب فى سؤال النظار وإنما طالب لهم بسلطة التعقيب على إجابات النظار ووصفها بالإحسان أو الإساءة كما سنرى بعد ..

هذا الشيخ عندما تحدث عن « الخديو » رأيناه يكتفى بالاعتماد على ما رواه « مكاتب المؤيد » فى المدينة المنورة من أن المطر قد نزل بالأراضى المقدسة ثلاثة أيام بلياليها عند زيارة الخديو للحجاز ، مما جعل الناس يستبشرون بوجهه ويلتفون حوله » (١) .

والملاحظة الثالثة :

أن الشيخ كان يعنى بدرس موضوعات خطبه ، ويحاول الإحاطة الشاملة بكل ما يتصل بها مما كان يعلى كعبه فى مواجهة خصومه ، ويكتب له أعظم التوفيق .

وأبرز نماذجه فى ذلك خطبتاه فى موضوع مد امتياز القناة (٢) ، وفى المؤتمر المصرى (٣) الأول ، ففيهما أكثر من دليل على ارتفاع مستوى التفكير وعلى الدراسة الشاملة .

---

(١) المؤيد ٩ من يناير سنة ١٩١٠ .
(٢) المؤيد ٩ من يناير سنة ١٩١٠ .
(٣) المؤيد ٩ من فبراير سنة ١٩١٠ .

والملاحظة الرابعة :

أن الشيخ على الرغم من صلته المعروفة بالخديو ، فإنه كان يجيد الانتصار للقضايا العامة على نحو ليس فيه أدنى تفريط فى حق من حقوق الشعب ، ومواقفه من مد امتياز القناة ، وإعادة العمل بقانون المطبوعات ، وتوسيع اختصاصات الهيئات النيابية وغيرها تكشف ذلك ، وتؤكد ما قيل عنه من أنه : « رجل عظيم ، وشيخ رزين ، نصفه للأمير ، ونصفه للجماهير ، وإن بدا كل واحد من نصفيه كلاً كامل النضج تام النفع ، ظاهر الغناء (١) » .

الجانب الفنى فى خطابته

النضال ومقارعة الأحداث كانت الصفة الأصيلة فى هذا الرجل . ومن هنا كان يحرز منتهى التوفيق فى خطابته السياسية إذا كان موضوع الخطبة مما يثير عنده روح النضال والمقارعة ، فتراه يستجمع لها كل قواه ، وتستحيل كلماته إلى سيل دافق من المنطق ، وقوة الحجة ، حتى لتراه يأخذ بخصمه من كل أطرافه فلا يكاد يفلت منه ، وكانت وسائله لكسب الجولة وخاصة فى الميادين الجدلية هى :

أولاً : التشكيك فى سلامة موقف الخصم :

فحينما تعرض لتعديلات الوزارة لمشروع مد امتياز القناة ، والتى انتهت بنقض أكثر ما ذهب إليه المستشار المالى عقب الشيخ ، وكان معنى تعقيبه تعليق الاتهام على رأس هذا المستشار المالى فقال :

« إن هذه التعديلات تكفى لأن يقال معها إن المستشار المالى لم يكن يؤدى وظيفته تماماً ، بل يمكن أن يقال إنه عمل لشركة القناة ما عمله السير « بالمر » المستشار المالى قديماً فى مصر يوم أمضى شروط البنك الأهلى بتلك الامتيازات العظيمة . ثم كان هو المحافظ الذى افتتح عمل البنك بعد ذلك بقليل (٢) »

ويتصل بذلك استخدامه لتعبيرات من شأنها إلقاء ظلال الشك على الموقف كله كعبارته الموحية بأن وراء هذا المشروع أموراً غير عادية تدفع به دفعاً إلى التنفيذ

---

(١) أدب المقالة الصحفية – د. عبد اللطيف حمزة ج ٤ ص ١ .

(٢) المؤيد ٩ من يناير سنة ١٩١٠ .

السريع قبل أن يتنبه إلى خطره أحد ، مما ينشر فى الجو ريح التآمر والاغتصاب والسرقة حيث يقول :

« ولكننا — على غير إرادة منا — أصبحنا أمام مخابرات سريعة بين حكومتنا وبين شركة القناة ، بل أصبحنا على باب الجمعية العمومية التى ستعقد لهذا الغرض (١) ».

★ ★ ★

ثانياً : التمهيد للنتائج بمسلمات لا تقبل الشك :

فحين أعلن أنه لا خطر على مستقبل قناة السويس من المنافسة ساق بين يدى حديثه مقدمات قال فيها :

« إن العلم يتقدم ، ومحاولات الإنسان للتيسير على نفسه تتطور إلى الأمام » وقد قال البرنس ، «دارنبرج» رئيس عموم شركة القناة فى باريس أن فكرة قناة « بناما » لا يمكن أن تتحقق إلا بعد عشر سنوات ، ومع ذلك فإن الطريق الأقرب والأفضل بين الشرق والغرب سيكون دائماً طريق قناة السويس ...

وإذن — وتلك هى النتيجة التى رتب لها — فقناة السويس ستبقى هى الطريق الممتاز للتجارة بين الشرق والغرب بالرغم من كل الأوهام المفروضة » .

وحينما أراد أن يثبت — إبان الفتنة المصطنعة بين عنصرى الأمة المصرية — أن الذين نشروا المعارف فى مصر كانوا هم المسلمين رداً على مزاعم مناقضة حينما أراد إثبات هذا ساق بين يدى حديثه أرقاماً وإحصاءات عن البعثات منذ محمد على وإسماعيل وتوفيق ، وبعض الإحصاءات يخلو تماماً من ذكر العنصر القبطى ، وفى بعضها الآخر قلة نادرة لا تكاد تذكر ، وبعد هذا انتهى إلى النتيجة التى أصبحت طبيعية بعد المقدمة فقال :

«وإلى هنا يحق لنا أن نقول: إن البعثات العلمية التى تلقت العلوم والمعارف من أوربا ، وعادت إلى مصر ، وكان لها أعظم الأثر فى تكوين مصر الحديثة .. هذه البعثات كانت إسلامية محضة ، ليس بينها إلا نحو عشرين طالباً من الأرمن والروم والسوريين ، والأحباش وثلاثة فقط من الأقباط ، وهؤلاء كانوا طلاب وظائف .. لا ناشرى علوم ومعارف » (٢)

وقد برع الشيخ فى تلوين أسلوبه ، وإكسابه الجدة المستمرة ، التى كانت تحفظ له دائماًمزيداًمن القوة وتحتفظ للخطيب بانتباه السامعين ، وكانت للشيخ وسائل متعددة فى

---

(١) المؤيد ٩ من يناير سنة ١٩١٠ .

(٢) المؤيد ٩ من يناير سنة ١٩١٠ .

إحداث هذا التلوين من بينها الاقتباس وحسن الاستشهاد والقدرة الفائقة فى رسم الصورة الأدبية ، والخروج من الأسلوب التقليدى إلى السخرية والعبث بالخصوم .

وقبل أن نقدم النماذج الدالة على ذلك أشير أولاً إلى أنه بالنسبة للاقتباس لوحظ أن اقتباسات الشيخ كانت كلها عن مصادر غربية ، على الرغم مما هو معروف عن ثقافة هذا الشيخ التى لا تمت إلى الغربية بصلة .

ولكنه بحسه الخطابى ، ومقدرته فى الكتابة الأدبية كان يدرك تماماً موقع الاقتباس الغربى على مشاعر سامعيه ، وأثره فى تكوين الاتجاه والرأى عندهم ، وهذا سر حرصه عليه وليس فقط لأنه غربى .

فالكلام المقتبس عنده فى موضوع مد امتياز القناة كان لرجلين لكل منهما أهميته وخطره وتأثير رأيه فى رجحان كفة الميزان .

وأول الرجلين كان أول مسئول عن قناة السويس فى مصر ، وهو رئيس مجلس إدارة شركتها فى باريس . وثانيهما هو اللورد . كرومر ، ممثل سلطات الاحتلال وكلا الرجلين يكون القول المنسوب إليه فى أهمية بالغة فى تأييد موقف الخطيب .

وعلى هامش الحديث ، نسوق هنا فقرة من كلام الخديو إسماعيل ساقها الشيخ على يوسف فى مقام الاستشهاد ، ومن عجب أن يتحدث فيها إسماعيل عن خوفه أن تكون القناة يوماً خطراً على مصر ، وهو الذى باعها بيده للمستعمرين .

سئل إسماعيل يوم جلوسه على عرش مصر عن رأيه فى أمر مشروع قناة السويس وهل يريد إتمامه أم لا فقال :

« إننى أريد إتمام مشروع قناة السويس ، على أن تكون القناة لمصر ، لا أن تكون مصر للقناة . »

* * *

ولا تقل الصورة الأدبية فى أهميتها عند الشيخ على يوسف فهو يعنى بها ، ويوليها الاهتمام اللازم ، ويعينه على ذلك مقدرته الأدبية الرائعة ، وطواعية الأسلوب له ، ومن نماذج الصور الأدبية عنده تلك التى قدمها للتنفير من اشتراط شركة القناة أن يكون لها خمسون مليوناً من الجنيهات من صافى أرباح القناة :

« مثل الشركة فى اشتراط الضمانة المذكورة ، مثل جار لك يساومك فى شراء منزل لم تعرضه للبيع ، ثم يطلب منك أن تبيعه إياه على شرط أن تجدد له بناءه كلما تهدم »

ومنها تصويره للنكسة التي حاولت الشركة أن تعيد مصر إليها حين قدمت مشروعاً خلاصته حرمان مصر من ربح القناة بعد سنة ١٩٦٨ ، أي بعد ما أوشكت أن تمدها لتجنى هذا الربح . »

« ولكن شركة القناة لم يرضها أن نحرم من ربحه العظيم طول الزمن ، فرفعت لحكومتنا مشروعاً يسير بالزمن دورته الأولى ، ويجعل ماضى القناة مستقبلاً » .

وللشيخ على يوسف أسلوبه الخاص به فى السخرية الذى كان ينال به من خصومه أو من خصوم بلاده مالا يمكن نيله بأساليب المناقشة العادية .

وقد كان المستشار المالى لمصر هدف سخرية الشيخ على وموضع وخذه اللاذع فى موضوع مد امتياز القناة ، نظراً لما كشفت عنه الأرقام من خسائر فادحة حاول المستشار أن يصورها للمصريين على أنها مكاسب :

يقول الشيخ

« ونحن نترك حساب مجموع صافى ربح القناة مدة الأربعين عاماً الجديدة على التقدير السابق لجناب المستشار ، الذى اتخذناه محامياً عن الخزينة المصرية ليبين لنا بمهارته مقدار خسارة مصر من هذه العملية التى ينصح مصر بقبولها » (١)

ومن سخريته بهذا المستشار تعقيبه على قول للمستشار تظاهر فيه بالحرص على مستقبل الأجيال القادمة فقال :

« ويظهر !! أنه يخشى على هذه الحقوق فى المستقبل ، ولذلك يريد أن يكون مستشاراً مالياً لمصر ، فى هذا الجيل ، وفى الجيل الذى لم يخلق ، ويكون من حقه وحده الحكم فى أمر قناة السويس » .

★ ★ ★

وكانت الصورة الأدبية من وسائل التأثير النفسى عند الشيخ كتلك التى صور فيها الموافقين على مد مشروع امتياز القناة بصورة الجناة على الأجيال القادمة فى قوله :

« كأنه لم يكف تلك الذرارى أننا وضعنا فى طريقها العقبات ، وأنها ستتحمل من أعباء الديون ما تنوء به الجبال فنريد أن نحملها عواقب السيء من تصرفاتنا : ونتائج المنكر من عادتنا » .

---

(١) المؤيد ٩ من فبراير سنة ١٩١٠ .

ولا يفوتني أن أختم هذا الحديث عن الشيخ من غير أن أشير إلى ما دلت عليه خطبه من قوة فى المحاجة والجدل، وما كشفت عنه من وطنية صادقة لم تحجبها صلته بالأمير .

هذا إلى ما كشفت عنه خطبة القناة من نظرات نفاذة كان فيها كأنما يستشف الغيب ، ويتنبأ باستعادة المصريين للقناة حين قال :

« إن الحكم على مستقبل القناة من شأن الأبناء وحدهم ، فإنهم بعد أربعين سنة سيكونون أقوى نفوذاً ، وأقوى بصيرة بالأمور تبعاً لسنة الارتقاء ، فيعرفون وقتئذ مصلحة مصر بعد عشرين سنة . مالا نعرفه نحن بعد ستين (١) . »

كما كشفت خطبه فى مجموعها عن تمكنه العظيم من الثقافة العربية عامة والإسلامية خاصة ؛ والتى كان يظهر أثرها فى تضمين بعض التعبيرات القرآنية كتلك التى دعا فيها رجال الصحافة وقادة الرأى « إلى كلمة سواء ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك بالوطن المقدس غيره » وقوله :

« ماذا حدث سنة ١٩٠٩ ؟ لنرجع البصر كرتين ، وسنرى توسيع اختصاص مجالس المديريات من حيث الزمن والاختصاص » .

كما كانت للشيخ التفاتاته الواعية التى تكشف عن عقل يقظ يعرف مواقع القول فيحددها بحيث لا تحيد عن مرماها » .

ومن ذلك احتراسه حينما تحدث عن الثورة العرابية ، ورد إليها الفضل فى إيقاظ الأفكار من سباتها العميق — احتراسه الذى قال فيه مراعياً شخص الخديو :

« ولكنهم تعرضوا لعرش الأمة فى وقت كان أوجب شىء عليهم فيه أن يؤيدوه ويحوطوه بمظاهر الكرامة اللائقة » .

★ ★ ★

« ذلك هو الرجل الذى لم تعده الطبيعة لكى يكون خطيباً » ولكنه استطاع بمقدرته الفائقة أن يفجر فى كلماته من ينابيع القوة ما كان يرى الأكف من التصفيق ، ويشق الحناجر بالصياح ، وينتزع الإعجاب من الخصوم قبل الأصدقاء .

---

(١) المؤيد ٩ من فبراير سنة ١٩١٠ .

نظرة عامة فى خطابة هذه الفترة

ورأينا من تتبع موضوعات البحث فيما سبق كيف كانت الخطابة السياسية صورة صادقة لحالة المجتمع الذى ارتفع صوتها فيه، وعبرت عنه من نواحيه السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية والثقافية .

وكان واضحاً أن الخطابة كغيرها من فنون الأدب يمكنها أن تكون مصدراً لتاريخ حياة مصر السياسية وغيرها فى هذه الحقبة من الزمن ، وحتى فى الفترات التى كان الاحتلال وأعوانه يفرضون عليها الصمت فإن صمتها إذ ذاك كان أقوى فى تصوير الأحوال من كل تعبير .

فهى بهذا سجل لحياة المجتمع إن نطقت وإن صمتت ، بل لعل صمتها أن يكون أكثر كشفاً لما كان أصحاب السلطان يعملون بسلطانهم على إخفائه .

★ ★ ★

وقد رأينا فى خطب الخديويين منذ إسماعيل حتى نهاية عباس صورة صادقة لمواقف الحكام من شعبنا ونظرتهم المستعلية على طول الزمن ، وكيف كانوا يستشعرون « المنة والفضل » فيما كان يتم من إصلاحات ينظرون هم إليها على أنها « منح » منهم و « إحسان » ، وكيف نما هذا الشعور حتى صرح به واحد منهم وهو توفيق فى إحدى غمرات الانفعال يوم « عابدين » .

وكذلك رأينا تصوير هذه الخطابة لروح الاستخذاء والضعف فى مواقف بعض المصريين ممن كان يزرعهم الحاكم فى بعض المنظمات بوصفهم ممثلين فيها للشعب فلا يكون لهم من أثر سوى أن يسبحوا بحمد الحاكم ، ويصدعوا بأوامره .

كما رأيناها على الجانب الآخر تصور الروح الوطنى المناضل الذى أعلن عن وجوده أواخر عهد إسماعيل ، وتحدث أصحابه بلغة أصحاب الحق الذين شعروا بالانطلاق من أسر السلطان ومن رق فضله وإحسانه .

فلما بلغ الصراع غايته فى أحداث « الثورة العرابية » رأينا نشاط الخطابة السياسية يبلغ ذروة من ذراه يسجل فيها كل مراحل الثورة ، منذ كانت روحاً يهيم فى جو الباحثين عن العدالة وعن الكرامة فى مصر ، إلى أن تجسمت فى أعمال وأحداث كانت خاتمتها الاحتلال .

وخلال السنوات العشر الأولى من عمر الاحتلال ، انسحبت الخطابة السياسية لتلوذ بصمتها القاتل وراء أستار الصمت الكثيف الذى ضربه الاحتلال والاستبداد دون حرية التفكير والتعبير ولم يكن لها من صدى فى غير تلك اللحظات الخاطفة الضعيفة التى كانت تنطق فيها لتسجل النفاق والخيانة على المنافقين وطلاب الأسلوب من المستوزرين والضعفاء .

وفى عهد عباس الثانى عادت الخطابة السياسية من جديد لتؤدى واجبها الكبير فى مواكبة الحركة الوطنية وفى قيادتها ..

صورت تحمس عباس وانضمامه للمناضلين فى بداية عهده ، ثم صورت انحرافه ونكوصه حين باع الوطن وآثر المنفعة والعافية .. وصورت استقلال الوطنيين بالنضال من أجل الاستقلال والحرية متحدين الاستعمار ومتحدين أولياءه من الحكام والوزراء .

وهكذا حتى انتهت الأحداث بإعلان الحماية على مصر وتحولت مقاليدها باطناً وظاهراً إلى جنود الاحتلال ، عندئذ انسحبت الخطابة السياسية مرة أخرى لتختفى وراء الجدار الكثيف الذى ضربته القوة الغاشمة دون حرية الشعب .

ولم يدم اختفاؤها طويلاً إلا ريثما انقشعت غمة الحرب العالمية الأولى ورفرف على العالم لواء السلام ، وعندئذ عادت الخطابة السياسية من جديد لتناضل من جديد من أجل القضية الوطنية وسجلت دورها التاريخى الكبير فى ثورة ١٩١٩ . ومعنى هذا كله أن الخطابة السياسية لم تتخلف يوماً عن مصاحبة شعبنا فى نضاله الوطنى ، بل سجلت وقع أقدامه خطوة فخطوة على طول الطريق .

أما أسلوب هذه الخطابة :

وأما أفكارها ومعانيها فكانت كذلك صورة صادقة لمراحل التطور الأدبى لفن الخطابة فى مصر منذ المماليك إلى العصر الحديث ، وصورة صادقة لمرحلة التطور التى اجتازها النثر الأدبى كله فى نفس المرحلة من الزمن .

فهى فى بداية العهد بالحياة النيابية على أيام إسماعيل امتداد طبيعى لأسلوب العهد المملوكى القائم أساساً على الزينة الجوفاء .

وفى أواخر هذا العهد ، وأوائل عهد توفيق كان أسلوبها صورة واضحة لبذور النهضة الجديدة التى بدأت تعمل عملها فى العقل واللسان المصرى على يد الأفغانى وتلاميذه ، فتطلق أولهما من إسار التقديس والخضوع الذليل للحاكم ، وتدعوه إلى قيم جديدة يؤمن فيها بأن الحاكم بشر غير معصوم ، يخطىء ويصيب .

وتطلق ثانيهما من قيوده الثقال المتوارثة التى كان يختفى المعنى وراء متاهاتها .

وكان حصادهذا كله أن أصبح أسلوبها فى الثورة العرابية مختلفاً كل الاختلاف عن سابقه أوائل عهد إسماعيل .

صحيح أن أسلوب الخطابة لم يبرأ كل البرء فى نهضته من عيوب الأسلاف ؛ وهذا هو الشىء الطبيعى الذى توجبه مراحل الانتقال وخاصةعند الخطباء الذين كانت شخصياتهم الخطابية قد تكونت فى عصور الجمود ، ولم يكن من الميسور أن ينتفضوا مرة واحدة على الطريق الجديد متخلصين نهائياً من سمات ماضيهم .

ولهذا رأينا إلى جوار المعانى والألفاظ الثورية التى دخلت معاجم الخطباء فى الثورة العرابية كالحرية والشورى ، وحق الأمة فى الحكم وسيادتها على أرضها...

إلى جوارهذا كانت أساليب بعض الخطب لاتزال مشحونة بتلك السبحات العاطفية المبهمة التى لا تكاد ترتبط بهدف .

وحين ظهر مصطفى كامل بعد الثورة العرابية رأينا أسلوبها يسجل على يديه أزهى الصور الأدبية وأكثرها إشراقاً عن معانى « الوطنية » ، ويضفى أروع الأخيلة وأسماها على « الأمل » الذى يجب أن يعيش الشعب عليه ، ومن أجل تحقيقه ، وكان هذا أسلوب مرحلة الإيقاظ التى قادها الوطنيون عامة والشباب منهم بوصف خاص .

وغنى عن البيان أن أسلوب هذه الخطابة كان يختلف بين المجالين الرسمى والحر تبعاً لاختلاف ظروف كل منهما ، وتبعاً لاختلاف التقاليد التى كان يفرضها المجال الرسمى على الخطبة فى موضوعها وكلماتها .

فبينما كان المجال الحر للخطابة طليقاً من كل القيود يسمح للخطيب بتناول أى الموضوعات والتعبير عن شتى المشاعر دون مبالاة بما قد تحمله الكلمات من جدة وثورية ..

فى نفس الوقت كان المجال الرسمى يحبس الخطيب — بعض الشىء — فى نطاق التقاليد وفى الحدود التى يسمح له القانون بالتحرك فيها .

وفيما وراء هذه الملامح العامة للخطابة كانت شخصية كل خطيب تتضح فى خطبه تفكيراً ، وتعبيراً ، وثقافة ، ويتجدد فى كلماتها رصيد من الوطنية، ومقدار إيمانه بالقضية التى يدافع عنها .

وهى بهذه المثابة تصلح لأن تكون سجلاً للحياة الفكرية العامة فى مصر ثم لحياة الخطباء وشخصياتهم أنفسهم .

تقدير وحكم

أولاً :

أهناك ميدان من الميادين كانت الحاجة فيه تدعو إلى ظهور الخطابة السياسية فإذا هى تختفى وتنكص ؟

أهناك موقف وطنى لم تساهم فيه بنصيبها وسبقتها إليه فنون الأدب الأخرى ؟

أم هل كان هناك حدث اهتزت له البلاد ، وجاء تعبير الخطابة عنه مبتوراً لا يصور كل الحقيقة ولا يعكس كل الأصداء ؟

وبعبارة شاملة : هل قصرت الخطابة السياسية فى مواكبة الحركة الوطنية وتخلفت عنها ؟

إن استقرار الأحداث والمواقف يحملنى فى ثقة على أن أقول .. لا . لم تتأخر ولم تقصر ، بل كانت اللسان المعبر عن رغبات الشعب ، والذائد عن حقوقه ، وكانت السوط الذى أمسك به قادة الحركةالوطنية ليلهبوا به ظهور المستبدين من الحكام، ومن يحمونهم من سلطات الاحتلال .

ثانياً :

ما مدى نجاح الخطابة السياسية فى تصوير المشاعر الوطنية ؟

فيما يتصل بقضية الشعب الكبرى – قضية الجلاء والحرية – لم يكن مسموحاً للخطابة فى نطاقها الرسمى أن تباشرها أو تتعرض لها ، وفى المجال الحر كانت وجهات النظر تختلف حول أسلم الطرق لتحقيق هذا الأمل .

فبينما كان رجال الحزب الوطنى يأملون فى تحقيقه عن طريق استغلال الظروف الدولية والاعتماد على التأييد الخارجى ..

كان رجال حزب الأمة يرون الاعتماد على النفس أساس تحقيق الاستقلال ، وكان حزب الإصلاح يرى أن الاتفاق مع الإنجليز اعتماداً على وعودهم بالجلاء هو السبيل .

وأما تأكيد حق الشعب فى مشاركة الحاكم مسئولياته وسلطاته ، فقد ألحت فيه الخطابة إلحاحاً اشترك فيه الخطباء فى كل من الجانبين الرسمى والحر بما يعبر عن الإيمان العميق بهذا الحق .

وظهر صدى ذلك فى المطالبة بتوسيع اختصاص الهيئات النيابية ودفاع الخطابة عن حرية الصحافة ، وعن حق الهيئات النيابية فى سؤال الوزراء ، والتعقيب على ما يجيبون به بما معناه طرح الثقة بالوزراء .

ثالثاً :

ما مدى تصوير الخطابة السياسية لقوة الرأى العام ومبلغ تصوره ؟

كانت الخطابة السياسية بهذه الفترة سجلا دقيقاً لحركة الرأى العام المصرى ولتطوره خلال هذه الحقبة من الزمن .

فبينما رأيناها تسجل تقديس المحكومين للحكام فى فترة رأيناها تسجل بعد فترة لرجال آخرين من ممثلى الشعب ، وممن جلسوا على نفس المقاعد إصرارهم العنيد على تأكيد حق هذا الشعب فى « الهيمنة على الحكومة ، لا مجرد مشاركتها فى المسئولية » (١) .

كما سجلت فوق هذا أخطر تطور فى موقف الرأى العام الذى نزل بالوزراء ، والمسئولين عامة إلى مصاف العاديين من البشر ، الذين يجب نقدهم ، والتشكك فيما يصدرون من أحكام . (٢)

رابعاً :

ما هى المنزلة الفكرية والثقافية لهذه الخطابة ؟

رأينا فى جملة ما عرضنا من نماذجها ، وخاصة عند العمالقة من أمثال مصطفى كامل ، ولطفى السيد وإسماعيل أباظه وسعد زغلول وغيرهم ..

كيف وصلت هذه الخطابة إلى درجة عظيمة من رقى المستوى الفكرى والثقافى الذى كان يتضح فى سعة آفاق أولئك الخطباء فى تناولهم للأمور وربطهم بين الأحداث المحلية والتطورات العالمية فى الخارج ، ثم فى تناول الأفكار ، والآراء السياسية بمستوى رفيع من الفهم الناضج ، والدراسة الواعية .

وكذلك فى إبداء الآراء المدروسة الواعية فى أهم المشكلات والقضايا التى عالجتها ،

(١) عبد اللطيف الصوفانى فى الجمعية العمومية – المؤيد ٢٦ من مارس ١٩١٠ .

(٢) اسماعيل أباظه فى تعقيبه على كلمة لسعد باشا زغلول – اللواء ٣١ من مايو سنة ١٩١٠.

وعدم انحدارها إلى حالة الإسفاف والمهاترات على الرغم من احتدام الجدل والخصومة فى كثير من الواقف .

خامساً :

ما مقدار رصيد رجالها من المقومات الفنية للخطابة ؟

التدفق الخطابى ، والعناية بالجانب النفسى عند السامعين ، والبديهة الحاضرة ،

والمهارة فى استخدام الدليل ، والعناية بتلوين الأساليب والاقتباس وحسن الاستشهاد والتوفيق فى تكوين الجملة وفى رسم الصورة الأدبية ، وما إلى ذلك من مقومات الأسلوب الخطابى .. كانت هى القدر المشترك الذى توفر لخطباء هذه الفترة فى مجموعهم ، وإن تفاوتت درجة توفره بتفاوت الحظوظ الشخصية من هذه المقومات .

والخطابة التى يستطيع رجالها أن يخطبوا الساعات الطوال فى موضوع واحد دون أن يضطروا إلى تكرار أنفسهم ، أو إلى التهافت والإسفاف والالتجاء لما يثير الملل ..

مثل هؤلاء يعتبرون — دون شك — ذوى حظ عظيم فى المقدرة الخطابية لا سيا إذا وضعنا فى تقديرنا ظروف العصر الذى كانوا يعيشون فيه .

سادساً : هل نادت الخطابة السياسية بالمثل العليا ، وبالقيم التى كان يؤمن بها الشعب ويعمل على إعلائها ؟

لقد نهضت الخطابة بأعباء توجيه وقيادة الشعب فى مرحلة من تاريخه بالغة الأهمية شديدة الدقة والخطر ، كان خلالها خارجاً من الثورة العرابية بما أعقبه فشلها فى المجتمع من سلبية تجاه القضايا العامة ، وأنانية فى المجال الفردى ، وضعف بلغ حد الهوان فى مواجهة الأقوياء .

وكان على الخطابة السياسية أن تتصدى لكل هذه الأدواء فتنتزعها وتحل محلها من القيم الرفيعة ما يحفظ للشعب تماسكه ويعده لمسئوليات المستقبل ، فهل قدر لها التوفيق فى ذلك ؟

إن الجواب الأكيد : نعم ..

فقد تبنت الخطابة السياسية جملة من الشعارات التى كان الموقف بحاجة إليها وألحت إلحاحاً فى تثبيتها ، وفى مقدمتها بعث الحياة وتجديد الأمل ، إلى حد أن رأينا خطيباً عظيماً من عظمائها كمصطفى كامل يركز جزءا كبيراً من خطبه لتأكيد شعاره المشهور « إنه لا حياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحياة » .

وبعد أن نفض الشعب عن نفسه غبار اليأس ، ودبت الحياة فى اوصاله ، بدات الخطابة تعده لما تضطره إليه حالته ما بعد اليقظة .

وظهرت شعارات الاعتماد على النفس ، وإطراح السلبية ، والاحساس بالتبعة تجاه القضايا العامة ، كما ظهرت الدعوة إلى الاحتفاظ بقومية الشعب بعيداً عن التبعة ، وتأكيد شخصيته فى الدعوة إلى المحافظة على اللغة والثقافة والتقاليد الشرقية عامة ، والإسلامية خاصة .

وظهرت فيها الدعوة إلى الصراحة فى مواجهة عيوب المجتمع وضرورة كشفها للتخلص منها ، وإطراح ما كان من قبل أشبه بأوهام النعام فى توهم الاختفاء عن طالبيها بإخفاء رأسها فى الرمال كما دعت وألحت فى دعوتها على تأكيد وجود الفرد ، وتدعيم ذاته فى مواجهة القوة التى يكسبها الحكم للحكام .

ومن أظهر وأعظم القيم التى مجدتها الخطابة سواء بالطريق المباشر أو غير المباشر ، أنها لم تفسح المجال أمام عوامل التمزيق والتفرقة ، بل كانت على العكس تعلي راية الوحدة الوطنية ، وتصب سخطها على أية محاولات للتمزيق .

وجدير بالتسجيل أنه على الرغم من اختلاف وجهات النظر فى كثير من المسائل الحزبية والسياسية واحتدام الجدل حولها فإن هذا الخلاف لم يتزل يوماً بالخطابة السياسية إلى مستوى المهاترة والإسفاف والسباب ، بل ظل مجال الخلاف والصراع محصوراً فى مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل واستمرت الخطابة واستمر خطباؤها محتفظين باتزانهم على الدوام .

★ ★ ★

ومما يجدر تسجيله كذلك أنه بمقارنة الخطابة السياسية بغيرها من فروع الخطابة كالخطب الاجتماعية (١) ، وخطب المناسبات (٢) ، والخطب الدينية والقضائية (٣) .

---

(١) كخطبة بوغوص فى نادى النقابات الزراعية ١٧ من يناير سنة ١٩١٠ وخطبة الملباوى فى نادى طنطا الرياضى فى ٣ من فبراير سنة ١٩١٠ .

(٢) كخطبة محافظ الاسكندرية فى استقبال الخديو ٢٧ من يناير ١٩١٠ وخطبة شيخ علماء الإسكندرية فى توزيع المكافأة على الطلبة المؤيد ٢٣ من يوليو ١٩١٠ .

(٣) مرافعة النيابة فى قضية (وطنيّ) ودفاع محمد بك على وأبو شادى بك وأحمد بك لطفى الجريدة ١٦ /٨ ١٩١٠ .

إذا قورنت الخطابة السياسية بغيرها من هذه الخطب ألفينا ميزانها يرجحها جميعاً وخاصة ـ خطب المناسبات التى كانت تبدو متهافتة يملؤها المسمع المتكلف والزينة الفارغة، ومثلها الدينية التى جاء بشأنها فى قانون لجنة ترقية الوعظ والخطابة فى المساجد ما نصه :

« تقضى المادة (٧) منه بأن تجتمع اللجنة لقراءة الخطب الواردة إليها لتجيز منها ما تراه صالحاً حيث تنشره وتقرر له مكافأة » .

وخلاصة القول إن التقدير الفنى لمنزلة هذه الخطابة يعلى من شأنها ويجعلها خليقة بالمزيد من التقدير .



وبعد :

فإذا كان هذا البحث يعتبر المحاولة الأولى للتأريخ الأدبى لهذا الفن الوطنى الرفيع فليس فى الحقيقة سوى خطوة على طريق إنصاف هذا الفن يجب أن تتبعها أبحاث ودراسات تعالج شئون الخطابة السياسية فى مصر خلال ثورتى ١٩١٩ ، ١٩٥٢ وما كان بينهما من انتفاضات وأحداث ، وما صاحبهما من تيارات وظروف نشطت ألواناً من هذه الخطابة حزبية وغير حزبية وظهر فيها خطباء كانوا ذوى مكانة غير عادية ، ثم ما خلفته تلك الخطب من شعارات ومبادئ ، وما أحدثته فى العقل المصرى ثم فى العقل العربى من آثار .

★ ★ ★

كما ينبغى أن تكون هناك دراسات متخصصة تتابع الخطابة السياسية فى مختلف الثورات ـ والانتفاضات التى حدثت فى بلدنا منذ ما قبل محمد على إلى الفترة التى شملها هذا البحث ، والتى قامت فيها الثورة العرابية .

فالذى أعتقده أن الظروف التى عاش فيها شعبنا إذ ذاك : كانت أكثر ملاءمة لنشاط الخطابة السياسية لطغيان الأمية من ناحية ولضغط الأحداث وكثرة المظالم من ناحية ثانية .

وإن ما سجله التاريخ من مواقف مشرفة للكثيرين من زعمائنا فى ذلك التاريخ ليعلن عن وجود القيادات الشعبية التى كان سلاحها الأول والأخير هو الخطابة .. واست بمستطيع أن أتصور السيد عمر مكرم ، أو الشيخ الشرقاوى أو غيرهما قادرين على أخذ مكانهم بين الجماهير دون أن يكون لهم حظ من التوفيق الخطابى ومقدرة على التعبير المثير النافذ .

ولو قدر للباحثين أن يسدوا الفراغ فى هاتين الحقيقتين تكون الخطابة السياسية فى مصر

الحديثة قد أخذت حقها من الدرس الواجب وتسد به الثغرة المكشوفة فى مكتبتنا العربية عن هذا الفن العريق .

كما أن الوفاء بهذا هو فى نفس الوقت تسجيل لتاريخ النضال الوطنى فى مصر تستشف فيه الحقيقة من خلال ما يقوله الخطباء ، وتظهر فيه القيم الحقيقية لكل زعيم منهم بعيداً عن الأضواء التى تفرض الظروف أحياناً على من يكتبون التاريخ أن يسلطوها عليهم .



وإذا كنا نعيش الآن فى عصر اليقظة العربية والقومية والوحدة العربية ، فاعتقادى أن من الضرورى أن تكون ثمة أبحاث ودراسات متخصصة فى شئون الخطابة السياسية فى جزء من أجزاء وطننا الكبير يتتبع القائمون بها أبطال الانتفاضات العربية فى العراق والشام والحجاز وفى السودان وفى المغرب العربى كله ، بل فى كل مكان عاش فيه وكانت لهم فيه حياة سياسية حافلة فإن الصيحة الخطابية الخالدة التى أعلنها طارق بن زياد يوماً على شاطىء الأندلس لتدل حتماً على وجود المئات والآلاف من خطباء السياسة الذين صنعت كلماتهم هناك كل ما عشناه فى الأندلس من انتصار وهزيمة .

وستكشف هذه الدراسات للخطابة عن دورها الخطير فى مختلف مراحل النضال العربى ما انتصر منه وما منى بالهزيمة .

وستكون إلى جوار الوثائق التاريخية والسياسية الدليل الصادق لسبر أغوار الزعماء والقادة ، من كان منهم يقول عن إيمان ، ومن كان خداعاً يزيف القول ، ويعبث بمصائر الناس .



بل إيمانى بهذا الفن ليدفعنى إلى أن أقترح القيام بدراسات متخصصة للخطابة السياسية عند العرب فى تاريخهم القديم منذ أصبحت لهم دولة كبرى يتنازعون من حولها بعد ظهور الإسلام ، وخاصة فى ذلك الصراع الدامى منذ الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان .. هذا الصراع الذى كانت الخطابة سداه ولحمته ، وكان الخطباء فيه قبل الشعراء مثيرى الفتنة وموجهى خطاها .



كل هذا جدير بعناية المشتغلين ، بالأدب ، نقده وإنتاجه ، وخاصة فى هذا العصر الذى نحن فيه فى أشد الحاجة لأن ندرس بعناية كل وسائل الدعوة فإن حرب الكلمات اليوم لها أثر عظيم فى مستقبل الإنسانية كلها .

والكلمة المنطوقة بين مختلف الكلمات أقواها ، وأشدها تأثيراً . فلنعط الخطابة من عنايتنا ما هى جديرة به حتى تلحق بغيرها من فنون الأدب ، وتأخذ نصيبها من الرعاية والإنصاف .



والله أسأل أن يمنحنى التوفيق ، وأن يعيننى على الوفاء ببعض ما أدعو له ..

إنه نعم المستعان .. وهو حسبى .

عبد الصبور مرزوق

نماذج من

الخطابة السياسية في مصر

من الاحتلال البريطاني إلى إعلان الحماية

١ - الخديو اسماعيل

(خطبته في افتتاح مجلس شورى النواب في ٢٥ من نوفمبر سنة ١٨٦٦) ١٧ من رجب سنة ١٢٨٣ (عن : الرافعي - عصر إسماعيل ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠) .

* * *

« من المعلوم أن جدى المرحوم حين تولى مصر وجدها خالية من آثار العمار ، ووجد أهلها مسلوبى الأمن والراحة ، فصرف الهمم العالية لتأمين الأهالى وتمدين البلاد بإيجاد الوسائل والأسباب اللازمة إلى ذلك حتى وفقه الله تعالى لما أراده من تأسيس عمارية الأقطار المصرية ، وكان والدى عوناً له ونصيراً فى حياته .

فلما آلت إليه الحكومة المصرية اقتفى أثر أبيه فى إتمام تلك المساعى الجليلة بكمال الجد والاجتهاد فلو ساعده عمره لكملها على أحسن نظام .

ثم انقلبت أحوال مصر بعدهما إلى أن قدر الله تعالى تسليم زمام إدارة حكومتها إلى يدى .

ومن حين تسلمته لهذا الآن رأيتم دوام سعيى واجتهادى فى إكمال ما شرعاه من المقاصد الخيرية بتكثير أسباب العمارية والمدنية أعاننى الله على ذلك .

وكثيراً ما كان يخطر ببالى إيجاد مجلس شورى النواب لأنه من القضايا المسلمة التى لا ينكر نفعها ومزاياها أن يكون الأمر شورى بين الراعى والرعية ، كما هو مرعى فى أكثر الجهات . ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى « وشاورهم فى الأمر » وبقوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » ، فلذا استنسبت افتتاح ذلك المجلس بمصر ، تتذاكر فيه المنافع الداخلية ، وتبدى به الآراء السديدة ، وتكون أعضاؤه مركبة من منتخبى

الأهالى ، ينعقد بمصر فى كل سنة مدة شهرين ، وهو هذا المجلس المقدر بعناية المولى فتحه فى هذا اليوم المبارك على يدنا الذى أنتم فيه أعضاء منتخبون من طرف الأهالى .

وإنى أشكر الله على ما وفقنى لهذا الأمر المبرور ، وواثق من فطانتكم بحصول النتيجة الحسنة من حسن المداولة فى المنافع الداخلية الوطنية ، وفقنا الله تعالى لما فيه منفعة الجمهور ، وعلى الله الاعتماد فى كل الأمور » .

٢ ـ (مناقشات تاريخية)

فى الجلسة التى حاولت الحكومة فيها فض دورة مجلس شورى النواب ، وأصر الوطنيون على استمرارها حتى تجيبهم الحكومة إلى ما سألوا عنه .

مثل الحكومة مصطفى رياض باشا ومثل الوطنيين محمد أفندى راضى وعبد السلام بك المويلحى وباخوم أفندى لطف الله .

كانت الجلسة يوم الخميس ٤ من ربيع الثانى سنة ١٢٩٦ هـ (٢٧ من مارس سنة ١٨٧٩م.
عن : مضبطة المجلس ، كتاب عصر إسماعيل للرافعى ج ٢ ص ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣) .

★ ★ ★

تلا رياض باشا أمر الانفضاض وهذا نصه :

« بالنظر للبند التاسع من لائحة مجلس شورى النواب المحدد به ثلاث سنوات لمأمورية ذلك المجلس ، والنظر لمضى هذه المدة ، وإنه عرض لنا عن ذلك من رئيس مجلس النظار أصدرنا أمرنا هذا وهو أن مجلس شورى النواب قد انفض ، وسعادة ناظر الداخلية موكل بإجراء هذا الدكريتو » . وأضاف رياض مخاطباً الأعضاء :

«أبدى لكم كامل الشكر والثناء على ما أبديتموه من الهمم والمساعى الخيرية التى من اللزوم أن نكون جميعاً فيها كرجل واحد ، إنما حصلت بعض معذوريات أوجبت التأخير ، ولكن لابد من الحصول على إتمامها والمسائل التى أوضحتم عنها صار تلقيها بغاية الاعتبار ، وإن شاء الله متى كانت القلوب متجهة إلى حسن النية فستكون الحالة حسنة خيرية ، وفى الاجتماع الجديد لابد من النظر فيما فيه المصلحة .. » وعندئذ نهض النائب الجرىء محمد أفندى راضى وقال :

« مما طلب المجلس لأجله النظر فى مسائل مالية ، وقد مضى ثلاثة شهور وما كانت ترد ، والملحوظات التى تحررت عن الأقلام التى تحررت للمجلس أرسلت الداخلية للنظر فيها بمجلس النظار ، ولداعى مضى المدة ، وعدم ورود شىء ودخول وقت الصيف طلبنا إجازة مدة شهرين لرؤية أشغالنا ونعود ، والأمر الصادر الآن ذكر فيه أن المجلس

انتهت مدته مع أنها ما انتهت ، وحاصل الأمر أنه لابد من عودة المجلس بعد المدة التى قررها لأجل رؤية تلك المسائل والملحوظات :

عبد السلام بك المويلحى : إن المجلس طلب عدم قطع أمر فى أى شىء كان إلا باشتراكه ، وإن بعض الأعضاء يقول إنه إذا كان لا يحصل ذلك ربما يحصل من الأهالى أمور لا يصح وقوعها ويكون مجلس النظار تحت المسئولية .

رياض باشا : ما قلتموه الآن هو بخلاف لائحة المجلس والجارى لحد تاريخه ولا يمكننى أن أجاوب على ذلك منفرداً وإنما ينظر فيه مجلس النظار ، والمأمول ألا يحصل شىء من الأهالى مما يكدر الراحة » .

عبد السلام بك المويلحى : المجلس لائحته تقضى أن ينظر فى المنافع الداخلية والتصور التى تراها الحكومة أنها من خصائصه ينظر فيها ويعطى قرارات تعرض للحضرة الخديوية .

رياض باشا : الخروج عن اللائحة والقانون الموجودين لا يمكن إلا بأمر ثان .

محمد أفندى راضى : اللائحة تعطى للمجلس حقوقه .

رياض باشا : ننظر فى اللائحة والاجراءات السابقة وإذا كان مجلس النظار أو سعادة والى النعم يبدى شيئاً آخر فهذا يجرى مايلزم عنه . وأما مجيئى فإنه لأجل أداء الشكر والتوجه لطائف الأعتاب الخديوية كما هو جار حسب المعتاد عند انفضاض المجلس .

محمد أفندى راضى : شكر سعادتكم مقبول ، لكن لا يمكن صرف المجلس إلا إذا نظر فى المسائل التى حرر عنها فى الميزانية .

بدينى أفندى الشريعى : الأمر الصادر يقضى بلغو المجلس (إلغائه) فالمقصود إثبات مجلس الشورى ولا تحصل إجراءات ولا قوانين من مجلس النظار إلا بالاشتراك مع مجلس النواب .

رياض باشا : الأمر يقضى بانفضاض المجلس لانقضاء مدته وبالضرورة عند الانتخاب الجديد لابد أنه سيحصل من نفس أهالى الوطن لا من خلافهم .

باخوم أفندى لطف الله : توجهنا إلى البلاد بهذه الكيفية ربما يحصل منه زعزعة للأهالى بناء على الوعد السابق حصوله من حضرات النظار بسبب التشكى الذى حصل من الأهالى وقيل لهم بأن نوابكم موجودون للنظر فى راحتكم والأولى أن ننظر الوسائل التى قررناها وميزانيته المالية بمعنى أن المجلس يحضر بعد ١٥ بشنس ، وبعد نهو مدة المجلس لا مانع من تجديد الانتخاب .

رياض باشا : الصعوبات الحاصلة لا تنتهى فى ظرف شهر أو شهرين ، وتلك الصعوبات لا يمكن إبداؤها والحالة هذه والمسائل التى حرر المجلس عنها جارى النظر فيها والمجلس بواقع لائحته قد انقضت مدة الثلاثة سنوات التى يلزم الانتخاب بعدها .

محمد أفندى راضى : المجلس لم يزل باقياً له مدة ، وقد سمع المجلس أن سعادتكم احضرتم أصحاب الجرانيل وأكدتم عليهم بعدم درج شىء فى جرانيلهم مما يتعلق بمجلس الشورى والأجانب وهذا فيه نوع تضييق .

عبد السلام بك المويلحى : من ضمن ما قلتموه سعادتكم إن أهالى مصر همج ، وإنه لا يوجد فيهم عشرة يفهمون ما يقال فى الجرانيل مع أنه لا يصح نسبة جميع أهالى الوطن لهذه الحالة التى لا تليق .

رياض باشا : الذى صار التنبيه على كتاب الجرانيل عنه هو ما يتعلق بالأمور التى لا تعلق لها بالقطر مثل الجورنالجى يكتب عبارة من الوارد بجرانيل الأورباويين مع أن أولئك لهم قواعد وقوانين غير قواعد وقوانين بلدنا ويدرجون أشياء مما يخدش من أذهان العامة الذين لا يمكنهم التصرف فى مثل هذه الأفكار .

محمد أفندى راضى : لانتوجه لطرف الأعتاب إلا إذا أعطى لمجلس النواب حقوقه ، وأجيبت طلباته وها نحن منتظرون الجواب الذى يرد عن ذلك .

★ ★ ★

واستقر رأى المجلس على ذلك ، وعلى أن ترسل صورة هذا المحضر إلى المعية السنية وصورة أخرى إلى مجلس النظار .

وكان لهذه المناقشة أثرها فى عدول الحكومة عن موقفها .

٣ ـ محمد شريف باشا

(ألقاها فى وفد الضباط الذى جاء لتهنئته بتولى الوزارة وكان على رأسهم عرابى وذلك يوم الجمعة ١٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ .

عن الرافعى ــ الثورة العرابية ص ١٤١) .

★ ★ ★

نص الخطبة :

فى علمكم ما قاله الأقدمون : آفة الرياسة ضعف السياسة ، ولا حكومة إلا بقوه ، ولا قوة إلا بانقياد الجنود انقياداً تاماً وامتثالهم امتثالاً مطلقاً .

« كل حكومة عليها فرائض وواجبات ، من أهمها صيانة الوطن وحفظ الأمن العمومى فيه وهذا وذاك لا يأتيان إلا بطاعة رجالها العسكرية .

« فترددى أولاً فى قبول الرياسة ما كان إلا تجافياً عن تأسيس حكومة غير قوية تخيب بها الآمال ويزيد معها الإشكال ، فأكون عرضه للملامة بين إخوانى فى الوطن وبين الأجانب .

« وحيث أغاثتنا الألطاف الإلهية ، وحصل عندى اليقين بانقيادكم فقد زال الاضطراب من القلوب ، ورتبت الهيئة الجديدة من رجال ذوى عفة واستقامة .

« فأوصيكم بملاحظة الدقة فى الضبط والربط لأنها من أخص شئون العسكرية ، وأساس قواها .

« واعرفوا أنكم مقلدون أشرف وظيفة ، فقوموا بأداء واجباتها الشريفة ، وعلى القيام بأداء كل ما يزيدكم فخراً وسؤدداً وفقنا الله وإياكم » .

٤ ــ محمد باشا سلطان

(خطبته فى افتتاح مجلس شورى القوانين يوم السبت ٢٤ من نوفمبر سنة ١٨٨٣ ــ ٢٤ من محرم سنة ١٣٠١ عن : الرافعي ــ مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى ص ٥٣) .

★ ★ ★

« قد دعتنى ثقة الحضرة الفخيمة الخديوية لرياسة مجلس شورى القوانين فصرت سعيداً لوجودى بين حضراتكم أيها الذوات والأعيان ، الذين اجتمعتم هنا بناء على ما للحضرة الخديوية السنية وللأهالى من الثقة فيكم .

واجتماعنا هنا هو بقصد الاشتراك فى الأعمال المتعلقة بسن القوانين فاقبلوا منى جميل التحية وكونوا على يقين بأنى أقوم بما حملته على وظيفتى من الواجبات بدون غرض .

هذا وأقول إن من مقتضى وظائفنا النظر فى مشروع كل قانون وكل أمر يشتمل على لائحة إدارية عمومية تقبل أن يصدر ذلك للقانون أو تلك اللائحة . وإن لم تقبل الحكومة رأينا فعليها أن تعلننا بالأسباب التى أوجبت عدم قبولها . ويجوز لنا أيضاً أن نطلب من الحكومة تقديم مشروعات القوانين أو اللوائح الإدارية التى يتراءى أنها تأتى بفائدة على البلاد . ولنا أن ننظر فى العرضحالات التى ترسل إلينا من طرف الحضرة الخديوية بالكيفية المدونة بالقانون النظامى .

هذا وميزانية إيرادات ومصروفات الحكومة العمومية يجب إرسالها لنا ، ويجوز لنا أن نبدى رأينا ورغباتنا فى كل قسم من أقسامها ، ثم نبعث هذه الآراء وهذه الرغبات إلى سعادة ناظر المالية الذى يجب عليه فى حالة رفضها أن يبين لنا الأسباب الداعية لذلك . وكذلك يرسل لنا فى كل سنة حساب عموم الإدارة المالية عن السنة التى انقضت وأقفلت حساباتها لإبداء رأينا وملحوظاتنا فيه » .

وتتكون الجمعية العمومية من حضرات النظار ومنا ومن الستة والأربعين الأعيان المندوبين من المدن والمديرات .

وأهم امتيازات هذه الجمعية هو أنه لا يجوز ربط أموال أو رسوم جديدة على الأطيان وسائر العقارات أو على المنقولات أو ربط عوايد شخصية فى القطر المصرى إلا بعد المداولة بالجمعية العمومية فى ذلك وإقرارها عليه. »

« فإذا قمنا بهذه الوظائف حق القيام بالنشاط والتروى ، فنكون قد أتينا بمساعدة الحكومة فى أداء وظيفتها العليا ، وأتينا بلادنا بخدمات جليلة وحققنا بذلك ما أظهرته الحضرة الخديوية وجميع الأهالى من الأمل والثقة فينا ؛ نسأل الله حسن المبدأ والمصير ، إنه على كل شىء قدير وبالإجابة جدير » .

٥ ـ احمد عرابى

خطبته يوم سفر آلايه من العاصمة إلى الشرقية فى ٦ من أكتوبر سنة ١٨٨١ ألقاها فى مودعيه بمحطة القاهرة :

عن الرافعى الثورة العرابية ص ١٥٣ ـ ١٥٤

★ ★ ★

نص الخطبة :

سادتى وإخوانى :

بكم ولكم قمنا وطلبنا الحرية ، وقطعنا غرس الاستبداد ، ولا نثنى عن عزمنا حتى نحيي البلاد وأهلها . وما أقصد بسعينا إفساداً ولا تدميراً ، ولكن لما رأينا أننا بتنا فى إذلال واستعباد ولا يتمتع فى بلادنا إلا الغرباء ، حركتنا الغيرة الوطنية ، والحمية العربية إلى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الأمة .

« وقد ساعدتنا العناية الإلهية ومنحنا مولانا وأميرنا الخديو ما طلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائر بنا فى غير طريق الوطنية ، وتمتعنا بمجلس الشورى لتنظر الأمة فى شئونها وتعرف حقها كباقى الأمم المتمدنة فى العالم .

« ومن قرأ التواريخ يعلم أن الدول الأوربية ماحصلت على الحرية إلا بالتهور وإراقة الدماء وهتك الأعراض وتدمير البلاد ، ونحن اكتسبناها فى ساعة واحدة من غير أن نريق قطرة دم ، أو نخيف قلباً أو تضيع حقاً ، أو نخدش شرفاً .

« وما أوصلنا إلى هذه الدرجة القصوى إلا الاتحاد والتضافر على حفظ شرف البلاد فالآن ننادى بصوت واحد : فليعش الجناب الخديو واهب الحرية ، وليعش الجيش المصرى طالب الحرية ، فلتعش الحرية فى مصر خالدة مؤبدة .

« نحن الآن فى نعمة جميلة ، وعزة جميلة ، وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من يطلبها من إخواننا الشرقيين ، على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة ويجانب حدوث ما يكدر صفو الراحة .

ثم قال :

« إن الطمأنينة عادت كما كانت ، وعدنا إلى ما نشأنا عليه من طاعة مولانا الخديو وخضوعنا له ولوزرائه الفخام ، فلا تأخذكم الأراجيف وإشاعات أعداء الوطن ، وثقوا بسعي أميرنا ورجاله .

« وإنى سائر بإخوانكم إلى رأس الوادى ، فأستودعكم الله جميعاً وأقبل أخى على بك فهمى بالنيابة عن الجيش كله ، وأخى محمد أفندى عبيد بالنيابة عن جميع المودعين من أمتنا الشريفة المحبوبة » .

٦ ـ محمود سامى البارودى

(ألقاها بديوان الجهادية (وزارة الحربية) بقصر النيل بعد إجابة مطالب العرابيين وزيدت رواتب الضباط والجنود ، وذلك فى أبريل ١٨٨١ .

عن الرافعى : ــ الثورة العرابية ص ١٠٥)

* * *

هذه ليلة أنس دعتنا إلى الاجتماع فيها دواعى المحبة والائتلاف تذكاراً لما آثر الحكومة الخديوية الجليلة التى وجهت عزيمتها إلى إصلاح أحوال الأهالى جميعاً و تعميم العدل فيهم، وإيصال كل إلى ما يستحق .

وقد رأينا فى هذا الزمن القليل من عهد ما استلم خديوينا العظيم زمام الحكومة تغيراً مهماً إذ تبدل فيه العسر باليسر ، والظلم بالعدل والنقم بالنعم ، وتقدمت فيه البلاد إلى نجاحها تقدماً سريعاً .

وما ذلك إلا من حسن مقاصد هذا الجناب وطهارة سجاياه ، خصوصاً وإنه اصطفى لمساعدته على مقاصده الجليلة رجلاً غيوراً على المهمة زكى النفس ، وهو حضرة دولتو رياض باشا ، فلم يأل جهداً فى العمل ، ولم يقصر فى تذليل المصاعب باتحاده مع حضرات رفقائه الكرام حتى وصلنا إلى هذه الغاية التى لا ينكر أحد حسنها .

ولا ريب فى أن هذه نعم يجب علينا استبقاؤها وحفظها ، والاستزادة منها ، ولن يكون ذلك إلا إذا قرناها بالشكر عليها ، فقد قالوا الشكر سياج النعم .

وحقيقة الشكر أن نكون جميعاً مخلصين للحكومة فى خدمته قائماً بواجباته لها ، معضداً لجميع مقاصدها ، خاضعاً لأوامر الحضرة الخديوية التى هى السبب فى هذا الخير العظيم . وعلى ذلك لابد أن ننادى جميعاً .

فلتحيا الجناب الخديو أطال الله بقاءه .

٧ ـ مصطفى باشا رياض

« ألقاها ليلة احتفال العرابيين بإجابة مطالبهم بديوان الجهادية « وزارة الحربية » بقصر النيل فى أبريل سنة ١٨٨١ .

عن الرافعى : الثورة العرابية ص ١٠٦)

★ ★ ★

نص الخطبة :

« هذه ليلة سرور تجلى فيها روح الصدق والإخلاص ، واجتمعت فيها القلوب على قصد أداء الشكر للجناب الخديوى ، غير أن تذكار محامده وتآثره الجليلة يجعل للشكر موضعاً يقع موقع الغرض الشرعى .

« إن محسنات العدل ووجوه الإصلاح التى استأثرت بها مدة حكم الجناب الخديوى فى هذه الأوطان أمر معلوم ، نعيد تعدادها من قبيل تحصيل الحاصل .

« وأنتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم ، فلا حاجة إلى بسط الكلام فيه ومن آراء توضيح الحقيقة فليقارن ما بين الحالة الحاضرة ، وما قبلها بسنين يظهر له الفرق الجلى والبون القائم بين الحالتين .

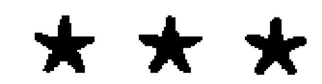
« وإن ضباط العسكرية وهم من أشرف أعضاء الحكومة ممن شملتهم هذه الحسنات ، وعمتهم فوائد الإصلاح .

« ومن أهم وجوهه التى شهدناها فى عصر الخديوى الجليل ، تقرير الأمن على الأرواح والأموال وحفظ الحقوق الشرعية وأداؤها لأربابها ، ويلزم لدوام ذلك ثبوت الطمأنينية ورسوخ قاعدة الراحة العمومية ومدار ذلك وأساسه انتظام حال العسكرية .

« وقد رأيتم من أنفسكم أن حقوقكم وصلت إليكم وأنتم روح الضباط والربط ، وأنتم قوة الحاكم وآلته المقعدة ، فإذا بدأكم الحاكم بحسن الالتفات ونظر إليكم بعين الرأفة والرحمة ، فعليكم وجوباً كما أخذتم ما لكم أن تؤدوا ماعليكم ، وهو طاعة ولى الأمر ، الذى هو السبب الأعظم فى جميع هذه الخيرات التى شملتنا .

« بل هو الذى أنعش فى هذا الوطن روح الحياة بعد أن أشرف على المو ت والدمار فعليكم أن تكونوا دائماً على قدم الاستعداد لتنفيذ أحكامه ، والمحافظه على أوامره وقوانينه العادلة .

وعلينا أن نبتهل إلى الله تعالى بدوام بقائه وتأييد عزه ، وأن ينادى لسان الصدق منا فليعش الجناب الخديوى » .



٨ - عبد الله النديم

وكانت أول خطبة ألقيت عند سفر آلاى عبد العال حلمى إلى دمياط بعدانفراج الأزمة بين الخديوى والعرابيين .. قال :

« حماة البلاد ، وفرسانها :

من قرأ التواريخ ، وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل ، عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف . وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات ، فلذلك ارتقيتم ذروة ، ما سبقكم إليها سابق ، ولا يلحقكم فى إدراكها لاحق ،

أولا وهى : حماية البلاد ، وحفظ العباد ، وكف يد الاستبداد عنها . فلكم الذكر الجميل ، والمجد المخلد ، يباهى بكم الحاضر من أهلنا ، ويفاخر بمآثركم الآتى من أبنائنا .

فلقد حيي الوطن حياة طيبة بعد ما بلغت الروح التراقى ، فإن الأمة جسد ، والجند روحه ، ولاحياة للجسم بلاروح ، وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ، ويناجيكم ويقول :

إليكم يرد الأمــــر وهــو عظيـم	فإنى بكم طـول الـزمان رحيم
إذا لم تكـــونوا للخطــوب وللردى	فمن أين يأتى للــــديار نقـيم
وإن الفتى إن لم ينــــازل زمانـــــه	تأخــر عنــــه صاحب وحميم
فــردوا عنــان الخيــل نحــو مخيم	تقلبــه بين البيـــــوت نسيم
وشدوا له الأطــراف من كل وجهة	فمشـــدود أطــراف الجهات قديم
إذا لم تكن سيفاً فكن أرض وطــأة	فليس لمغلول اليدين حــــريم
وإن لم تكن للعائــذين حمـــايــة	وأنت ومخضوب البنان قســيم

« ولقد ذكرتم باتحادكم ، وحسن تعاهدكم ، ماكان من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه عند تغيب سيدنا عثمان فى أهل مكة من مبايعة أهل الشجرة على حفظه وصيانته فصاروا يسمون العشرة المبشرين بالجنة . ،

وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الأوطان ، وإبقاء سطوة مولانا الخديو وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم من كل مايذهب بالثروة ، أو يضعف القوة ، أو يخدش الشرف ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

٩ ـ مصطفى كامل

(من خطبته الكبرى التى ألقيت بالإسكندرية فى يوم ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٧ عقب عودته من أوربا .
عن : الرافعى مصطفى كامل ص ٤٦٨ ـ ٥٠٠) .

★ ★ ★

سادتى وأبناء وطنى الأعزاء .

بأى لسان أشكركم على مظاهرتكم الودية لى ، وانعطافكم العالى ، على ، وليس لى مطمع فى هذه الحياة إلا أن أراكم متفقين معى شعوراً ورأياً ، وقد حققتموه فأبلغتمونى ما أتمناه إلا أنى أعلم أنكم إنما أردتم بمظاهرتكم هذه أن تجيبوا أولئك الأعداء الظاهرين والمستترين وتسمعوهم أصواتكم جهيرة ، وتقولوا للملأ كله إنكم أعوان الشعور الوطنى وأنصار النهضة المصرية وأن خدام هذه البلاد يجدون منكم على الدوام كل مؤازرة ورعاية .

أيها السادة :

ظن الساسة الإنجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر طويت أوراق هذه القضية الخطيرة وخفت كل صوت ومات كل أمل ، وحل اليأس محل الرجاء ، وصار الشعب المصرى أثراً كتلك الآثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام .

ولكنهم أخطأوا خطأ كبيراً . نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس فى تدبير الشئون وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل .

أخطأوا :

لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحاً جديداً أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها . ولا حياة لأمة بغيرها ، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها ، وهى : إن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ، ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها .

نعم فقهنا أن الشعوب التى لا ترجو الرقى إلا بمعونة جيرانها وأصدقائها ، ولا تحفظ استقلالها إلا بالاعتماد على حلفائها هى شعوب فى خطر وحياتها مهددة فى كل وقت .

دهش الذين كانوا لا يرون فينا إلا أمواتاً تتحرك ، كما بهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التى دبت فى الأمة وقالوا . عجباً أحيا هذا الشعب ؟ أتنهض مصر بنفسها ؟ أتعمل للاستقلال وحدها ؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها ؟ أتقاتل اليأس والقنوط وتتغلب على الحوادث والكوارث ؟ .

أجل وألف مرة أجل : إن مصر بالغة آمالها ومحققة أمانيها بإرادتها وهمتها إنكم تقولون يا أعداء مصر إننا عشنا القرون الطوال أذلاء تعساء يحكمنا الغير ، وتتبدل السلطة الأجنبية ولا يتبدل شقاؤنا ، وتجعلون هذا القول حجة علينا ودليلاً على أننا خلقنا للذل والهوان وأن السيادة الأصلية لن تسكن وادى النيل أبد الزمان !

كذبتم وحق مصر يا أعداء مصر . كذبتم على الله والناس ، فما بقاء هذه الأمة بعد اشتداد الأرض والمصائب وتعدد الإهانات والنوائب ووجود الروح الوطنية فيها بعد كل ما كان إلا دليل قاطع على أنه قد حان الوقت لأن تسترد حقوقها المسلوبة ، وتسترجع مكانتها فى الوجود .

★ ★ ★

« إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا ، وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها . فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات تقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية .

نعم إننا لو تخطفنا الموت فى هذه الدار . واحداً بعد واحد لكانت آخر كلمات لمن بعدنا كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل النصر على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس » .

بلادى بلادى ، لك حبى وفؤادى لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى لك قلبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر .

أيها السادة :

يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الإنجليز أن يلقبونا بالمتطرفين نلقب بالمتطرفين لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها ، لأننا نذكر إنجلترا بشرفها وعهودها ووعودها . لأننا

تقول لها بصوت الحق والاعتقاد القوى أن المستقبل يكفل ذلك الاستقلال ، وأنه خير لها ألا تقاوم الحوادث فيما بعد ، وألا تحاول إعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل .

متطرفون ! لأننا نعلن الثقة الكاملة بمستقبل بلادنا ، وتقول لهذه الأمة في الصباح والمساء اليوم عسر وغداً يسر ، اليوم أسر وغداً فخر ، اليوم احتلال وغداً استقلال ، اليوم عناء وشقاء ، وغداً رخاء وهناء .

متطرفون ؟ ! لأننا نقول للأمة اعملى وحافظى على السكينة ، وإياك والقلاقل فهى تخدم العدو وتضر بالوطن إياك والانقسامات فإنها منشأ الخراب والدمار ..

متطرفون ؟ ! لأننا نقول للأمة خذى من العلم أوفر قسط ، وتسلحى بأسلحته ، واملأى وادى النيل من نوره ، وردى إلى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب .

متطرفون ؟ ! لأننا نرد تهم العدو ، ونثبت للعالم كله أننا متمدنون ، وأنه ليس للتعصب بيننا وجود وأن الإسلام عامل قوى لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها .

متطرفون ؟ ! لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع فى دنشواى وعارضنا السياسة الإنجليزية فى دعاويها ووقفنا فى وجوه أعدائنا والحق سلاحنا ، والصراحة عدتنا ، والإقدام مطيتنا .

متطرفون ؟ ! لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ، ونشخصها قوية ناهضة ، شريفة المقاصد أبية لا ترضى المذلة ، ولا تعرف الكذب والخداع .

فإن كنا نعتبر متطرفين لأننا نعلن ذلك كله ، ولأن هذه خطتنا فأكرم بالتطرف . ويا فخرنا أن نلقب بالمتطرفين .

أيها السادة :

لا يجهل أحد منكم أن الحركة الوطنية المصرية أزعجت محبى الاستعمار من الإنجليز فحاربوها بدنشواى فخابوا ، وبزيادة جيش الاحتلال فأخفقوا ، وبتهمة التعصب الدينى ففشلوا وأضحكوا العالم طراً ، وها هم اليوم يحاربونها بالخونة والمنافقين ، بعد أن عهدوا الأمر للدخلاء طويلاً فلم يبلغوا منا مأرباً ، وإنهم لمخفقون أيضاً فى هذه السياسة الجديدة .

إنهم لو جردوا جيوشاً من أعداء الحركة الوطنية المصرية فإنها لا تزداد أمامهم إلا قوة وحمية وثباتاً وإقداماً .

ليقلبوا نظام التعليم ما استطاعوا ، وليحاربوا الناشئين ما أرادوا فإن رجال الغد لا يكونون إلا مصريين وطنيين متشربين بمحبة بلادهم متطلعين لأن ينيلوها من المجد السؤدد أسمى مما نالت الأمم الأخرى .

لينفقوا الأموال ذات اليمين وذات الشمال لشراء الضمائر الخربة ، والنفوس المنحطة فإنهم إن كسبوا فرداً واحداً قام من الوطنيين الصادقين العشرات لهدم مايبنون وذلك مايقيمون .

إن أمة دب فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للاستقلال لاتموت أبداً ، وإن صواعق السياسة كلها لاتتحول ضميراً لاذ بالوطنية من وجهته .

* * *

ينادى البعض فى هذه الأيام بأن كلمة الاستقلال توجع الإنجليز ، وإنه أشير عليهم من بعض أنصار مصر فى إنجلترا بأن الأصلح والأوفق الاكتفاء بطلب الإصلاح ، وإهمال مسألة الجلاء والاستقلال ، أو على الأقل تأجيلها إلى حين .

وإنى لمفصح الآن أمام الأمة كلها عن رأيى فى هذه السياسة التى يتوهم ذلك البعض أنها من أكبر ضروب الدهاء .

إن العمل بآراء الإنجليز الذين يشتغلون بمسألة مصر فى إنجلترا ليس مما يطالب به مصرى ، لأن هؤلاء الإنجليز يعملون لخدمة إنجلترا بالذات ، فهم يريدونها ، أن تكون سياسة بلادهم سياسة لين وقهارة بدلاً من أن تكون سياسة مشددة وصلابة ، وهم إن اتفقوا معنا فى بعض المسائل فهم مختلفون معنا فى الجوهر ، ولذلك نرى بعضهم يرى بمزيد الاستياء الحركة الوطنية الداعية إلى الاستقلال .

فنحن مسلوبون ، والإنجليز هم السالبون ، ونحن طلاب حق مقدس ، والإنجليز هم مغتصبو هذا الحق ، فلا سبيل إلى الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ورده إلينا .

يتوهم أنصار سياسة المغالطة أنهم مهرة قادرون وسياسيون محنكون ، فلذلك هم يريدون أن يخدعوا الدولة الإنجليزية ، ويغلبوها بقوة الدهاء ، وهم يقولون « لنهجر طلب الاستقلال ، ولنطالب الإنجليز بالإصلاحات الداخلية مثل تأسيس مجلس نيابى ونشر التعليم حتى إذا صرنا أصحاب الحول والطول فى الجلاء قلنا لهم « انجلوا عنها » فلا يستطيعون إلا أن ينجلوا خاضعين ممتثلين .

اللهم أنى أعترف بأنى لست من المهرة فى السياسة حتى أدبر مثل هذا التدبير ، وأصرح بأنه لم يخطر لى لحظة واحدة على بال بأنى قادر على أن أصرع السياسة الإنجليزية بمثل هذه المهارة الفائقة ..

باطلاً يعتقد البسطاء أن الإنجليز مع كونهم ينوون البقاء فى مصر يقبلون منح أهلها

حكومة دستورية لأنه لو جاز ذلك لكان وجودهم فى هذه الديار يوم يؤسس فيها مجلس نيابى تام السلطة واسع السلطان نافذ الكلمة لغواً ولأصبحوا فى هذا القطر لاعبين .

★ ★ ★

أسمع المعترضين يقولون وبم تمتاز سياستكم على سياستهم وما ثمراتها ؟ فأجيب بأن سياستنا هى سياسة الصراحة والمناداة بالحق والدعوة للاستقلال ، وهى وحدها الموصلة إلى كل الغايات الحسان بالصراحة وقول الحق من الخلال التى تحمل الحاكم على احترام المحكوم .

فالإنجليزى لايشك فى أن كافة المصريين يودون الاستقلال من أعماق قلوبهم ، فإذا رأى بعضهم يقول عكس ذلك ويتحبب إليه ، ويطعن فيمن يخالفونه فى خطته عرف أنه منافق واحتقره ، ورمى الأمة بعدم الاستعداد للاستقلال .

وقد قال غمبتا حقاً وصدقاً « لأجل أن تنال محبة الإنجليز يجب أن تنال احترامهم » .

أيها السادة :

ماذا يريد الإنجليز منا ؟ أيريدون أن نسمى سيئاتهم حسنات ، ونصفق لضياع حقوقنا واستيلائهم على بلادنا وتجريدهم إيانا من كل سلطة ونفوذ ؟ هل كانوا يسيرون بهذه الحال لو كانت بلادهم محتلة بدولة أجنبية ؟

مَن من المصريين يذكر اتفاقية السودان ويشكر المحتلين ، وكيف يشكرهم ، وهم قد ضغطوا على حكومة فى قبضتهم فأتت ما أرادوا مع مخالفة الأمر للفرمانات السلطانية ، وبطلانه من الوجهة القانونية ؟ .... أى مصرى يرضى عن قوم لايعرفون العدل والإنصاف والمساواة إلا إذا كان الأمر متعلقاً بمصرى . أما إذا كان له مساس بإنجليزى فلا عدل ولا إنصاف ولا مساواة .

.... أليست دنشواى وحدها بكافية لأن تثبت مدى الدهور والأجيال أن الأنجليز هانوا المصريين إهانة قاسية لاتنسى أبداً ، ولا يمكن اختلاف اثنين من المنصفين فى الحكم عليها .

وكانت آخر كلمة له فيها : أيها السادة إن العالم كله ينظر إلى مصر وما سيكون من أمر حركتها الوطنية وأن أعداءنا يدبرون ألف تدبير وتدبير لهدم دعائم هذه الحركة ومحو آثارها ، فاذكروا ذلك على الدوام ليزداد الاتفاق بيننا ، وليوجد الإخاء بأسمى معانيه بين صفوفنا .

١٠ ـ محمد فريد

من خطبته بالإسكندرية فى ١٥ من أغسطس سنة ١٩٠٨ عن الحالة السياسية فى البلاد .
(الرافعى محمد فريد ص ٧٤ـ٧٧ الطبعة الأولى سنة ١٩٤١)

★ ★ ★

بدأها بتهنئة الأمة العثمانية على إعلان الدستور ودورى الأمة المصرية إلى مضاعفة جهودها لنيل دستورها ، وعرج على الحركة الوطنية فى مصر ، ونادى بالتمسك بالجلاء ، واستنكر ما كانت الأحزاب الأخرى تدعو إليه من توجيه طلبات الإصلاح إلى الحكومة البريطانية ، وطعن على وفد من المعتدلين ذهبوا إلى لندن لهذا الغرض فى صيف ذلك العام فقال :

« يقول لنا خصومنا السياسيون كيف نطلب الجلاء من أمة عزيزة الجانب كثيرة الجيوش والأساطيل ، إن هذا المطلب يعد تهديداً بل جنوناً إذ لم يكن لنا أساطيل تعادل الأساطيل الإنجليزية وجيوش تضارع جيوشها ، أى أننا لانطلب الجلاء أبد الآبدين .

وحيث أنه من الجنون الحقيقى أن نعتقد بأن مصر يكون لها يوماً من الأيام هذه القوة الهائلة فكأنهم يقولون للمصريين : اقبلوا الاحتلال شاكرين ، وامتثلوا لحكم القوة صاغرين فإن الحق فى جانبها دائماً ، ولذلك ترك بعضهم المطالبة بالجلاء وسموا هذا التحول اعتدالاً فى المبدأ ، وما هو إلا خيانة كبرى للوطن وبنيه .

وأخذوا من ثم تولية وجوههم شطر لندرة عاصمة الإنجليز لطلب بعض الإصلاحات البسيطة تعمية على الرأى العام وتضليلاً له ، واغتراراً بوعود بعض أعضاء مجلس النواب الإنجليزى الذين ألفوا ما أسموه (اللجنة البرلمانية المصرية) لمساعدة هؤلاء المعتدلين على الإصلاح الداخلى بشرط عدم التعرض للاحتلال بكلمة .

وقد كثر توجيه الأسئلة من هؤلاء الأعضاء إلى وزير الخارجية الإنجليزية عن شئون مصر الداخلية ، كأن مصر أصبحت مستعمرة إنجليزية تسأل حكومة إنجلترا عن إدارتها !

واستبشر بعض البسطاء بهذا الاهتمام الظاهرى الذى من ظاهره الرحمة ومن باطنه

العذاب ،ونسوا الأمر الأساسى الذى لا يجوز أن يكون لنا مطلب غيره من الإنجليز ألا وهو الجلاء العاجل .

ثم ترقت هذه الفكرة المصرية فكرة السكوت عن الجلاء وعدم المطالبة به تصريحاً حتى أن بعض الأحزاب لم يذكره فى برنامجه ، بل اكتفى بالتذكير بالوعود ، فإذا ما اعترض عليه قال إن الجلاء من ضمن هاتيك الوعود التى يطلب الوفاء بها .

وإذا لامه أصدقاؤه الإنكليز قال إنى لا أطلب الجلاء بل وضعت هذه الجملة المبهمة حتى لايرمينى المصريون بالخيانة ، فهكذا السياسة ، وهكذا الدهاء.

بعد ذلك ظهرت فكرة إرسال الوفود إلى لوندره ، لا لطلب الجلاء ، أو للاحتجاج على دوام الاحتلال ، بل لاستعجال العطف والخضوع فى طلب بعض إصلاحات داخلية محضة كالتى نطلبها يومياً على صفحات الجرائد ، فدبرت هذه الوفود بالطريقة التى علمها العموم ، أى بالاتفاق بين أعضاء اللجنة البرلمانية وأصدقائهم هنا ، وبقى هذا الأمر مختفياً حتى لاتنقده الجرائد بما يستحق إلا قبل سفر الوفد بيومين .. »

وبعد إفاضة فى موضوع الوفد قال فريد :

« كيف يجوز لمصرى أن يقول بهذه الرقابة ، أو يعترف بها ، ويقبل أن ترمى أمته بالقصور وعدم الصلاحية لإدارة شئونها بنفسها »

وكيف يجوز لمصرى أن يسكت عن الاحتلال وعن طلب الجلاء ، ولا يجعله فى مقدمة أمانيه التى يجهر بها صباح مساء ، أو كلمته التى يسبح بهافى الغدو والآصال ؟

نعم هى الكلمة التى يجب على الأمهات تلقينها لأولادهن قبل الفطام ، فينطقون بها وقت ما يقولون أماه . نعم يجب عليهن تعليمهم النطق بهذه الكلمة التى معناها خلاص أمهم الحقيقية ، وهى مصر من ربقة كل احتلال أجنبى .

ولذلك أعلن هنا أننا براء من كل شخص أو جماعة يقولون بغير الجلاء ، أو يرضون بالاحتلال أو يسكتون عنه مرضاة لجماعة من مجلس النواب الإنجليزى ، يغررون بنا ويوهموننا بالمساعدة على نيل الإصلاح ، إن نحن قبلنا الاحتلال أو سكتنا عنه .

كيف نقبل الاشتراك فى العمل مع قوم هذامبدؤهم ، وتلك غايتهم ، وأى إصلاح يرجى ممن يسعى لابتلاع بلادنا بطريقة قانونية ، بعد أن احتلها بطريقة غير شرعية ؟

وكيف نساعد المغتصب على تأييد اغتصابه ،أو على إعطاء الاغتصاب هذا الشكل القانونى الذى لم يحصل عليه للآن ؟

« إن كل ما طلبه هذا الوفد سنحصل عليه فى وقت قريب حينما يرد إلينا الدستور الذى لانطلبه إلا من الخديو المعظم ، فلتكن كل قوانا ومساعينا موجهة إلى نيل هذا الدستور الذى أصبح على الأبواب .

« اطلبوا الدستور من الجناب العالى الخديوى ، قدموا العرائض بهذا الطلب الجليل الذى لا قوام لنا إلا بعد نيله ، وانبذوا الشقاق والاختلاف الدينى وكونوا جميعاً إخواناً أبناء وطن واحد ، أى كونوا مصريين قبل كل شىء » .

١١ ـ أحمد لطفى السيد

(من خطبته التى ألقيت فى نادى حزب الأمة بسراى البارودى وكانت بشارع غيط العدة بجوار باب الخلق ، ونشرت بعدد الجريدة رقم ٣٦٢ الصادر فى ١٧ من مايو سنة ١٩٠٨ بعنوان « الحالة الحاضرة » كما نشرت فى كتاب « صفحات مطوية » لطفى السيد ص ٧)

★ ★ ★

« أيها السادة :

إذا كان حل المسألة المصرية أو استقلال مصر أمراً أوربياً محضاً كما قال لورد كرومر فلا شك عندى أن جميع الأعمال التحضيرية التى تؤدى حتماً إلى الاستقلال هى بيد المصريين ومن أعمالهم الذاتية التى لا دخل لأوربا فيها .

المصريون هم الذين يقومون بتعليم أنفسهم وترقية أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ثم لا يكون من عمل أوربا بعد الاعتراف لهم بالاستقلال ، المصريون يقومون بوضع المقدمات المنتجة للاستقلال وأوربا تعترف بذلك الاستقلال . فعمل أوربا لنا لا يمكن أن ينتظر مطلقاً قبل أن نفرغ نحن من القيام بواجبنا الوطنى الأقدس الذى هو استجماع كل الأسباب المؤدية إلى الاستقلال » .

وبعد أن تحدث عن خطأ المصريين فى تقدير الواجب الذى تلقيه عليهم مسئولية العمل لاستقلال مصر والتعلق بما تقوم به تركيا أو فرنسا أو إنجلترا ، اتجه لتحديد الملامح التى كانت تقوم عليها سياسة « لورد كرومر » فى مصر والتى تقضى على أمل المصريين فى الاستقلال لا أن تقربهم منه فقال :

« أجل كان اللورد كرومر يسير فى سياسته على حزب من الاستئثار بالسلطة تقتضيه مصلحة الاستعمار .

إنماء فى الحركة الاقتصادية يأمن به الأوربيون على مصالحهم فلا يحركون ساكناً فى المسألة المصرية .

وضغط شديد على التعليم فى مدارس الحكومة . وإيقافه عند حد يضمن عدم نبوغ أبناء المصريين وتقدمهم فى العلم .

واعتبار الموظف المصرى دائماً آلة فى يد الموظف الإنكليزى حتى يفقد البقية الباقية من ملكة الحكم ، وليستوى فى العبودية أمام الإنكليز الرفيع والوضيع والموظف وغيره ، واعتبار الأمة برجالها كمية عاطلة عمياء ، لاتبصر مرئياً ولا تعترف بجميل .

وإذاعة الأخبار عن تعصب المصريين واضطرابهم فى جميع أرجاء العالم حتى يبرز تصرفه فى مصر على ما يشاء .

تلك هى سياسة اللورد التى يكون من جرائها القضاء على رجاء كل مصرى فى الاستقلال جاء السير إلدون جورست تستقبله الأمة بما ذكرنا من الآمال فى تغيير سياسة سلفه تغييراً جوهرياً ، وها هو ذا قد أقام بين ظهرانينا عاماً كاملاً تفشت فى خلاله الأزمة المالية تفشياً هائلاً ، فلم يشأ أن يمد يده لمساعدة الأمة بأية صورة من الصور رغماً من إلحاح جميع طبقات الأمة . ثم رمانا آخر العام بتقرير يبين فيه سياسته فلم نجد مخالفة مطلقاً بينها وبين سياسة سلفه بل كان تقريره وتقرير سلفه مكتوبين بقلم واحد .

نعم يوجد بين سياستيهما فرق واحد هو اتفاق بينه وبين صاحب السلطة الشرعية لم نعهد لها مثيلاً فى أيام سلفه . وقد أيده بما ذكره فى تقريره إذ يقول :

« ومهما يكن قد تم من الأعمال الحسنة فالفضل للخديوى ونظاره على معونتهم الصادرة من صميم الفؤاد ، واتفاقهم على العمل بالوئام والإخلاص مع البريطانيين الموظفين فى الحكومة المصرية » .

« هذا هو كل الفرق بين السياستين . ولكن ماذا نجنى نحن الأمة من هذا الوفاق ؟

لم نجن شيئاً مطلقاً ، بل قد يثقل على نفوسنا أن نحتمل أن أميرنا يكون موضوعاً لمدح أو غيره فى تقرير قنصل حكومة محتلة بالفعل لا بالقانون . خصوصاً أنه ليس من البعيد أن يظن الناس بحق أن الأمير راض تمام الرضا عن سياسة هذا المعتمد الجديد الذى يقضى فيها على كل أمل فى الاستقلال . »

« كنا قطعنا الأمل من المعتمد القديم ، وليس عندنا الآن أدنى دليل يدل على أن المعتمد الجديد يترك محلاً لثقتنا فى انتقال نظاماتنا إلى أحسن حال .

« رأيتم أن الإنكليز هم الإنكليز ، وأن السير إلدون جورست مع اتفاقه مع السلطة الشرعية أشد خطراً علينا من « اللورد كرومر » باختلافه معها . فعلى من يكون اعتمادنا

فى بلوغ الاستقلال ؟ على أنفسنا ، وعلى أعمالنا ، على تضامننا ، على أن نكون كما قال « صولون » « خير الأمم أمة يتأثر فيها جميع الأفراد للإهانة التى تقع على واحد منهم » يطالب جميعهم على السواء بتعويض الإهانة بنفس الحدة التى يطالب بها من وقعت عليه شخصياً .

ويعد دعوة إلى مواجهة العيوب الاجتماعية بصراحة وشجاعة تحدث الخطيب عن حالتنا السياسية وعن الفرق بين حكم محمد على وحكم الخديوى فقال :

« كان يجب أن يكون الفرق بين حكومة محمد على باشا وحكومة سمو الخديوى كالفرق بين مبادئ الربع الأول من القرن الماضى وبين المبادئ الحالية للقرن العشرين . كان لحكومة محمد على باشا شبيهات فى الحكومات الأوربية المتمدنة وقتئذ، ولكن حكومتنا الحالية ليس بينها وبين حكومات أوربا حتى الصغيرة منها شبه ما .

كان يجب أن يكون الفرق بين حال أمتنا فى عهد محمد على باشا وبينها الآن كالفرق بين جهلها وفقرها فى ذلك العهد ، وبين معارفها وثروتها اليوم ، ولكن أمتنا لاتزال تحفظ شبهاً كبيراً من صورتها فى أوائل القرن الماضى فيما يتعلق بحالها السياسية .

لا أنكر أن حكومة اليوم فيها نظامات قضائية ونظامات إدارية ، وأن أمتنا اليوم فيها أناس متعلمون ، ولكن الحكومة والأمة لاتزالان تحفظان من صورتهما القديمة أسوأ العلاقات بين الحاكم والمحكوم .

تحفظان مبدأ الاستبداد : استبداد بالرأى من جانب الحكومة وطاعة عمياء من جانب الأمة ، فما أشبهنا اليوم بنا أيام الظلمات الأولى ».

واستطرد بعد هذا إلى الحديث عن الرأى العام فقال ساخراً :

« من ينظر إلى الرأى العام فى زمن محمد على باشا يجد أنه كان متحابس الأجزاء متماسك الجسم مركزه كاذب حقيقة ، إلا أنه كان قوياً فى خطته ، وكانت محكمته نافذة الأحكام ، يخيل إلى أن أول مادة صدر بها قانونها هى هذه المادة أو مافى معناها :

« يجب على المصرى منفرداً ومجتمعاً أن يوارى الحاكم الأكبر ومن دونه ، وأن لايغرر بنفسه فينتقد عملاً من أعماله ».

وبقية قانون الرأى العام أو قانون السلوك السياسى للأمة كان محرراً على هذا النمط : تحذير من الوقوف فى وجه الأسد حباً فى الحياة الخسيسة أو خوفاً من العقاب الصارم الشريف ، ضعف وهوان باسم الطاعة ، نفاق وتملق باسم الإخلاص ، اعتبار أن شكل الحكومة إنما هو قضاء من الله لا مرد له ولا يخفف لويلاته إلا هو . »

« حقيقة أن ذلك القانون قد بادجسمه ولم يبق منه إلا رسمه ، وهو هذا الذى لاتزال تلحظه إذا أمعنت النظر فى خلال حديث من يحادثك فى السياسة من بعض سياسى الصدفة الذين لا يزالون يدعون « ربنا يولى من يصلح » . وتلك هى الجملة التى تختم بها عادة المناقشات السياسية فى « المنادر » (١) ولا يظنون لشدة تواضعهم أن الواحد منهم هو جزء غير منقسم من الإرادةالعامة للأمة التى يجب أن يخضع لها كل عظيم ، وأن مقامها فوق كل مقام . »

وبعد أن أفاض فى تحليل الرأى العام وانتهى –رغم مايبدو فى الظاهر – إلى إثبات بعض الترقى فيه وفى أهلية الأمة للاستقلال عقد مقارنة بين « النظامات »التى كان يريدها المشروع المصرى لترقية الأمة وبين ما شرعه المحتلون فقال ؟

« دونكم نظامات سنة ١٨٨٣ وما كان ينويه الشارع المصرى وقتئذ من ترقية الأمة تدريجياً ودونكم نظامات اليوم .

اسمحوا لى أن أعرض لكم صورة النظامين لتروا أنفسكم بأننا نتأخر فى روح التشريع وفى تنفيذ القوانين عوضاً عن أن تتقدم كما يعدوننا كل يوم .

إن قوانين سنة ١٨٨٣ تحصر السلطة دائماً فى شخص الباب العالى ووزرائه ، إلا أنها كانت مع ذلك ترمى إلى تنفيذ أربع قواعد معقولة يؤدى تنفيذها بالزمان إلى الحكومة الدستورية وهى على ما رأيت بالاستقراء :

١ – ليس للإخلال سلطة على الناظر فى نظارته .
٢ – كل سلطة تؤخذ من الحاكم الإدارى إلى الحاكم القضائى هى كسب للأمة .
٣ – كل ضمانة تعطى للحاكم القضائى هى تقدم نحو الحرية والاستقلال .
٤ – كل توسيع فى منطقة الانتخابات هو ظفر وتقدم نحو الحكومة الذاتية .

بناء على هذه القواعد كان كل ناظر عاملاً حقيقة لا حكماً ، غير مشارك فى أعمال نظارته ولا راضخ إلا للقانون الأصلى فى تشكيل الوزارة وسقوطها .

أخذت أغلب اختصاصات الحكام الإداريين . أحيط القضاة جميعاً بضمانة عدم العزل وعدم النقل وعدم الرضوخ إلا إلى القانون . كان العمدة يعين بانتخاب الأهالى ومحض إرادتهم .

لو نفذت كل هذه القواعد التى كانت روحاً للتشريع بالضبط وحسن النية لكنا قد وصلنا اليوم إلى الحكم الذاتى المطلوب .

ولكن كل وزير مصرى قد رمى فى نظارته بمستشار عين ليستشار وليس له من التنفيذ شيء ، فإذا هو فى العمل كل شيء ، والناظر مهما كان علمه ومهما صحت رغبته أمام هذا المستشار المدرع بقوة الاحتلال ليس إلا مرءوساً رضى الناظر بهذا الاعتداء أو لم يرض ، والنتيجة دائماً إن الاحتلال يكتب شيئاً وينفذ غيره .

محيت ضمانات القضاة الابتدائيين وضربت عليهم المراقبة الشائنة بكرامة القاضى رضى القضاة أو لم يرضوا ، فالنتيجة تقهقر فى التشريع .

جعل للحكام الإداريين إشراف على التحقيق الجنائى ، وجعل النظارة الحقانية حق نقل قضاة الاستئناف فى المحاكم الجنائية ، رضوا أو لم يرضوا فالنتيجة أن التشريع سائر إلى الوراء .

جعل انتخاب العمد ، عمد البلاد (واسمهم كاف فى إظهار أهميتهم) بمحض إرادة الداخلية بواسطة لجنة إدارية ، وأصبحوا يعاقبون على الإهمال بالحبس رضى العمدة والأمة أو لم يرضوا فالنتيجة أن التشريع سائر إلى الوراء .

« وعلى ذلك يظهر لكم بالعيان أننا فى جميع نظاماتنا الحكومية نتعهد إلى الوراء ولا شيء عندنا من ذلك يسير إلى الأمام حتى ولا الوعود . فإن وعودهم إن لم تكن تتقهقر كثيراً عن أزمان « غلادستون » فإنها على الأقل ثابتة فى مستوى واحد ، ولا فرق إلا فى كيفية أدائها » .

قال اللورد « دوفرين » « إن الحكومة الذاتية المحلية أحسن إعداداً وأصلح ملاقاة لما يقرب النظام الدستورى » .

قاعدة حسنة مقبولة ، ووعد ينمى الرجاء ، كررها اللورد كرومر وقال بها السير إلدون غورست فى تقريره الأخير . وقد رأيتم أن العنصر الوطنى فى الحكومة يتزل عن السلطة شيئاً فشيئاً ، والعنصر الإنجليزى يأخذ السلطة شيئاً فشيئاً ، والنظام البيروقراطى الذى تسير عليه الحكومة الآن يميل إلى تركيز السلطة أو حصرها فى شخص الرئيس الإنكليزى دون الأهلى . لو علمتم ما للقضاة الإنكليز فى المحاكم الأهلية من الرقابة على زملائهم المصريين والأثر فى مستقبلهم وأضفتم ذلك إلى ما ذكرته لكم من تأخر التشريع فى روحه وفى تنفيذه ببعض أمثاله لعلمتم أن تخفيف المراقبة عن بعض المديرين لا يجيء بالنتيجة المقصودة من تشجيع العنصر الوطنى وتعويده الاستقلال وملكة الحكم .

هل بعد ذلك يصح القول بأن الإدارة الإنكليزية تسير على ما وضعه اللورد دوفرين من المبادئ لإنالة المصريين الحكم الذاتى والدستور بالزمان ؟

قال السير « إلدون غورست » « إن نظام الامتيازات الأجنبية أصبح لا يطابق الدرجة التى بلغتها الحضارة فى مصر » .

قول حق لا شبهة فيه ، ولكن إذا كانت حضارة الأمة بلغت مبلغاً لا يجوز أن يكون فيها طبقات ممتازة فكيف يسوغ أن تبقى فيها حكومة استبدادية بكل معانى الكلمة ومن كل وجه ؟

سلب نفوذ الحكام الوطنين بقوة الاحتلال ، وغصب حقوق الأمة بقوة الاحتلال كل ذلك يكون منطبقاً على تقدم مصر فى الحضارة فى نظر السير إلدون غورست — ولكن الامتيازات الأجنبية هى وحدها التى لاتنطبق على حضارة مصر ! !

★ ★ ★

وبعد حديث طويل عن الحالتين الاجتماعية والاقتصادية ختم خطبته بقوله :

« لا ييئسنا ما نشاهده من تصرف الإنكليز ، ذلك التصرف المبنى فى ذاته على قاعدة « أن الحق قوة » وإن كان لا يجرؤ أحد من ساسة القرن العشرين أن يعضد هذه النظرية التى ظهر فسادها وإنى شديد الاعتقاد بأنه سيأتى يوم يقوى فيه الرأى العام بخدمة رجال الأمة ، ويظلم الحكومة فيكون بيده الحق والقوى المعنوية ، قوة التماسك والاعتقاد . وقتئذ تصبح مصر للمصريين .. » .

مراجع البحث

مراجع عربية

١ – أحمد عرابى – الزعيم المفترى عليه محمود الخفيف مطبعة الرسالة - القاهرة ١٩٥٠

٢ – أدب المقالة الصحفية فى مصر د. عبد اللطيف حمزه ج ٨ ط القاهرة سنة ٦٣ و ج ٢ سنة ١٩٥٠ وج ٧ سنة ٥٩ .

٣ – أدب الخوارج د. سهير القلماوى

٤ – أعلام الصحافة العربية فى مصر د. إبراهيم عبده

٥ – البحر الزاخر محمود باشا فهمى القاهرة - المطبعة الأميرية (١٣١٢ هـ) .

٦ – الأسلوب أحمد الشايب القاهرة ط : سنة ١٩٥٢

٧ – البيان والتبيين الجاحظ الاستقامة سنة ١٩٤٧ . بالقاهرة ط :٣

٨ – الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر د. محمد حسين

٩ – الثورة العرابية عبد الرحمن الرافعى ط القاهرة سنة ١٩٤٨

١٠ – الخطابة أرسطو ترجمة د. إبراهيم سلامه نشر الأنجلو - القاهرة ١٩٥٠

١١ – الشفاء – الخطابة الرئيس ابن سينا القاهرة ١٩٦٤

١٢ – الشوقيات أحمد شوقى القاهرة ١٩٣٦

١٣ – الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د. شوقى ضيف

١٤ – المرأة الجديدة قاسم أمين

١٥ – المنتخبات أحمد لطفى السيد

١٦ – المؤتمر المصرى الأول مجموعة خطب ومحاضرات

١٧ – تاريخ الأستاذ الإمام محمد رشيد رضا مطبعة المنار بالقاهرة ١٩٣١ .

١٨ – تاريخ مصر السياسى محمد رفعت مطبعة الشباب بالقاهرة ١٩٢٠ .

الكتاب	المؤلف
١٩ ـ تاريخ التعليم فى مصر	د. أحمد عزت عبد الكريم القاهرة ١٩٣٨
٢٠ ـ تاريخ الأدب اليونانى	د. صقر خفاجة
٢١ ـ تاريخ آداب اللغة العربية	جورجى زيدان مطابع الهلال بالقاهرة ١٩١١ م .
٢٢ ـ تاريخ المسألة المصرية	العبادى وبدران لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٣٦ م .
٢٣ ـ تحرير المرأة	قاسم أمين
٢٤ ـ تيارات أدبية بين الشرق والغرب	د. إبراهيم سلامة القاهرة ١٩٥١
٢٥ ـ جمهرة خطب العرب	أحمد زكى صفوت القاهرة ١٩٦٢
٢٦ ـ حوليات مصر السياسية	أحمد شفيق باشا الطبعة الأولى١٩٢٨ القاهرة
٢٧ ـ روح الجماعات (جوستاف لويدن)	ترجمة : عادل زعيتر
٢٨ ـ ديوان البارودى	طبع وزارة التربية بالقاهرة
٢٩ ـ ديوان أحمد محرم	مطبعة الجريدة بمصر سنة ١٩٠٨
٣٠ ـ ديوان الكاشف	مطبعة الجريدة بمصر سنة ١٩١٣
٣١ ـ ديوان حافظ إبراهيم	القاهرة ـ الطبعة الثانيه١٩١١
٣٢ ـ ديوان عبد المطلب	
٣٤ ـ زعماء الإصلاح	أحمد أمين
٣٥ ـ سعد زغلول	عباس محمود العقاد القاهرة ١٩٢٨
٣٦ ـ صفحات مطوية	أحمد لطفى السيد مصر ١٩٤٦
٣٧ ـ شعراء الوطنية	عبد الرحمن الرافعى الطبعة الأولى ١٩٥٤ مكتبة النهضة .
٣٨ ـ عبد الله النديم ومذكراته السياسية	د. محمد خلف الله أحمد
٣٩ ـ عصر إسماعيل	عبد الرحمن الرافعى
٤٠ ـ فن الخطابة	د. أحمد الحوفى القاهرة ١٩٤٨
٤١ ـ فنون الأدب تشارلتون	ترجمة د. (زكى نجيب محمود)
٤٢ ـ فى الأدب المصرى	أمين الخولى
٤٣ ـ فى الأدب الحديث	عمر الدسوقى مطبعة الرساله بالقاهرة .
٤٤ ـ قواعد النقد الأدبى (آبر كرومى)	ترجمة د. محمد عوض محمد

٤٥ ــ كفاح الشعب من عمر مكرم إلى جمال عبد الناصر — محمد أمين حسونة القاهرة ١٩٥٤

٤٦ ــ مذكرات الخديو عباس — جريدة المصرى

٤٧ ــ مذكراتى فى نصف قرن — أحمد شفيق مطبعة مصر الطبعة الأولى ١٩٣٣

٤٨ ــ محمد فريد — عبد الرحمن الرافعى

٤٩ ــ محمد فريد — أحمد شوقى

٥٠ ــ مستقبل الثقافة فى مصر — د. طه حسين

٥١ ــ مشاهير الشرق — جورجى زيدان مطبعة الهلال بالقاهرة

٥٢ ــ مصطفى كامل — عبد الرحمن الرافعى الطبعة الثانية ـ النهضة ١٩٥٠

٥٣ ــ مصر والسودان أوائل عهد الاحتلال؟ عبد الرحمن الرافعى

٥٤ ــ مضابط مجلس شورى القوانين سنة ١٩٠٨

٥٥ ــ مصر المجاهدة — عبد الرحمن الرافعى

٥٦ ــ مصر للمصريين — سليم نقاش

٥٧ ــ مضابط مجلس شورى النواب ١٩٠٨

٥٨ ــ مضابط الجمعية العمومية سنة ١٩١٠

٥٩ ــ مضابط الجمعية التشريعية

٦٠ ــ مناهج الدراسة الأدبية — د. شكرى فيصل

٦١ ــ الدوريات

٦١ ــ المؤيد

٢ ــ اللواء

٦٣ ــ الجريدة

٦٤ ــ الوقائع المصرية

٦٥ ــ جريدة مصر

٦٦ ــ العروة الوثقى

٦٧ ــ روضة المدارس

٦٨ ــ الطائف

٦٩ ــ الأستاذ

٧٠ ــ المنار

٧١ — التنكيت والتبكيت
٧٢ — المصرى
٧٣ — الأهرام

مراجع أجنبية

1 — Cromer : Modern Egypt.

2 — Cromer : Abbas II.

3 — Milner : England in Egypt.

المحتوى

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

المكتبة العربية

- ٥٧ -

التأليف (٤٠)

الأدب [٣٤]

القاهرة
١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

"المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر"

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية



الثمن ٢٣ ص